

اصُول الفلسفة الماركسيّة

تأليف
جورج بوليتز
رحمى بيس ، موريس كافين

تقديم
سعدان بركات
للسانسيه في الآداب

اهداءات ٢٠٠١

١. صلاح واتبج

القاهرة

أصول الفلسفة الماركسية

تأليف
شعبان بركات
ليسانسيه في الآداب

تأليف
جورج پوليتزر
و
جيمس بيبي ، مؤلفين

٢

منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر
صيدا - بيروت

الطبعة العصرية
الطبعة والنشر
صيدا - بيروت

القسم الرابع

الملاية التاريخية

الانتاج القوى الانتاجية وعلاقات الانتاج

- ١ - ظروف حياة المجتمع المادية .
 - أ) البيئة الجغرافية .
 - ب) السكان .
- ٢ - طريقة الانتاج .
 - أ) القوى الانتاجية .
 - ب) علاقات الانتاج .
- ٣ - ملكية وسائل الانتاج .
- ٤ - تغير طريقة الانتاج مفتاح تاريخ المجتمعات .
- ٥ - الخلاصة .

١ - ظروف حياة المجتمع المادي

وأينا في القسم الثالث من هذا الكتاب ما هي نتائج النزعة المادية الجدلية إذا ما طبقناها على تاريخ المجتمعات ، ودرسنا كيف تنعكس حياة المجتمع الروحية ظروف حياته المادية.

ولكن هناك سؤال يعرض لنا وهو: « ماذا يجب أن نفهم ، حسب نظرة النزعة المادية التاريخية ، من « ظروف حياة المجتمع المادية » ؟ ان الظروف المادية ، أي الظروف الموجودة مستقلة عن إرادة الناس التي يجب توفرها لنمو المجتمع ، متعددة ومتفاعلة .

فما هي ، بين ظروف حياة المجتمع المادية ، القوة الرئيسية التي تحدد وجه المجتمع وطابع نظامه الاجتماعي ، وتطور المجتمع من نظام إلى نظام آخر ^(١) ؟

ادعى البعض ان هذه القوة الرئيسية هي البيئة الجغرافية ، وقال آخرون إنها ازدياد السكان . فهي اما ان تكون القضاء المحتوم الجغرافي أو القضاء المحتوم الناتج عن ازدياد السكان .

فليس أمام المجتمع ، كي يعيش ، سوى حلين عند الحاجة :

إما أن يغير الأرض ، كما تفعل القبائل الرحل فتغزو أراضٍ جديدة ، وإما أن يقلل من عدد سكانه ، مستخدماً الحصى (eugenis me) كما كان يفعل الاسبارطيون

(١) راجع ستالين : « النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية » ، ٣ ، ١ ، ص ١٩

القدماء^(١)؛ وإما بإهلاك الافواه التي لا فائدة منها كالعُجُز والمُقعدين والمرضى والمجانين، كما كانت تعمل بعض القبائل البدائية .

، وتجميع حرب الغزو والافناء الجماعي للسكان بين هذين الحليين . فلقد كان الحيي وافناء المعنويين يصعبان عند المتأخرين ، نظرياً وعملياً ، عقيدة « المجال الحيوي » (Leespace Vitale)

تدمر نفس النظريات البربرية الآن في أمريكا^(٢). وتمحط هذه النظريات بالانسان إلى مرتبة الحيوان، إذ حينما يعيش نوع حيواني على أرض ذات مساحة معينة ولها إمكانات غذائية معينة ، تنشأ « قوانين للاسكان » تسمح بالتنبؤ بتغيرات النوع. ويمكن لنقص الغذاء وضرورة استهلاك غذاء مختلف ان يؤدي إما لزوال النوع أو تحوله .

ولكن الانسان يختلف عن الحيوان : فهو يعمل ويناضل ضد الطبيعة . ولا يجب أن ننسى الجدلية : فليس هناك الطبيعة من جهة والناس من جهة ثانية ؛ الجغرافية من ناحية ، والبيولوجيا من ناحية ثانية، فيؤثر كل منهما تأثيراً شديداً .

يكذب هذه الفكرة التطبيق العملي للانسانية التي حولت الأرض لخدمتها عبر آلاف السنين .

(١) كانوا يتركون على الجبال المواليد الضعفاء .

(٢) راجع كتاب فوت (Vogt) : « جوع العالم » الذي يدعى بان « الأرض متضيق بين عليا » فيدعو مراعاة الحرب كعلاج لذلك . والواقع ان الرأسمالية بحاجة للحرب كي تستمر في العيش في مرحلة الاستعمار . فقد قال بول اليوار : « انهم يذلون تضارى جهدهم ليغفوا وحدهم على الأرض » .

١ - البيئة الجغرافية

البيئة الجغرافية ، بما فيها من طبيعة تحيط بالمجتمع ومناخ ومصادر طبيعية وسهولة مواصلات ، وأراضٍ ، هي شرط ضروري دائم لحياة المجتمع المادية . ولهذا كان من البديهي أن تؤثر على نمو المجتمع : فهي إما أن تعمل على هذا النمو وإما أن تعيقه . فلقد عملت سهولة استخراج الفحم الحجري في انجلترا على نمو الصناعة في هذه البلاد . بينما وجود المستنقعات التي تتطلب اعمال التجفيف ، او وجود الصحراء التي تحتاج للري أو فقدرات البترول كل ذلك ظروف يمكن أن تعيق نمو منطقة من المناطق .

غير أن تأثير البيئة الجغرافية ليس مبرماً . والدليل على ذلك أن التغيرات في المجتمع تتم بصورة أسرع من التغيرات في البيئة الجغرافية . فلو أن البيئة الجغرافية تؤثر تأثيراً مبرماً على تاريخ المجتمعات لوجب أن تحفظ هذا التاريخ بنفس العالم طالما أن البيئة الجغرافية لم تتغير تغيراً أساسياً . بينما عرفت أوروبا خلال ثلاثة آلاف سنة أربعة أو خمسة أنظمة اجتماعية مختلفة : نظام الكومون البدائي ، ونظام الرق ، والنظام الاقطاعي وأخيراً النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي . ولم تتغير ظروف أوروبا الجغرافية تقريباً خلال هذه الفترة من الزمن .

والنظام الاجتماعي ، بالعكس ، هو الذي يحدد تحول البيئة الجغرافية . إذ أن نظام الرق القديم استنفذ أرض حوض البحر المتوسط ودفع إلى غزو الجول وتسوية أرضها . كما أن البورجوازية التجارية الهولندية قد انتزعت ، في فجر الازمنة الحديثة جزءاً من بلادها من مياه البحر . ولقد حولت الرأسمالية القائمة على التبادل الحر حقول القمح الإنجليزية إلى مراعي للقطعان ؛ وكذلك قضت الرأسمالية على الغابات في مناطق كاملة من أوروبا ، فعملت بذلك على انتشار الطوفانات ؛ كما افقرت الأراضي الزراعية وحولت مناطق بأجمعها في الولايات المتحدة إلى بوايدٍ فقراء .

بينما تقوم ورشات العمل، في روسيا الشيوعية ، باخصاب الصحاري وتحويل مجاري الأنهار ، وتحسين المناخ . ولقد أوجد العلم التقدمي ، بعد دراسته لقوانين نمو الأراضي ، الزراعة القطبية ، واحيي « الأراضي السوداء » الشهيرة ، كما اكتشف قوانين تطور المناظر^(١) .

وكذلك قضت الديمقراطية الشعبية في الصين على مصائب فيضانات الأنهار الكبرى .

تحتج الطبقات الرجعية « بالبيئة الجغرافية » للتخلص من مسؤولياتها في المصائب العامة . فإذا كانت سدود هولندا قد تداعت عام ١٩٥٣ فما ذلك إلا لأن البورجوازية الرجعية أثبتت ان تسحب فلساً من ميزانية الحرب لاصلاح هذه السدود؛ وإذا كانت الجماهير الفقيرة في اليونان لم تحظ بالمعونة ضد الزلازل ، وفي ايطاليا ضد الفيضانات فسبب ذلك سياسة البورجوازية الطبقية وليست « البيئة الجغرافية » .

يدعي المؤرخون الاجتماعيون الديمقراطيون ، الذين يريدون انغفاء العامل الحقيقي في التطور الاجتماعي ، انهم يفسرون التاريخ بواسطة « البيئة الجغرافية » . وليس هدف هذه النزعة المادية الفجة إلا ان تقنعنا بأزلية « مدينة » غريبة أو اطلنطية مزعومة وتعارض « الشرق » و « الغرب » وتبوير الحرب الباردة .

(١) راجع سامنوتوف : الارض المزهرة . الجزء الثالث « خلق الحياة » الناثرون الفرنسيون المتحدون .

ب - السُّكَّان

السكان ، غوم وكثافتهم ، كل ذلك بدون شك عناصر ضرورية من بين ظروف حياة المجتمع المادية . إذ لا يمكن لأي مجتمع أن يوفر حياته المادية بدون حد أدنى من الناس وأن يقف في وجه قوى الطبيعة . وعدد السكان الفعاليين من العناصر التي يجب أن نحسب حسابها لتقدير القوى الانتاجية . لأن نمو السكان يؤثر في النمو الاجتماعي ؛ فهو يسهله أو يعيقه . وهكذا فإن تدفق الأيدي العاملة ، التي هاجرت إلى الولايات المتحدة ، قد ساعد على النمو السريع للصناعة الضخمة التي لم يكن قد مضى قرن على وجودها . كما أن افناء جزء من سكان اميركا الشمالية من الهنود على يد المستعمرين الانجلوسكسون ، قد ساعد على ركود القبائل الباقية التقني والاقتصادي .

ولكن هذا التأثير نفسه ليس فاصلاً ، والدليل على ذلك ان نمو السكان نفسه لا يمكن أن يفسر لنا لماذا يخلف نظام اجتماعي معين نظاماً اجتماعياً ولا يخلفه نظام آخر ، فخلف نظام الرق النظام الاقطاعي وهذا النظام الاقطاعي قد خلفه النظام الرأسمالي : فلو أن نمو السكان يؤثر تأثيراً قاطعاً لكان على البلاد التي بلغت أضخم كثافة من السكان ان تتمتع بأفضل نظام اجتماعي . فقد كانت كثافة السكان في بلجيكا عام (١٩٣٩) ٢٦ مرة اعلى منها في الاتحاد السوفياتي ، ومع ذلك لا تزال بلجيكا في مرحلة الرأسمالية بينما الاتحاد السوفياتي قد انتهى من هذا النظام .

والنظام الاجتماعي ، على العكس ، هو الذي يفسر حركة السكان . فليس من الصعب أن ندرك أن الرأسمالية في خفضها لقوة الجماهير الثرائية ، وافقار العمال ، وفرض حياة بائسة عليهم تزيد من نسبة الموت (ولا سيما بين الأطفال) . وأما في الاتحاد السوفياتي ، حيث تتعارض ظروف الحياة الاشتراكية مع ظروف الحياة الرأسمالية ،

فلقد ازداد عدد السكان بين ١٩٤٩ - ١٩٥٢ بما يقرب من العشرة ملايين ، أي بما يساوي سكان بلجيكا والقطاع الشمالي معاً .

ولهذا فإن الاقتصاديين البورجوازيين ، حين يعتمدون في تحاليلهم على حركة السكان ، دون أن يدركوا أن هذه الحركة في الواقع هي نتيجة ، يرتكبون في ذلك خطأً جسيماً .

ولهذا فليست البيئة الاجتماعية ولا نمو السكان هما اللذان يحددان طابع النظام الاجتماعي وتطور المجتمع من نظام إلى آخر .

وترى النزعة المادية التاريخية أن بين ظروف حياة المجتمع المادية قوة أخرى مستقلة في وجودها عن إرادة الناس وهي القوة الرئيسية للتطور الاجتماعي . وتكون هذه القوة من طريقة الناس في الحصول على وسائل معاشهم ، ألا وهي الوسائل المادية الضرورية للحياة . وهذا ما يسمى بطريقة الإنتاج للوسائل المادية .

٢ - طريقة الإنتاج

ليس هناك شيء آخر سوى الطبيعة والناس . ولقد رأينا أن كلا من هذين العنصرين لا يمكن أن يفسر ، لوحده ، نمو المجتمعات . بل إن اتحادهما الجدلي هو الذي يمدنا بالجواب . وهذا الاتحاد الجدلي هو العمل والإنتاج . إذ لا يمكن للمجتمع أن يعيش أو ينمو بدون العمل والإنتاج . وليس هذا قضاء الهياً محتوماً بل هو الشرط الموضوعي لكل وجود انساني :

وأمام المجتمع طرق عديدة للحصول على وسائل المعيشة الضرورية . فهو يمكنه

مثلاً ان يستخدم آلاف المصانع اليدوية أو يستخدم الآلات أو الحيوانات أو الارقاء .
ولهذا يجب أن ندرس الطريقة التي يتم بها الانتاج او طريقة الانتاج .

يفهم البورجوازي الصغير ، حين نتحدث عن طريقة الحصول على الوسائل المادية
الضرورية للعيش ، الظروف التي نشترها بها في السوق . ولكن هذا يتعلق
بالتوزيع والاستهلاك وليس بالانتاج مطلقاً . ومن البديهي أنه لا يوجد توزيع أو
استهلاك بدون الانتاج .

١- القوى الانتاجية

يحتاج الانسان إلى الغذاء والثياب والاحذية والسكن والمحروقات في معاشه .
ويجب أن ينتج المجتمع هذه الوسائل المادية لكي يستطيع الحصول عليها . ويحتاج
المجتمع في انتاجها آلات خاصة ، فيجب ان يعرف كيف يصنع هذه الآلات
وكيف يستعملها .

يؤدي بنا ، إذن ، تحليل القوى التي تساعدنا على الحصول من الطبيعة على معيشة
المجتمع ، إلى أن نميز بين :

① - آلات الانتاج التي تنتج بواسطتها وسائل الحياة المادية (ولا تحتوي هذه
الوسائل على وسائل الاستهلاك بل آلات الانتاج نفسها) .

② - الناس الذين يستخدمون الآلات (ولا سيما عدهم) والذين لا يمكن استعمال
هذه الآلات بدونهم .

③ - تجربة الانتاج التي اكتسبتها الأجيال المتتابة : التقاليد المهنية ، المعارف
التقنية والعلمية . فمن الصعب مثلاً أن نستغني ، في وقت قصير ، عن التجربة التي

تجمعت في صناعة الحرير في ليون .

(٤) - عادات العمل الخاصة بكل عامل ، صفته ، مهارته . إذا نظرنا إلى هذه القوى المادية في مجموعها وتفاعلها تكون لنا منها قوى الانتاج .

فما هو العنصر الأساسي الذي يسمح بتحديد حالة قوى الانتاج ؟ هي آلات الانتاج . لأن طبيعة هذه الآلات هي التي تحدد عدد الناس الضروري لانتاج عمل معين ، والمعارف التقنية الضرورية ، وعادات العمل التي يكتسبها المنتج باستخدامه لها . كما أن طابع العمل اليدوي وطابعه الفكري يتعلقان بطبيعة وسائل الانتاج .

ذلك لأن تطور قوى الانتاج مشروط بتطور وسائل الانتاج ؛ فقد كانت هذه الوسائل ، في أول الامر ، عبارة عن حجارة ضخمة بدائية ، ثم أصبحت سهاما مما ساعد على الانتقال من الصيد إلى تآليف الحيوانات وتربية القطعان عند البدائيين ؛ ثم ظهرت الآلات المعدنية التي ساعدت على الانتقال وتطور الزراعة ؛ وبعد ذلك حدثت اختراعات جديدة ساعدت على صنع المواد ، كصناعة الخزف (poterie) وصناعة الحديد ثم تطورت المهن . وتم انفصالها عن الزراعة ؛ ومن ثم ظهرت الصناعات اليدوية التي تمتاز بتقسيم العمل إلى مهام جزئية لصنع منتج معين^(١) ؛ وبعد ذلك تم الانتقال من وسائل انتاج الصناعة اليدوية إلى الآلة التي ساعدت على التطور من الصناعة اليدوية إلى الصناعة الآلية والمصنع والصناعة الضخمة الآلية الحديثة بظهور الآلة البخارية والطاقة الكهربائية .

ذلك هو عرض مختصر لنمو قوى الانتاج على مر تاريخ الإنسانية .

(١) هذا هو العمل الجماعي الذي يتألف من الجمع بين عدد كبير من العمال الذي يميز عصر الصناعة اليدوية « (ك . ماركس ، رأس المال ، الكتاب الأول ج ٢ ص ٣٩) .

وألاحظ أن هذا النمو هو أصل تقسيم العمل بين الناس، ولا سيما التقسيم الأول
الكبير للعمل : بين الصادين البدائيين وصيادي الأسماك وبين القبائل التي تقوم
بتربية المواشي ، ثم الزراعة .

وأما التقسيم الثاني للعمل بين المهني والزراعة فقد أدى بالضرورة إلى وجوب
تبادل المنتجات بين الزراع وبين العمال البدوين المهنيين ، والبحث عن توزيع آخر
غير التوزيع العائلي . وهكذا ظهرت في ظروف معينة ، سنحددها فيما بعد ، السلعة^(١)
كما أن هذا التقسيم الثاني للعمل هو أصل الاختلاف التدريجي بين القرية والمدينة (وهذه
الآخيرة ضرورية كمركز للانتاج ومصدر للتبادل) .

وأخيراً أثر تطور وسائل الانتاج على مظاهر قوى الانتاج الأخرى : لا شك
أن تطور وسائل الانتاج وكما لها قد تما على يد الناس الذين لهم علاقة بالانتاج ولم
يحدث ذلك بعيداً عن الناس . ولهذا ففي الوقت الذي تغيرت فيه وسائل الانتاج
تطور تغير الناس - وهم العنصر الأساسي في قوى الانتاج - أيضاً وتطوروا .
فتغيرت بذلك تجربتهم الانتاجية وعاداتهم في العمل ومقدورهم على استخدام
وسائل الانتاج وتطورت^(٢) .

فاضطرت البورجوازية الرأسمالية ، تلبية لحاجات الصناعة الضخمة الحديثة ،
إلى تعليم العمال القراءة والكتابة والحساب ؛ كما اضطرت إلى تنظيم التعليم الابتدائي
الجماعي الإجباري وفتح بعض المدارس المهنية .

ولقد حاول لسيون بلوم أن يدخل النزعة المثالية من جديد فادعي أن الآلات
لا يمكن انتقائها إلا بفضل اختراعات الفكر الإنساني، ولهذا فإن الفكر هو أصل

(١) راجع الدرس الثاني ، المألة الختامية .

(٢) راجع ستالين : النزعة المادية والنزعة التاريخية ص ٢٣ - ٢٤ .

تقدم قوى الانتاج . ولكننا نعرف كيف تتولد الأفكار من التطبيق العملي نفسه : وذلك أن أفكار الاتقان تتولد بفعل حاجات الحياة المادية ، فهي تظهر عند استعمال آلة من الآلات .

والآلة هي الوسطة بين الانسان والطبيعة ؛ ووظيفتها اننا تساعدنا على تحويل الأشياء الطبيعية الى أشياء يمكن أن يستعملها الانسان . ولهذا تعكس الآلة متطلبات المادة التي يجب معالجتها (لا يعالج النحاس بنفس الآلات التي يعالج بها الصلب) ومتطلبات الانسان الحياتية ؛ أي صفات الشيء الذي يجب أن يقوم بمخدمته والذي يجب صنعه (ولهذا اختلفت الآلات باختلاف المهام) .

تعتبر الآلة ، في المظهر الأول ، عن خضوع الانسان للضرورة الطبيعية ؛ بينما هي تعتبر في المظهر الثاني عن خضوع الطبيعة لحاجات الانسان وعمله ، أي حرية الانسان . تعتبر الآلة إذن بصورة جدلية ، عن النضال بين الانسان والطبيعة .

وأما قوى الانتاج فهي تعتبر عن منسلك الناس نحو الأشياء وقوى الطبيعة التي يستغفونها لانتاج منتجات مادية^(١) .

فبماذا ينتج الناس ؟ هل ينتجون بواسطة المحركات البدائي أم بواسطة المحركات المتعددة السلك ؟

تلك هي المسألة الأولى التي يثيرها تحليل طريقة الانتاج الا وهي مسألة مستوى قوى الانتاج .

ب - علاقات الانتاج

الانتاج هو نضال الانسان ضد الطبيعة . ولكن الانسان لا يناضل قط لوحده

(١) راجع مثالين : نفس المرجع ، ص ٢٠

لأنه ان فعل ذلك فشل وعاد القهري الى حالة الحيوان . ولهذا يناضل الناس سوية ضد الطبيعة . فهي كانت الظروف فالانتاج دائماً هو انتاج اجتماعي . لأن المجتمع هو الذي حمل الانسان ما هو عليه ، وهو الذي انقذه من حالة الحيوانية .

ولهذا فإن خطأ الاقتصاد السياسي البورجوازي الأسامي هو التحدث عن النشاط الاقتصادي عند رجل وحيد يشبه روبنسون كروزو أو آدم ، وهذا الانسان لم يوجد قط ، بل هو ضرب خيال ميتافيزيقي . ولهذا لم نبدأ نحن بالحديث عن المتنوعات المادية الضرورية للفرد بل عن المتنوعات الضرورية للمجتمع في مجموعة .

فإذا كان للانتاج دائماً طابع اجتماعي فلا بد من أن تنشأ بعض العلاقات بين الناس بصدد هذا الانتاج . وليست هذه العلاقات علاقات أفلاطونية بل هي علاقات تتصل بالانتاج وتخضع له . وليس هناك فقط علاقات الناس بالطبيعة (قوى الانتاج) بل هناك علاقات الناس فيما بينهم خلال عملية الانتاج ، ونسمي هذه العلاقات بين الناس علاقات انتاج .

ويمكن لعلاقات الانتاج بين الناس أن تكون أنواعاً متعددة

— يمكن للناس ان يجتمعوا بجرية للقيام معاً بعمل مشترك كبناء بيت مثلاً ؛ فننشأ بذلك علاقات تعاون وتعاضد بين اناس أحرار من كل استغلال ؛

— ولكن يمكن لأنسان أيضاً ، في بعض الظروف ، ان يضطر اخاه الانسان للانتاج من أجله ؛ فيتغير بذلك طابع علاقات الانتاج تغييراً سياسياً ؛ فتصبح علاقات سيطرة وخضوع ويظهر استغلال عمل الآخرين .

— وأخيراً يمكن ان نلقى ، عبر التاريخ ، مجتمعات يوجد فيها هذان النموذجان : أحدهما في طريق الزوال والآخر في طريق الاستمداد فننشأ علاقات فترة انتقال

من صورة لأخرى .

ولكن مهما كان نموذج علاقات الانتاج فإن هذه العلاقات عنصر ضروري للانتاج . ولتكف الآن بمثال بسيط فنقول ان الانسان الذي يعمل من أجل نفسه لا يعمل كالذي يشتغل من أجل الآخرين . ولقد بلغ من صحة هذا الأمر ان المستغلين يحاولون دائماً تغطية الاستغلال تحت ستار تعاون مزعوم وإيهام المستغلين بأن علاقات الاستغلال هي علاقات تعاون « عائلي » وهذا ما يسمى بـ (paternalismes) فيقولون للعالم : « دافعوا عن مصالح صاحب العمل فسوف نحكم تتالون الأجر على ذلك في الآخرة ! » .

ولكن إذا كان طابع علاقات الانتاج عنصراً أساسياً في الانتاج ، فإن هذه العلاقات لا تتفق والفكرة التي يمكن أن تكونها عنها. وكان ليون بلوم يقول ، منافقاً إنه لا يفهم لماذا تريد العلاقات الاقتصادية بماديتها على سائر العلاقات . ونحن نعلم أن المادية تعني الوجود بعيداً عن إرادة الناس ووعيمهم ، والانتاج بالنسبة للناس ضرورة موضوعية لا يمكن ان تتم إلا ضمن نطاق المجتمع كما هو كائن . مثال ذلك ان من لا يملك أي شيء من المنتجات المادية الضرورية للحياة مضطر ، مادياً ، للعمل من أجل الآخرين ، خاضعاً لسيطرة الآخرين . وهكذا ليس الاستغلال « فكرة » وإنما هو واقع موضوعي يؤثر في الانتاج .

ولا يؤثر الناس في الانتاج على الطبيعة فقط ، بل يؤثر أيضاً كل منهم في الآخر . فهم لا ينتجون إلا بالتعاون بصورة معينة ، متبادلين نشاط كل منهم فيما بينهم . فهم يقيمون في سبيل الانتاج ، علاقات معينة بعضهم مع بعض ، ويتحدد تأثيرهم في الطبيعة ، أي الانتاج ، في حدود هذه العلاقات الاجتماعية^(١) .

(١) راجع ك . ماركس : العمل المأجور والأحوال ، يتبعه الاجر والسعر والربح .

لا يمكن، إذن، فصل قوى الانتاج عن طابع علاقات الانتاج، لأن قوى الانتاج وعلاقات الانتاج « مظهران » لا ينفصلان عن طريقة الانتاج التي «تجسد» حسب تعبير ستالين، وحدتها الحدلية في عملة انتاج المنتجات المادية .

ولأنه لمن الخطأ الاساسي ان نجعل من دراسة الانتاج دراسة قوى الانتاج فقط . ولقد ارتكب هذا الخطأ، مع ذلك، الذين يعتقدون ان الماركسية تقوم على تفسير تطور المجتمعات بواسطة تطور قوى الانتاج فقط، ويتغاضون عن طبيعة علاقات الانتاج . ولهذا فإن تفسير العالم الحديث بواسطة آلة البخار وامال تحليل علاقات الانتاج الرأسمالية لا يدل على ايمان بالمادية بل هو تشويه لها . كما ان تعليم أطفال المدارس التقدم التاويجي للوسائل التقنية والتغاضي عن تعليمهم ماهية الاستغلال الرأسمالي خداع لهم وتقدير الماضي والحاضر والمستقبل تقديراً خاطئاً لهم .

ويرتكب نفس الخطأ أولئك الذين ينسون التقدم الاجتماعي وتقدم علاقات الانتاج فلا يرون في « التقدم » سوى التقدم التقني . ذلك كالت وهم البورجوازية في القرن التاسع عشر . وبهذا نشأت خيبة أمل مريرة لأن التقدم التقني والعلمي يمكن ان يخدم اعمال السلام كما يخدم اعمال الحرب، إذ أن الآلة يمكنها إما أن تقضي على العامل أو تحرره . حتى إذا ما أخذت الرأسمالية بالانحطاط، في عصر الاستثمار، وكشفت عن جروحها المزمنة من فقر واضطهاد وحرب، مستخدمة أحدث الوسائل في التقتيل، أعلن الحثاليون من انصار «التقنية» بانفلاس التقدم وحملوا الآلة مسؤولية المصائب التي يولدها رأس المال ! ويكرس بعض علماء الاجتماع البورجوازيين أنفسهم لمثل هذه السفسة ألا وهم دعاة « علم الاجتماع الصناعي » ولا سيما زعيمهم جورج فريدمان (Georges Friedman) فيقبنون وجهة نظر « اصحاب العمل » ويتظاهرون بالبحث عن سبب موقف العامل

« السليبي » في البلاد الرأسمالية، أمام العمل، فإذا به التزعة الآلية، بينما السبب الحقيقي هو استخدام الآلات الرأسمالي من أجل الانتاج الرأسمالي وزيادة الاستغلال . يقول ماركس إن قوى الانتاج لا تؤثر إلا في حدود علاقات الانتاج . ولهذا فإن استخدام الآلة ، في الاتحاد السوفياتي حيث زالت علاقات الاستغلال، لا يمكن أن يكون له سوى نتائج طيبة بالنسبة للعامل .

لا تختصر الآلات ، في روسيا ، العمل فقط، بل هي تسهل ، في نفس الوقت ، العمل للعمال . ولهذا يستخدم العمال الآلات عن طيبة خاطر في عملهم لانهم يعيشون في ظروف اقتصاد اشتراكي ، على عكس ما يجري في ظروف الرأسمالية^(١) .

تتغير التزعة المادية التاريخية الى طريقة الانتاج في مجموعها وفي وحدتها :
علاقات الانتاج وقوى الانتاج . وما كانت قوى الانتاج لا تؤثر إلا في حدود
علاقات الانتاج فإننا نسمي، عادة، مختلف طرق الانتاج بطابع علاقات الانتاج التي
تسيطر عليها ؟ فنحن حين نتحدث عن طريقة الانتاج نريد بذلك القول بأن علاقات الانتاج القطاعية كانت مسيطرة عليها، وكانت تطبع الحياة الاجتماعية بطابعها . ولا نعني بالضرورة القول بأنها كانت العلاقات الوحيدة . كما أنه ليس من العلم في شيء أن تسمى عصرًا تاريخيًا بالنسبة لحالة قوى الانتاج كقولنا العصر الحجري والعصر المعدني وعصر الآلة البخارية أو العصر الذري .

٣- ملكية وسائل الانتاج

وأينا ، حين درسنا قوى الانتاج (المسألة الثانية أ) أن وسائل الانتاج هي .

(١) ج . مالنكوف « تقرير المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي » .

كراسات الشيوعية (عدد خاص) تشرين الثاني سنة ١٩٥٢ ص ١١٣

العنصر الاساسي فيها . وذلك لأن طبيعة وسائل الانتاج هي التي تحدد ، في الحقيقة ، مستوى قوى الانتاج .

فانظر الآن ما هو الأهم في علاقات الانتاج . وما هو العنصر الذي يحدد طابعها ؟

تلك هي خاصية وسائل الانتاج .

من الواضح ان من يفترق الى هذه الوسائل لا يمكنه ان يعيش إلا إذا قبل سيطرة من يمتلكها .

ولا يجب أن نخلط بين وسائل الانتاج وبين منتجات الاستهلاك (كالأثاث ، ومنازل السكن ، والسيارة العائلية) ونعني بوسائل الانتاج كل ما هو ضروري للانتاج .

فما هي ، مثلاً ، وسائل الانتاج في المجتمع الحديث ؟ أولاً الخيرات الطبيعية (كالارض والغابات والمياه وباطن الأرض ، والمواد الأولية) ؛ ثم وسائل الانتاج التي تساعد على تحويل هذه الخيرات الطبيعية ؛ ثم المنشآت الضرورية للانتاج كأبنية المصانع ومنشآت المناجم ؛ ووسائل النقل والاتصال . يضاف إلى ذلك وسائل ~~وسائط~~ التبادل بين أعضاء المجتمع ؛ كالمنشآت الضرورية للتوزيع والتجارة (المستودعات . مخازن البيع) ومؤسسات القروض (كالمصارف) .

والسؤال الذي نسأله إذا ما أردنا تحديد طابع علاقات الانتاج هو السؤال التالي : من يملك وسائل الانتاج ؟ هل هو المجتمع بأكمله ؟ أم الأفراد أو الفئات التي تستخدمها لاستغلال أفراد آخرين وفئات أخرى ؟

والاجابة على ذلك هي توضيح حالة علاقات الانتاج وحالة العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الناس .

ندرك إذن أنه إذا كانت وسائل الانتاج ملكاً للمجتمع بأكمله يمكن أن تكون

العلاقات بين الناس علاقات تعاون وتعاضد .

وأما الذين لا يملكون أية وسيلة للنتاج فلن يستطيعوا العيش إلا إذا وضعوا أنفسهم في خدمة من يملكها . فيشتغل البعض ويستغل الآخرون هذا العمل . لأن التعاون لا يوجد إلا بين الذين يقومون بنفس الدور في الإنتاج فيكون تعاوناً طبيعياً .

ينقسم المجتمع ، إذن ، إلى طبقات اجتماعية متناقضة . فتكون الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج .

ونعني بالطبقة الاجتماعية مجموعة من الناس يقومون في الإنتاج بدور مماثل ، ويجمعهم علاقات مماثلة بالنسبة للآخرين^(١) (لينين) .

ليس لتعبير « الطبقة الاجتماعية » أي معنى إلا على مستوى علاقات الإنتاج . إذ تتحدد هذه الفكرة بنسودج الملكية أو بانعدام الملكية . ولا يجب أن نخلط هذه الفكرة بالمقولات الاجتماعية ، التي تتحدد بواسطة التقنيات والمهن وواجه النشاط الاجتماعي الضرورية لحياة المجتمع . مثال ذلك عامل المعدن ، وعامل المنجم أو عامل القطار . ان يكون المرء « فلاحاً » هو ان ينتمي لقولة اجتماعية ، غير أن هذا لا يحدد الطبقة التي ينتمي إليها . إذ يمكن ان يكون المرء ملاكاً للأرض كبيراً رأسمالياً (« فلاح ذوايد بيضاء ») أو ملاكاً مستغلاً بمساعدة عمال زراعيين . أو ملاكاً لاستغلال عائلي ، أو عاملاً زراعياً^(٢) الخ .

وكذلك ليس « صاحب العمل » في المصنع هو المدير أو المهندس بل هو

(١) سنعود الى تفصيل القول عن فكرة الطبقة الاجتماعية في الدرس السابع عشر .

(٢) نريد بقولنا « تحالف المال والفلاحين » والفلاحين المال (الملاكين الصغار ، الذين يعملون في المزارع) والمال الزراعيين .

الرأسمالي أو جماعة الرأسماليين (« الشركة ») الذين يملكون وسائل الانتاج .

حين تمتلك طبقة اجتماعية وسائل الانتاج فلها تتشخص فيها علاقات الانتاج المناسبة لها ، ولهذا فسوف نتحدث عن علاقات الانتاج « الرأسمالية » أو علاقات الانتاج « البورجوازية » . حتى إذا ما سيطرت علاقات الانتاج هذه فإن نفس التمايز تستعمل للدلالة أيضاً على طريقة الانتاج . فنقول : الطبقة « القطاعية » وعلاقات الانتاج « القطاعية » ، طريقة الانتاج « القطاعية » لأن البورجوازية ليست حينئذ الطبقة المسيطرة .

يمكننا الآن أن نحدد فكرة علاقات الانتاج .

تضم هذه العلاقات :

(أ) صور ملكية وسائل الانتاج ؛

(ب) وضع مختلف الفئات الاجتماعية في الانتاج وعلاقاتهم المتبادلة أو « تبادل أوجه نشاطهم » التي تتولد عن هذه الصور ، حسب قول ماركس ؛

(ج) صور توزيع المنتوجات التي تتعلق بها . كل هذا يكون موضوع الاقتصاد السيامي^(١) .

صور الملكية إذن هي التي تكون العنصر الاساسي في علاقات الانتاج . ومن البديهي أن الطبقة المستغلة تتخذ جميع الاحتياطات المفيدة من أجل حماية صور الملكية التي تضمن لها امتيازاتها . وتكون علاقات الانتاج ، التي تحمل طابع نظام ملكية وسائل الانتاج ، الأساس الاقتصادي للنظام الاجتماعي بأكمله .

تلك الآن جميع الافكار الضرورية لندرك أن طريقة الانتاج تكونت القوة الرئيسية في التطور الاجتماعي .

(١) راجع ستالين : « مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي » آخر مؤلفات ص ١٦٢ .

٤ - تغير طريقة الانتاج مفتاح تاريخ المجتمعات

يمتاز الانتاج بهذه الخاصية وهي أنه دائم التحول والتطور، وأنه لا يقف فترة طويلة في نفس الوقت؛ بينما تظل البيئة الجغرافية في مجملها على ما هي عليه. لأن الناس يحاولون باستمرار الاستفادة، إلى أقصى حد، بما تقدمه الطبيعة لهم؛ كما يحاولون اتقان الانتاج الذي يتطور دائماً.

لو أن الانسان لم يحاول دائماً أشباع حاجاته المادية بصورة أفضل، لما كان انساناً واعياً، بل حيواناً خاضعاً للضرورة العمياء. غير ان الانسان يجد في الانتاج الوسيلة لاستخدام الضرورة الطبيعية لخدمته؛ ولهذا لا يتوقف الانتاج فترة طويلة في نفس الوقف.

تكون هذه الحقيقة، بالنسبة للثالي، موضوعاً للتشهير؛ فهو يرى فيها عطشا لا يرتوي نحو الخيرات المادية؛ كما ترى فيها المسيحية عملاً من أعمال الشيطان والشر. ولكننا نعلم، أيضاً، أن هذه الموضوعات مخصصة للجماهير الكادحة؛ فتلقن الصيام والطهارة بينما تنعم الطبقات المستغلة بفيض من المنتجات المادية. لأن ازدهار الانتاج هو ضرورة موضوعية للمجتمعات الانسانية. واستغلال الانسان للانسان هو الذي يحول دون أن يكون لهذه الضرورة نتائجها الطبيعية الحرة.

وتغيير طريقة الانتاج وحده يستطيع تفسير كيف أن نظاماً اجتماعياً يحل محل نظام آخر، ولماذا تتغير الأفكار الاجتماعية والأراء والمؤسسات السياسية، ولماذا تمس الضرورة، في بعض الاحيان، لاعادة صهر النظام الاجتماعي والسياسي بأكمله.

ولقد بان لارسطو، منذ أمد بعيد، الصلة بين الرق ومستوى قوى الانتاج.

يقول ارسطو ، وهو أعظم فيلسوف قديم ، :«لو أن كل آلة تستطيع القيام بوظيفتها بعد أمرها القيام بذلك، أو من تلقاء نفسها، كروافع ديدال التي تتحرك من نفسها أو مقاعد إله النار والمدن فولكين (les trepieds de vulcain) التي تتحرك أيضاً من تلقاء نفسها لتقوم بعملها المقدس؛ لو أن مكائيك الحائكين (navetts) كانت تحرك من نفسها لما احتاج صاحب المصنع لمساعدين أو رئيس للعبيد^(١)». ولقد برزت الميئافيزيقية المسيحية، في القرون الوسطى، وجود النقابات المهنية (les corporations) التي تخدم من انطلاق قوى الانتاج وتساعد على استقرار النظام الاقطاعي. ولكن إذا كان هذا النظام يهدف في الأصل لضمان المجتمع ضد الفقر فقد ظهر على مر الايام ان هذا الخوف من الحركة والتغير ليس سوى خوف الاقطاعيين أمام موجة البورجوازية الصاعدة . حتى إذا ما استولت هذه على زمام الحكم ازالته القيود المفروضة على الانتاج ومنعت النقابات المهنية (les capoutais) .

وهكذا كان السطان السياسي ضروريا لغرض القانون الجديد الذي هو انعكاس لطريقة الانتاج الجديدة . كما كانت الافكار الجديدة ضرورية لتبرير هذا السطان الجديد وذاك القانون الجديد . فكانت الفلسفة سلاحاً فكرياً ضد نظام الاشياء القديم . وضمنت البورجوازية المنتصرة حق الملكية البورجوازي في اعلان حقوق الانسان ، كما أقامت منظمات برلمانية بورجوازية، ودعت لأخلاقها وأوجدت نظاماً جديداً للتعليم حذفت منه فلسفة القرون الوسطى كما حرمت الجمعيات العمالية لتعمي نفسها ضد نضال البروليتاريا المستغلة .

وهكذا فرضت على الامة بأجمعها «نوع الحياة» البورجوازية والافكار الخاصة

(١) ك . ماركس : رأس المال . الكتاب الاول ، ج ٢ ص ٩١ . المطبوعات الاجتماعية .

بها لان « لكل نوع من الحياة نوعاً من الفكر »^(١) .

ولنقرأ من جديد صفحات القسم الأول من بيان الحزب الشيوعي الخالدة .
« لقد داست البورجوازية ، في كل مكان استولت فيه على السلطان ،
العلاقات الاقطاعية والبطيركية والغرامية بالاقدام . فحطمت بدون شفقة جميع
الصلات المعقدة المتنوعة التي توحد بين الانسان وورثائه الطبيعيين في عصر الاقطاع ،
ولم تبقى الا على علاقة الربح بين الانسان والانسان ومتطلبات الدفع نقداً القاسية .
فاذا بهاتفرق وعشات النشوة الدينية المقدسة والطمأن الفردوسي والعاطفة البورجوازية
في مياه الحساب الافاني المتجعدة . وجعلت من كرامة الانسان قيمة بسيطة للتعامل ؛
فاحلت محل الحريات العديدة حرية التجارة الوحيدة ، أي أنها احلت محل الاستغلال
الذي تخفيه الأوهام الدينية والسياسية استغلالاً مفضوحاً مباشراً . جردت
البورجوازية جميع الوان النشاط ، التي كان ينظر اليها على انها مقدسة توجب الاحترام
من هذه الهالة التي كانت تحيط بها . فجعلت من الطيب والمرع والكاهن والشاعر
والعالم عمالاً مأجورين .

كما مزقت البورجوازية ستار العاطفية الذي يخيم على العلاقات العائلية وحولتها
إلى مجرد علاقات مالية »^(٢) .

ولهذا فإن عدم إدراك ، ان البورجوازية ارادت ان تقوي بجميع الوسائل طريقة
الانتاج التي هي نفسها ثمرة لها ، يمنعنا من ادراك الحوادث التاريخية التي وقعت ، مثلاً ،

(١) راجع ستالين : النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية ، ص ٣ ب ليس هذا التعبير
نفس تعبير فوريانغ الميكانيكي : « نفكر في قهر بصورة تختلف عن تفكيرنا في كون » .
(٢) راجع البيان ص ٣١ .

فيا بين ١٧٨٩ - ١٨١٥ .

يتميز المؤرخون البورجوازيون أنفسهم بـ «بين عصر بدائي هو العصر القديم ،
والعصر الوسطى ثم الأزمنة الحديثة . فما هو الفرق بين هذه العصور ؟ الفرق
الأساسي هو أنه كان يوجد في القديم الملكية المشتركة ؛ ثم نشأت ، عند فجر التاريخ
والمدينة ، طريقة الانتاج التي تقوم على الرق ، وقد سيطرت ، في العصر القديم ؛ بينما
سيطرت ، في القرون الوسطى ، الملكية الاقطاعية للأرض ، وشاهدت العصور
الحديثة نمو الملكية البورجوازية التجارية ثم انتصار البورجوازية الرأسمالية
وأقول نجما . ويقول المؤرخون المناهضون للماركسية إن هناك صفات مشتركة
بين العصر القديم والقرون الوسطى والأزمنة الحديثة . ولهذا فليس تفكير أفلاطون
أو أحاديث شيشرون ، مثلاً ، غريبة علينا . وهذا صحيح . وهاك تفسير هذه الصفات
المشتركة ، ولا سيما على الأقل فيما يتعلق بالمؤسسات والأفكار .

١ - تتمتاز نزعات الرق والقطاع والرأسمالية بصفة واحدة مشتركة ، مهما اشتد
الخلاف بينها ، وهي انها جميعاً تمثل علاقات انتاج تقوم على استغلال طبقة على يد
طبقة أخرى ، كما تعتمد على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج . النضال الطبقي إذن
موجود في هذه النماذج الثلاثة للجماعات ، وكل ما ينتج عنها على مستوى
المؤسسات والأفكار .

٢ - يوجد ، إلى جانب هذه الطرق الثلاث للانتاج ، طبقات عديدة
للـ «بورجوازية الصغيرة» (كالـ «بورجوازية التجارية» ، والصناعية اليدوية ، والزراعية ،
والفكرية) .

يؤدي هذا الواقع التاريخي المستمر إلى تكوين سيكولوجية «الانسان
المتوسط» وتقديمتها ؛ وهو انسان فردي يتعلق بالملكية الخاصة ، مليء بالتناقض ، لأنه
يقف موقفاً سلبياً من النضال الطبقي ويستسلم دائماً للطبقة الحاكمة المستغلة .

وبالرغم من أن هذه النظم الثلاث تتشابه، فإنها في نفس الوقت تختلف نوعياً في أساسها الاقتصادي، فهي تؤلف تكوينات اجتماعية مختلفة. وموضوع العلم التاريخي هو دراسة أوجه الاختلاف والتشابه فيما بينها.

٥ - الخلاصة

- الفقرة المادية التاريخية هي النظرية العامة لطرق الانتاج .
- والاقتصاد السياسي هو العلم الخاص بالقوانين الموضوعية التي تسيطر على علاقات الانتاج بين الناس .
- وموضوع علم التاريخ هو العلاقات المتبادلة بين الطبقات التي تمثل فيها هذه العلاقات للانتاج ولا سيما علاقاتها السياسية .
- وليس هناك من علم تاريخي إذا لم تتساءل في كل لحظة عن طابع علاقات الانتاج ، وطابع الملكية ، والطبقات الاجتماعية والريح الطبقي .
- ولهذا لا يمكن ان يقتصر علم التاريخ الحقيقي على دراسة أعمال الملوك وقواد الجيوش والغزاة لأن التاريخ هو تاريخ الشعوب .
- ان تاريخ التطور الاجتماعي ... هو تاريخ منتجي المواد المادية ، تاريخ الجماهير الكادحة التي تكون القوى الأساسية في عملية الانتاج والتي تنتج المواد المادية الضرورية لوجود المجتمع^(١) .
- والواقع أن قانون التاريخ هو الصلة الضرورية بين علاقات الانتاج وبين قوى الانتاج : ويعبر هذا القانون عن مصالح جماهير الانسانية الحيوية .

(١) راجع ستالين : النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية ٣ ، ب ص ٢١ .

ولهذا كانت الماركسية ، حسب قول ستالين ، « علم ثورة الجماهير المضطهدة المستغلة » .

ولكن إذا كان الناس يصنعون تاريخهم بأنفسهم ، فإنهم يصنعونه « في ظروف معينة تحدد هؤلاء الناس » (ماركس) فلا يجب البحث عن مفتاح التاريخ في أدمة الناس وآرائهم وأفكارهم ؛ بل في علاقات الانتاج والقوانين الاقتصادية الموضوعية التي تعمل مستقلة عن ارادة الناس ، متى ما انتج هؤلاء بصورة اجتماعية ، الذين يتعلقون بصورة ملكية وسائل الانتاج ، أي بالأساس الاقتصادي .

لا يمكن لعلم التاريخ أن يستغني عن معرفة هذه القوانين ، ولهذا لا يجب على حزب البروليتاريا ، إذا أراد أن يسير بالطبقة العاملة لتحقيق رسالتها التاريخية ، أن يدعو هذه الطبقة للعمل من أجل مصالحها فقط بل يجب عليه أيضاً أن يقيم برنامجا ونشاطه العملي على معرفة قوانين النمو الاقتصادي ^(١) .

(١) ان وضع برنامج الحزب الشيوعي الجديد في الاتحاد السوفياتي والتوجيهات العملية للانتقال الى الشيوعية لم يكن ممكنا علما بدون اكتشاف قوانين الاقتصاد الاشتراكي ، وبدون دراسة علاقات الانتاج الاشتراكية واكتشاف ظروف تحولها الى علاقات انتاج شيوعية . هذا ما كان يجبه لاروشنكو ورد عليه ستالين في آخر كتبه « مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي » ، آخر مؤلفات ، لا حيا من ١٩٤٦ وما يليها .

قانون الترابط الضّروري

بين عدّات الإنتاج وطابع قوى الإنتاج

- ١ - قوى الإنتاج هي أكثر العناصر ثورية في الإنتاج .
- ٢ - تأثير علاقات الإنتاج على قوى الإنتاج .
- ٣ - قانون الترابط الضّروري .
- ٤ - تأثير عمل الانسان .

وأينا في الدرس السابق أن طرق الإنتاج تتغير عبر التاريخ. فهي، ككل واقع
تتغيرت كمية هي عبادة عن تطور يابجه تغيرات كيفية يمكن أن تتخذ صورة
ثورية حينما تعترض الطبقات الزائلة المفضلة سبيل التغيرات الضرورية .

ويدفع إلى هذه التغيرات ، ككل واقع ، تناقض داخلي . فما هو التناقض
النوعي لطرق الإنتاج عامة ؟ التناقض بين علاقات الإنتاج وطابع قوى الإنتاج .
وهذا هو موضوع هذا الدرس .

١ - قوى الانتاج هي أكثر العناصـر

ثوريّة في الانتاج

قلنا إن الانتاج في تغير دائم. ولكن ما هو المظهر الذي يتغير أولا؟ أهـي قوى الانتاج أم علاقات الانتاج؟ هل هي الآلات أم صور الملكية؟ من البديهي أنه بينما يستمر الأساس الاقتصادي لتكون اجتماعي، يحدث أثناء ذلك تطور في التقنية. قوى الانتاج، إذن، هي التي تتغير أولا قبل تغير آلات الانتاج. تلك هي الميزة الثانية للانتاج^(١).

وهاك مثالا بسيطا جدا: كلما نعلم الطريقة التي تقوم على وضع قطعة ضخمة من الحجارة، إذا ما أردنا نقلها، على قطار من الجذوع. وكلما ازداد استعمالنا لهذه الجذوع كلما ازداد صقلها من جراء هذا الاستعمال نفسه؛ فتصبح اسطوانات مستديرة تامة، قبل أن ترد أية فكرة هندسية عن الاسطوانات على ذهن الناس^(٢). كما أن الثقل يصبح أضرع وأسهل فيوحي للانسان بفكرة تحقيق هذا الصقل بنفسه بوسائط معينة. وإذا بخيال الانسان، بمساعدة الحاجة، يعمل ويكتشف أن العمل سيزداد سهولة إذا كانت الاسطوانات (les rondire)، مع دورانها حول نفسها، حسب محورها، متصلة بقطعة الحجر أثناء النقل. فلا تمس الضرورة لوضعها من جديد أمام قطعة الحجر. حتى إذا ما مضت عشرة أو مئة أو ألف سنة طلع علينا (المحور) والدولاب والعربة.

(١) درسنا الميزة الأولى في الدرس الخامس عشر وهي أن تغير طريقة الانتاج يحول شكل المجتمع بأجمعه.

(٢) تتولد الافكار الرياضية اذن من التطبيق العملي.

وهكذا لا تظل قوى الانتاج في مكانها ، بل تكتمل فتسبق ارادة الانسان وتدفعها معها . كما تنمو ، في نفس الوقت ، حاجات الانسان ، لأن الانسان متى ما عرف العربة لن يكتفي قط بالاسطوانات كلما عرض له نقل حمل ثقیل .

وتتغير علاقات الانتاج بدورها تبعاً لتغير قوى الانتاج . فهي وثيقة الصلة .

بطابع قوى الانتاج .

ولنضرب على ذلك مثلاً . يوجد ، في فترة الخطاط مجتمع الرق ، قوى للانتاج جديدة مرت بتطور طويل في العصر السابق . كالتقان صنع الحديد الصلب (la fonte) والحديد ؛ واستعمال مغزل اليد ؛ وشيوع استخدام العربة ؛ وتقدم الزراعة والبستنة وانتاج الحمر والزيت والعسل ؛ واكتشاف مطحنة الماء (١٣٤٠م) ، ولكن هذه التقنيات الجديدة ، التي كان الرومان يلاحظونها عند الشعوب التي كانوا يسيرونها بالبهرية ويحاولون استخدامها ، كانت تتعارض مع نظام الرق ! إذ ليس للرقق أية فائدة من العمل ؛ فهو مهما عمل فسوف يعامل كما كان في السابق . ولهذا لا يشعر بأي ميل للعمل كما أن انتاجه قليل . ولم يعد الأمر الآن القيام بأعمال ضخمة على يد قطعان الارقاء تحت ضرب السياط . بل إن قوى الانتاج الجديدة تتطلب من العامل أن يظهر بعض الاهتمام لعمله وإلا ذهبت هذه القوى سدى .

ويدرك السيد ذلك ، لاسيما وأن الارقاء ، وهم غالباً من البهر الامرى ، يقومون بالثورات ويهجرون اماكن العمل ويصبحون (قراصنة) فيتقنون صناعة الأسلحة والملاحه .

تتطلب ، إذن ، قوى الانتاج الجديدة علاقات للانتاج جديدة . ولهذا فإن مالك وسائل الانتاج ، الذي يتخلى عن رقيق ضعيف الانتاج ، يفضل الحصول على قين . لأن القين يملك ما يستغله لنفسه كما ، يملك وسائل الانتاج . فو إذن مهمتهم اهتماماً

شخصياً بالعلل ؛ وان كان مرتبطاً بأرض سيده . وهذا الاهتمام ضروري كي يزيد من انتاجه في جميع الأعمال الزراعية ، ويدفع قدرأ من محصوله للاقطاعي . ولهذا فإن السيد ، بدلا من اعالة رقيق لا يعمل شيئاً ، ولو تحت سباط وكرانه فإنه سيطلب نصيبه من المحصول من قين حر يعمل كما يريد ، شريطة أن يضمن قمعه في مطحنة السيد ويخبز خبزه في فرنه .

وهكذا ولدغو قوى الانتاج الجديد ، ضمن علاقات الانتاج في نظام الرقيق علاقات جديدة للانتاج هي العلاقات الاقطاعية .

ان العلاقات الاجتماعية وثيقة الصلة بقوى الانتاج . لأن الناس يغيرون طريقتهم في الانتاج ، ويتغيرهم لطريقة الانتاج وطريقة كسب معاشهم ، يغيرون جميع العلاقات الاجتماعية . وهكذا تؤدي مطحنة السيد لظهور السيد الاقطاعي بينما تؤدي مطحنة البخار لظهور مجتمع الرأسمالي الصناعي^(١) .

٢ - تأثير علاقات الانتاج

على قوى الانتاج

إذا اقتصرنا على ملاحظة ان قوى الانتاج هي أكثر العناصر حركة وثورة في الانتاج ، فإننا نقع في الميتافيزيقية وفي التزعة الميكانيكية . لأن طريقة الانتاج تمثل وحدة قوى الانتاج وعلاقات الانتاج الجدلية . وكل من هذين التقيضين يعمل ضد نقيضة في هذا التناقض الداخلي ولو أن أحدهما يتغير أولاً . يجب علينا إذن أن ندرس تأثير علاقات الانتاج المقابل على قوى الانتاج .

(١) راجع ماركس : بؤس الفلسفة ، ص ٨٨ الطبوعات الاجتماعية .

لو عدنا إلى مثل الانتقال من مجتمع الارقاء إلى المجتمع الاقطاعي لرأينا أن علاقات الانتاج الاقطاعية قد عملت، بعد ظهورها، على نحو قوى الانتاج التي كانت تقف في وجهها علاقات الانتاج القديمة، لأن القين همه، بالرغم من أنه مستغل، ان يعمل أكثر من الرقيق. وهكذا زال بالتدريج ما خلفته العصور القديمة والقرون الوسطى الأولى من بؤس وشقاء.

وهذاك مثال آخر؛ رأينا في الدرس السابق (٢، أ) ان تقدم صنع المعادن والفخار أدى إلى تقسيم العمل بين الزراعة والحرف (métiers). وقد افضى هذا التقسيم، في ظروف ملكية وسائل الانتاج الفردية التي يتطلبها العمل اليدوي واستخدام الارقاء، إلى بيع المنتوجات اليدوية والزراعية وشرائها في السوق، أي إلى ظهور السلعة. كما ولدت، في نفس الوقت، طبقة جديدة هي طبقة التجار المتخصصين في نقل السلع وتوزيعها.

ولما كانت مصلحة هذه الطبقة الخاصة في التجارة فقد أدى بها الأمر إلى تشجيع الانتاج التجاري، وتوسيع هذه التجارة. وكان هذا أصل المستعمرات الفينيقية الأغريقية، مراكز التجارة حول حوض المتوسط. ومن البديهي أن الانتاج التجاري قد عمل على نحو قوى الانتاج، والتقنيات والفنون، وكذلك الملاحظة فكانت المصنوعات الخزفية الاثينية تباع في جميع أنحاء المتوسط؛ كما وجدت في أثينا مصانع أسلحة يعمل فيها أكثر من مئة رقيق.

مثال آخر: كانت ثروة الاقطاعيين الأرض وما يقدمه لهم الاقنان من محصول الأرض؛ أما ثروة البورجوازيين، التي تقوم على التجارة والانتاج الرأسمالي الحديث فهي تتكون من المال. ولهذا فإن الاقطاعي، الذي يريد أن يحصل على المنتوجات التجارية، سعيًا وراء الأبهة ومنافسة لاغنياء البورجوازيين، يخسر ثروته بسرعة

ولم يكن يحيط به سوى الامتيازات القطاعية وازدياد حقوق القطاعيين . ولهذا كان نمو الانتاج التجاري يحدد قوته الاقتصادية . فكان يحاول تنظيم هذا النمو بواسطة نظام النقابات (Corporations) .

وهكذا كان النظام القطاعي يعيق نمو قوى الانتاج الجديدة . غير أن هذه القوى كانت تتطلب تعميم علاقات الانتاج الجديدة (الرأسمالية) .

ولهذا يجب علينا أن لا ننسى ما يلي : ان قوى الانتاج ، التي تتغير أولاً ، ليست مستقلة عن علاقات الانتاج . وان علاقات الانتاج التي يتعلق نموها بنمو قوى الانتاج تؤثر بدورها على نمو هذه القوى . فهي إما أن تعيقها أو تزيد في نموها . وتصبح علاقات الانتاج عائقاً لنمو قوى الانتاج حيناً لا تسار ازدهار قوى الانتاج .

وهي تصبح ، على العكس ، دافعاً لهذا النمو حيناً تتفق وحالة قوى الانتاج .

ولما كانت الأولية لقوى الانتاج في النمو فإن علاقات الانتاج الجديدة هي القوة الأساسية التي تدفع بها نحو التطور .

ومن الخطأ القول بأن علاقات الانتاج ، في تاريخ المجتمع ، تقوم بدور العائق الذي يشل نمو قوى الانتاج . وحينما يقول الماركسيون بأن علاقات الانتاج تقوم بدور العائق فانهم لا يقصدون أي نوع من علاقات الانتاج بل يقصدون علاقات الانتاج القديمة التي لم تعد تتفق وتطور قوى الانتاج فتعيقها عن النمو . وبوجد ، إلى جانب علاقات الانتاج القديمة ، علاقات جديدة تحمل محل العلاقات القديمة . فهل يمكن القول بأن دور علاقات الانتاج الجديدة يقتصر على اعاقه الانتاج ؟ كلا . لأن علاقات

الانتاج الجديدة هي ، على العكس ، القوة الرئيسية التي تحدد غو قوى الانتاج في المستقبل وإلا كتب على قوى الانتاج أن تظل بدون تأثير^(١) :

٣ - قانونُ الترابطِ الضروري

ندرك، الآن، الجدلية الداخلية لعالم الانتاج. تتقدم قوى الانتاج تقدماً محسوساً على أنها أساس اقتصادي، لفترة معينة من الزمن ، وتصبح علاقات الانتاج ، التي كانت جديدة ، في مطلع تاريخ هذه الطريقة في الانتاج ، قديمة . بعد أن كانت في أول الأمر القوة الرئيسية التي تحدد غو قوى الانتاج. حتى إذا لم تعد تتفق وازدهار هذه القوى أخذت تعيق هذا الازدهار .

ولا شك أن علاقات الانتاج الجديدة لا يمكن أن تظل جديدة إلى الأبد ؛ بل تأخذ بالقدم والتناقص مع غو قوى الانتاج اللاحق ؛ فتفقد بالتدريج دورها كمحرك رئيسي لقوى الانتاج وتصبح عائقاً لهذه القوى^(٢) .

فما هو موقف الرأسمالية ، مثلاً ، تجاه التقنية الحديثة ؟ يدعى الرأسماليون أنهم أنصار التقدم التقني ، ودعاة ثورة في هذا الميدان . ولا شك أن الرأسمالية قد عملت على تقدم التقنية . لأن التقنية الجديدة تنقص زمن العمل الضروري

(١) راجع ستالين : مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي ، آخر مؤلفات ص ١٥٠ .

(٢) راجع ستالين : « مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي » . آخر مؤلفات ص ١٥١ .

للاتنتاج ، وتساعد على زيادة فائض القيمة^(١) أي زيادة الربح .

ونعلم أيضاً أن الرأسمالية فيها ظواهر ركود تقنية ؛ فيظهر الرأسماليون في صورة رجعيين في الميدان التقني ؛ فلا يريدون القيام بأي تحسين جديد، ويلجأون إلى العمل اليدوي أو العمل المنزلي . ذلك لأن إقامة المنشآت الجديدة يفغى إلى تجميد رؤوس الأموال، وازدياد الرأسمال المجمد ينقص من نسبة الربح فلا يساعد على الحصول على الربح الأقصى في الرأسمالية في زمن زال فيه استقرار الأسواق الرأسمالية النسبي .

يفسر لنا، إذن، ظاهرة الركود قانون الرأسمالية الأساسي، ألا وهو تحقيق أقصى الأرباح ، أي طابع علاقات الانتاج القديمة .

تقف الرأسمالية إلى جانب التقنية الجديدة، متى لوحث لها بأعظم الأرباح . كما أنها تقف في وجه هذه التقنية الجديدة وتدعو للعودة إلى العمل اليدوي إذا لم تلوح لها التقنية الجديدة بأرباح أعظم^(٢) .

ومع ذلك فإن تأخر علاقات الانتاج عن اللحاق بتقدم قوى الانتاج لا يمكن أن يستمر طويلاً . وذلك لأنه مهما كانت الاجراءات التي تتخذها الطبقات التي تمثل علاقات الانتاج القديمة التي قضى عليها التاريخ بالزوال ، لاطالة أمد الأساس الاقتصادي، فإن هذه الاجراءات لا يمكنها أن تعيد التاريخ القهري . ذلك لأن

(١) يبدع العامل خلال ساعات العمل الأولى قيمة تساوي قيمة المتوجات التي يسمح له اجره بالحصول عليها . أما في سائر ساعات العمل فهو يبدع قيمة اضافية هي فائض القيمة الذي يربحه الرأسمالي .

(٢) راجع ستالين: «مبادئ الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي» آخر مؤلفات ص ١٢٩ - ١٣٠ .

غو الانتاج ضرورة مادية للانسانية . لا يمكن « للذهن » ان يقاومها طويلا . يجب إذن أن تزول علاقات الانتاج القديمة . ولا يمكن للاجراءات التي اتخذتها الطبقات الرجعية إلا أن تقضي ، في النهاية ، إلى القضاء على طريقة الانتاج بأجمعها .

مهما كان إذن تأخر علاقات الانتاج فإنه يجب عليها ، ان آجلا او عاجلا ، أن تتلاءم مع طابع قوى الانتاج الجديد . فكيف يتم هذا الانسجام ؟ بقلب صور ملكية وسائل الانتاج التي تكون ، كما رأينا ، العنصر الأساسي في علاقات الانتاج . ولهذا فإن إقامة نظام جديد للملكية يساوي إقامة علاقات جديدة للانتاج .

من الواضح ان استخدام الطاقة الذرية السلمي لخدمة المصلحة الوطنية ، لا يمكن ان يتحقق على يد رأسمالين ، لأنهم لا يستطيعون الحصول على الربح الأقصى في حالة تقنية باهظة كطلبات الدولة الحربية . وكذلك شأن استخدام الطاقة الهيدرو كهربائية وكهربة العمل الزراعي .

أما الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج فإنها تستطيع تحقيق ذلك لأنها لا تخضع لقانون الربح . وهكذا يمكن القول ان قوى الانتاج تولد علاقات الانتاج التي تحتاجها لتحقيق غوها في المستقبل .

وبهذا تكون قوى الانتاج العنصر الفاصل في غو الانتاج . ذلك هو قانون الترابط (correspondance) الضروري بين علاقات الانتاج وبين طابع قوى الانتاج . فكما تكون قوى الانتاج يجب أن تكون علاقات

الانتاج^(١) .

تحل محل علاقات الانتاج القديمة علاقات جديدة للانتاج تكون المحرك الرئيسي لنمو قوى الانتاج في المستقبل .

ويضيف ستالين إلى ذلك قوله :

تكون هذه الخاصة لنمو قوى الانتاج - وهي كونها اولا عائقاً لقوى الانتاج ثم صيرورتها المحرك الرئيسي الذي يدفع هذه القوى الى الامام . ثم انتقالها من كونها المحرك الرئيسي الى صيرورتها عائقاً لقوى الانتاج - احد العناصر الرئيسية للجدلية المادية الماركسية . وهذا ما يعرفه اليوم كل الشيوعيين المبتدئين^(٢) .

يضاف الى ذلك ان هذا القانون شامل ، أي انه يصح على جميع طرق الانتاج .
مهما كانت قوانينها الاقتصادية الخاصة ؛ فهو أساس كل تطور للمجتمعات الانسانية .

٤ - تأثير عمل الانسان

قانون الترابط الضروري هو قانون موضوعي . إذ لا يختار اي انسان طريقة الانتاج التي يعيش فيها . فنحن لم نختار بأنفسنا ان نولد في عصر الصناعة الضخمة ولا في عصر الرأسمالية الاستعمارية . ويفرض الانتاج نفسه على الناس في جدلية متطلباته الداخلية . إذ لا يمكن لقوى الانتاج ان تتقدم إلا في حدود بعض علاقات

(١) راجع ستالين : « النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية للتاريخية » ص ١٦

(٢) راجع ستالين : « مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي » في مؤلفات الأخيرة ص ١٥١

الانتاج ، وهذا الترابط الضروري هو نتيجة طبيعة قوى الانتاج نفسها ، وليس نتيجة لامساعدة الناس . ولا بد لنا في ذلك . وليس هناك من رأسمالي يستطيع القضاء على هذا الواقع الموضوعي ، وهو ان الرأسمالية الحاضرة تؤدي الى توقف نمو قوى الانتاج . وليس هناك اي انسان يقف في وجه هذا الواقع وهو أن الاشتراكية تستطيع اقامة هذا الترابط الضروري .

لا يعني هذا ان عمل الناس لا يمكن ان يقوم ، او لا يقوم ، بأي دور في النمو الاجتماعي . ويظهر هذا العمل في شعورهم او معرفتهم الصحيحة لضرورات الانتاج الموضوعية ، ولقانون الترابط الضروري . وإذا استشهدنا بمثال ذكرناه سابقاً فإن السيد الاقطاعي الذي يفضل ان يتعامل مع قين بدلا من التعامل مع الرقيق، لأن ذلك أفضل للانتاج، يشعر بقانون الترابط ويعتمد عليه لمصلحته الطبقية حين يعمل من الرقيق قيناً . فهل يعني عمل الانسان هذا انه ليس هناك قانون موضوعي ؟ كلا . بل يفترض، على العكس، موضوعية القانون . والدليل على ذلك أنه بقراره هذا يبلغ النتائج التي توخاها . فهو يستخدم القانون لمصلحته .

كما يشعر الرأسمالي ، الذي يرى ان تقدم التقنية يحدد الربح الأقصى، فيتخذ لهذا الاجراءات ضد نمو قوى الانتاج، وضد العلم ، يشعر بقانون الترابط الضروري . فهو يحس بالخوف من نمو قوى الانتاج الذي يودي بالملكية الخاصة ووسائل الانتاج . وهو ، كي يبعد هذه الامكانية ، لا يمكنه سوى محاولة القضاء على قوى الانتاج التي تقلب اوضاع الانتاج . فيعتمد على قانون الترابط الضروري ، لخدمة مصلحته الطبقية ، محاولا ازالة نتائج الموضوعية فيعيق عمل هذا القانون .

يبدو إذن عمل الارادة الانسانية في معرفة الناس لهذا القانون معرفة صحيحة . فإذا ما عرفوا هذا القانون حاولوا الجحالة دون عمله وتأخير الوقت الذي يعمل

فيه . كما أنهم يستطيعون تشجيع هذا العمل وتقريب ذلك الوقت واتخاذ الاجراءات اللازمة
للضرورات الموضوعية والتوفيق بين علاقات الانتاج وطابع قوى الانتاج .

ندرك إذن أن طابع قانون الترابط الضروري الموضوعي لا يقضي على
مسؤولية الانسان . إذ يمكن للانسان أن يوجد ، بواسطة عمله الواعي ، الظروف
التي تعيق عمل هذا القانون او تساعد . فإذا ما استمر ، الزعماء الاميركان ، مثلاً ،
في سياسة الحرب فليس ذلك بدون وعي منهم بل هم يريدون إعادة علاقات الانتاج
الرأسمالية حينما حلت محلها علاقات اشتراكية ، كما أنهم يريدون ، بقضائهم على قوى
الانتاج ، إعاقة ازدهار هذه القوى لأنه يضر بمصالحهم .

ولكنه من المفهوم ايضاً ان ارادة الناس لا يمكن ان تعمل إلا في حدود
عصرهم الموضوعية . فهم لا يستطيعون إعادة قوى الانتاج إلى مستوى عصر القوافل ،
بالرغم من القول الرجعي الذي يدعي : « ان الناس ربما لم يكونوا فيه اسوأ
حالا » . كما ان القدرة الفعلية على تغيير علاقات الانتاج لا توجد دائماً بل هي تتعلق
بجالة قوى الانتاج وطبيعتها . ويردد الرأسماليون ان بناء الاشتراكية مستحيل
وان هذه التجربة ستفضي الى الجوع ، الخ .. وما صح ذلك في عام ١٨٨٤ ، ولكن
ذلك لا يصح متى ما أصبح باستطاعة المجتمع ان يقيم قوى الطاقة والصناعة الهائلة
في القرن العشرين .

ولقد برهنت التجربة على ذلك فإذا بالرجفة تعترى الرأسماليين حين رأوا أنه
يمكن منذ الآن بناء الاشتراكية ، وانخيراً تتعلق قدرة الناس بطابع علاقات الانتاج
أيضاً : وذلك لأن عمل الطبقات ، في مجتمع منقسم إلى طبقات متعادية ، التي يهيئها
الملازمة بين علاقات الانتاج وقوى الانتاج ، يصطدم بالعديد من العراقيل ، وليس
الحال كذلك حينما يخلو المجتمع من طبقة زائلة يمكنها تنظيم المقاومة .

لا يمكن لارادة الناس ، وهي العنصر الذاتي ، ان تكون مجدية إلا إذا كانت هدفها تسهيل تطبيق القانون الموضوعي . فالارادة التي تأبى الاعتماد على الواقع الموضوعي هي عكس الارادة . وليست الارادة سوى مجرد كلمة إذا ما تجاهلت قدرتها .

ويلح ستالين على أهمية عمل الناس فيقول :

« استخدمت البورجوازية ، في عصر الثورة البورجوازية ، في فرنسا ، مثلا ، ضد الاقطاعية قانون الترابط الضروري بين علاقات الانتاج وطابع قوى الانتاج ، فقلبت علاقات الانتاج الاقطاعية ، واوحدت علاقات انتاج جديدة ، بورجوازية ، وجعلتها تتلاءم مع طابع قوى الانتاج ، التي نمت داخل النظام الاقطاعي . ولم تفعل البورجوازية ذلك بسبب مشاكلها الخاصة بل لأنها كانت ترى في ذلك مصلحة لها . وعارض الاقطاعيون ذلك لا عن غباء بل لأنه كان يهدم الحيلولة دون تطبيق هذا القانون^(١) .

ويلاحظ ستالين ، في مكان آخر ، انه إذا كان السوفييات قد وفقوا ببناء الاشتراكية فليس ذلك لأنهم قضوا على القوانين الاقتصادية الموجودة « وأوجدوا بدلا منها قوانين جديدة » بل لأنهم اعتمدوا على قانون الترابط الضروري الاقتصادي بين علاقات الانتاج وطابع قوى الانتاج^(٢) .

ولذا كانت البورجوازية قد استخدمت جميع الوسائل لمقاومة تطبيق هذا

(١) راجع ستالين : « مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي »

ص ١٣٧ - ١٣٨ .

(٢) راجع ستالين : نفس المرجع ، ص ٢٠

القانون فلانه كان يهملها عدم تطبيق هذا القانون .

نخلص إلى القول إذ أن عمل الإنسان، الذي يستخدم القوانين الاقتصادية لمصلحة النمو الاجتماعي ، يجري في جميع التشكيلات الاقتصادية حسب الظروف . ولكن النتائج تكون امرع حيناً يكون هذا الاستخدام علمياً ، ولا يلقى مقاومة أية طبقة . وهذا ما يحدث في النظام الاشتراكي .

ونلاحظ أيضاً أن استخدام القوانين الاقتصادية ، في مجتمع طبقى ، له دائماً دوافع طبقية، وأن طبقة الطلبة هي التي تدعو دائماً إلى استخدام القوانين الاقتصادية لخدمة النمو الاجتماعي ، بينما تعارض الطبقات الزائلة ذلك ، مهما كانت نتائج ذلك بالنسبة لسائر المجتمع ؛ فتصبح بذلك عدوة المجتمع وتنطوي على كبريائها الطبقي .

وبما عزم البروليتاريا عن بقية الطبقات التي قلبت في الماضي علاقات الإنتاج هو أنه لا يمكنها بطبيعتها تطبيق قانون الترابط الضروري ، دون أن تقضي على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج أي على كل صورة للاستغلال . تتفق إذن مصالحها الطبقية مع مصلحة الإنسانية الكادحة ومع مصلحة جميع المستغلين والمضطهدين .

نستخلص من دراستنا فكرة ماركسية رئيسية من أجل علمنا وهي أن الناس يصنعون تاريخهم بأنفسهم ضمن ظروف معينة تحدد عملهم ولهذا يجب تقديرها . وهذه حقيقة أبدية . لأن صنع التاريخ هو التغلب على مقاومة الطبقات الرجعية التي تعارض التغيرات الضرورية في عالم الإنتاج . ولهذا فإن صنع التاريخ مهمة المستغلين والمضطهدين لأن التاريخ هو تاريخ منتجي المواد المادية ، والجمهير المضطهدة المستغلة هي التي تصنع التاريخ ، فالشعب هو الخالق الحقيقي للتاريخ . وتتضح هذه الحقيقة

الأبدية في ظل الرأسمالية . ذلك لأن الرأسمالية، بامتدادها إلى أنحاء العالم اجمع واستغلالها لأغلبية سكان بلد من البلدان ، واستعبادها شعوب البلاد الأخرى، قد حركت، في مرحلتها الأخيرة، جماهير من الشعب أوسع من الجماهير التي حركتها النظم السابقة . وان عصر الثورة البروليتارية وتحرير الشعوب المستعمرة هو عصر تظهر فيه الجماهير العالمية علي مسرح التاريخ . وعمل الجماهير وحده هو الذي يستطيع القضاء على مقاومة الرأسماليين. فلقد انتصرت هذه الجماهير عام ١٩١٧ في بتوجراد في موسكو، كما انتصرت عام ١٩٤٩ في فانكين وشنغاي . ولا يخفى الماركسي ، على عكس الرجعيين الذين يخشون الجماهير، وصغار البورجوازيين الذين يقدمون « العقل » و « التفكير » على عمل الجماهير ، عمل الجماهير . بل هو يسير ، على العكس ، في مقدمتها، لأن الاشتراكية البروليتارية ليست مجرد عقيدة فلسفية، بل هي ، حسب قول ستالين : عقيدة الجماهير البروليتارية ، و « شعارها » ، فهو يتق ثقة لا تترزعع بالجماهير وفعلها لأنه يعلم أنها متى تحركت اسرع التاريخ في سيره ، كما يعلم أن نضال الطبقات هو محرك التاريخ .

نضال الطبقات قبل الرأسمالية

- ١- أصول المجتمع .
- ٢- ظهور الطبقات .
- ٣- مجتمعات الرقيق والاقطاع .
- ٤- تطور البورجوازية .

عرضنا لقانون الترابط الضروري بين علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج . ونعلم من جهة ثانية ان علاقات الإنتاج، حين تعتمد على الملكية الخاصة، تمتاز بالاستغلال الطبقي، أي بالنضال الطبقي . على هذا الشكل يظهر عمل الناس في التاريخ بصورة تلقائية .

ويجب الآن ان نبتعد عن خطأين : الاعتقاد انه ، لما كان هناك قانون ضروري مشترك بين جميع المجتمعات ، فإن عمل الناس لا فائدة منه ولا تأثير له في التاريخ ، وفي تغير الأساس الاقتصادي للمجتمعات ؟ - او الاعتقاد، عكس ذلك، وهو ان النضال الطبقي يمكن أن يقوم بكل شيء وفي كل زمان .

تريد الطبقات المستغلة ان تقضي على الاستغلال . ولا يمكن هذا إلا في

مستوى معين لنمو قوى الانتاج . ولهذا لم يفض نضال الطبقات المضطهدة ، حتى عهد الثورة البروليتارية ، إلا الى تغيير نظام الملكية الخاصة ، واثلال صورة للاستغلال محل صورة أخرى .

يعكس نضال الطبقات التناقض الأساسي الموجود في علاقات الانتاج بين المستغلين والمستغلين ، ولكن لا يمكن لهذه النتائج ان تتخطى ما يسمح به قانون الترابط الضروري بين علاقات الانتاج وبين قوى الانتاج في وقت معين .

غير أن نضال الطبقات يتخذ أهمية كبرى حين يوجد الاستغلال كمنهج لتطبيق قانون الترابط الضروري . وبهذا المعنى فقط يصبح محرك التاريخ .

وسوف ندرس في هذا الدرس هذه الجدلية في مراحل نمو المجتمعات الكبرى .

١- أصول المجتمع (١)

ليس هناك ما هو أشد اختلاطاً واضطراباً من تقاسير المثاليين فيما يتعلق بالتقنيات الاجتماعية الأولية . وإذا ما ضربنا صفعاً على اسطورة آدم وحواء فإن أكثر النظريات شيوعاً تلك التي تعتبر العائلة كأنها خلية بدائية للمجتمع . بينما العائلة ، في الحقيقة ، هي مؤسسة اجتماعية تتعلق بنموذجها بعلاقات الانتاج السائدة ، أما علماء الاجتماع البورجوازيون فهم لا يهتمون بسوى التقنيات والمعتقدات البدائية فإذا بهم موزعون بين النزعة المادية الميكانيكية وبين النزعة المثالية . يضاف الى

(١) راجع فيما يتعلق بدراسة الاقتصاد بصورة تفصيلية منذ القدم حتى ظهور الرأسمالية :

ج ، باي . « اصول الاقتصاد السياسي » الجزء الاول . المطبوعات الاجتماعية باريس ١٩٤٩

ذلك أنهم ينظرون للنسب الاجتماعي من خلال امتداد « حجم » المجتمع . فهم يرون في ذلك انتقالاً « من القبائل الى الأمبراطوريات » .

والماركسية وحدها تعطينا تعريفاً علمياً للمجتمعات البدائية حين تدلل على أن لها أساساً اقتصادياً ككل مجتمع .

فلقد كانت قوى الانتاج، في ذلك العصر، ضعيفة في نموها . ولم تكن الآلات الحجرية والوتر والقوس، التي ظهرت فيما بعد وأصبحت السلاح القاطع ، قوية بالقدر الذي يسمح للانسان بالنضال لوحده ضد قوى الطبيعة والحيوانات المفترسة . فحاول الناس ، إذن ، مجاهدة هذا الوضع بتوحيد قوام ..

كان على الناس، كي ينجوا النار في الغابات، ويصطادوا السمك، ويبنوا المسكن ان يعملوا سوياً ، إذا لم يريدوا الموت جوعاً ، أو أن يصعبوا فريسة للحيوانات المفترسة أو القبائل المجاورة^(١) .

وكانت نتيجة هذه الحالة ان اصبحت ملكية وسائل الانتاج وارضى الصيد ، مثلاً ، وكذلك ملكية المنتجات، مشتركة أيضاً بين جميع أفراد المجتمع، ولم يبق سوى بعض آلات الانتاج ، التي هي في نفس الوقت اسلحة للدفاع ضد الحيوانات المفترسة ، ملكية فردية للذين صنعوها .

وهكذا تتعلق ملكية وسائل الانتاج الجماعية بطابع قوى الانتاج وتكون الأساس الاقتصادي لهذا التكون الاجتماعي الذي يسمى بالكومون البدائي .

« la Commune primitive »

(١) راجع ستالين : « النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية ٣ ، ١ ، ص ١٩

بولّد هذا الأساس الاقتصادي بدوره خواص فكرية مهمة : فإن الشعور بالملكية الفردية والتفكير بها لم يوجد بعد . كما ان الحقد الطبقي غير موجود لعدم وجود الطبقات والاستغلال الطبقي ، نرى ، إذن ، أنه على عكس ما يقوله المثاليون فإن الشعور « بما يخصني » و « يخصك » ، وأن الحقد والكبرياء ليست عواطف أبدية خالدة في الطبيعة الانسانية ، بل هي منتوجات تاريخية تتولد من الملكية الخاصة . ويمتاز الانسان البدائي بالانخلاص لمصالح القبيلة ، والوفاء والثقة نحو سائر اعضاء القبيلة ، ومن هنا نشأت خرافة « الفردوس المفقود » . ولكن هذه « الفضائل » لم تكن نتيجة للطبيعة الطبيعية « العزيزة » على نفس روسو بل كانت تعكس الأساس الاقتصادي ، كما كانت شرطاً ضرورياً للانتصار على القوى المعادية التي كانت تجاور القبيلة . وكان الانسان البدائي يعيش ، في نفس الوقت ، فريسة الرعب والجهل لهذه القوى المعادية ، ولهذا كان يعيش في جو من الخرافات .

ومن خصائص الشيوعية الأولية اعترافها بدور المرأة الكبير ؛ ولم يكن عدم المساواة بين الرجل والمرأة إلا في تقسم العمل بينهما ، ولم يكن يعترف إلا بنسل المرأة لوحدها . فكانت المرأة تشرف على التربية كما كانت نصائح الجدة نافذة . ذلك كان عهد سيطرة الأم . (le matriarcat)

٢ - ظهور الطبقات

فما الذي أدى إلى انحطاط الكومون البدائي ، وظهور الطبقات ؟ ليست هي طبيعة الانسان الشريرة كما تدعي النزعة المثالية بل هو غوى الانتاج كما تقول الماركسية .

والواقع أنه يجب على المجتمع أن يمتلك من الخيرات المادية أكثر مما كانت الكومون البدائية تمتلك من مصادر ضئيلة لكي يستطيع الانسان الحصول على هذه الخيرات بصورة خاصة . فلقد كانت هذه المصادر الضئيلة لا تكاد تسمح للمجتمع بالعيش . ولهذا كان الاحتكار ، في مثل هذه الظروف ، حكماً على الآخرين بالموت . لم يكن ذلك في مصلحة احد لأن النضال المشترك وحده يساعد على مواجهة الأخطار المتعددة . ولكي توجد امكانية الاحتكار فإنه يجب ان يكون لدى أعضاء المجتمع ما يقتاتون منه وان يوجد لديهم فائض ، أي ان تكون قوى الانتاج قد تقدمت .

ولقد تم تقدم قوى الانتاج (راجع الدرس الخامس عشر ؛ المسألة ٢ ، أ) داخل الكومون البدائية ، التي كانت تسهل آنذاك ، إلى أقصى حد ، النضال ضد الطبيعة . وكانت المراحل الأساسية هي : تأليف الحيوانات بفضل القوس والسهام وتقسيم العمل بين الرعاة والصيادين البدائيين ؛ ثم الانتقال الى الزراعة بفضل الآلات المعدنية كقأس الحديد وسكة المحراث ثم التفريق بين المهن والزراعة ؛ يضاف الى ذلك ان صناعة الخنزف كانت تساعد على الاحتفاظ بالمون .

كان لهذا التقدم نتائج عظيمة . فلقد وفرت تربية الحيوانات والزراعة مصادر أكثر انتظاماً وغزارة مما يوفره الصيد البري .

كما ان تأليف الحيوانات جعل للانسان وضعاً اقتصادياً مفضلاً . فاستطاع ان يقلب القانون الوراثي وان يقيم النسب الأبوي .

كان قلب القانون الأموي^(١) أكبر انهماك تاريخي للجنس الانثوي . فاستولى الرجل على السلطة حتى في البيت ؛ وتغلّت المرأة عن مكانتها واستعبدت حتى أصبحت أسيرة لذة الرجل ويجرد وسيلة للتغاسل . هذا الوضع الشائن للمرأة كما

(١) لبنة ال الأم . (العرب)

يظهر لا سيما عند اليونان في عصر البطولة وفي العصر الكلاسيكي، بالرغم من جميع المحاولات لاختائه أو التقليل من حدته، لم يقص عليه قط^(١) .

ولقد حفظت لنا خرافة الامازون ذكرى الوان من النضال البطولي قامت به قبائل تخضع لسيطرة الأم وقد نجحت في كبت الجراح ضد قبائل يسيطر عليها الرجال .

ولم يعد للعمل ، بعد ظهور تربية الحيوانات والزراعة ، الحاجة المباشرة بل أصبح ينتج فائضاً : فصبح التبادل ضرورياً وبمكناً كما تتوفر امكانية تجميع الثروات .

ملك الناس الآن ، بدلا من الآلات الحجرية ، آلات معدنية . وأخيراً نرى ظهور تربية الحيوانات والزراعة ، والمهن ، وتقسيم العمل بين مختلف فروع الانتاج عوضاً عن اقتصاد لا يتعدى الصيد البري البدائي ، ولا يعرف تربية الحيوانات أو الزراعة . كما ظهرت امكانية تبادل المنتجات بين الأفراد والجماعات ، وامكانية تجميع الثروات في أيدي فئة قليلة^(٢) .

أصبح العمل الانساني يوفر فائضاً عن الاستهلاك الأدنى ، ولهذا أصبح من المصلحة ضم قوى جديدة للعمل . كان امرى الحرب ، في العصر السابق ، أفواها غير مجدية ، لأن العمل لم يكن يكاد يوفر قوت صاحبه . ولهذا لم يكن من المصلحة الاستيلاء على امرى حرب بل القضاء على القبيلة المعادية التي تحتل أرض الصيد . أما الآن

(١) راجع الجبل : اصل المائلة ، والملكية الخاصة والدولة ، ص ٥٧ المطبوعات الاجتماعية باديس ١٩٤٥ .

(٢) راجع ستالين : النزعة المادية والنزعة المادية التاريخية ج ٣ ، ص ٢٤ .

فإن عمل الاسير يمكنه أن يوفر فائضاً، فكان من الطبيعي استخدامه، فأصبح الاسير وقيلاً .

جعل نمو الانتاج، في جميع الفروع - كتربية المواشي ، والزراعة ، والصناعة البيئية - لقوة العمل الانسانية المقدرة على انتاج اكثر مما يلزم لمعيشتها ، كما أنه زاد ، في نفس الوقت ، مقدار العمل اليومي الواجب على كل عضو من العائلة^(١) (gens) أو الجماعة البيئية أو العائلة الزوجية . ولهذا أصبح من المستحسن الاستعانة بقوى جديدة للانتاج . وجاءت الحرب بهذة القوى الجديدة : إذ تحول أمرى الحرب إلى ارقاء .

ولقد أدى التقسيم الأول الكبير للعمل ، في الظروف التاريخية المعينة ، زيادته لانتاج العمل ، أي للثروة ، وتوسيعه لميدان الانتاج ، إلى الرق حتماً . فنشأ عن التقسيم الأول الكبير للعمل التقسيم الأول الكبير للمجتمع إلى طبقتين : الأسياد والعبيد ، المستغلين والمستغلين .

وصلنا الآن إلى عتبة المدنية ... لم يكن الناس ، في الدوج الأسفل ، ينتجوت الامباشرة من أجل حاجاتهم الشخصية . وكان التبادل ، الذي يجري بالمناسبة ، منعزلاً ، ولا يتعلق إلاً بالفائض الذي يزيد صدقة^(٢) .

وقد أصبح انتاج الفائض ، من ثم ، منظماً . وأصبح بعض الارقاء ملكاً جماعياً للذين اسروهم ، كما أصبح بعضهم ملكاً خاصاً . ولم يكن الارقاء ، على كل حال ، يملكون شيئاً : فظهرت الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، ومن ثم انقسم المجتمع إلى

(١) العائلة البطركية (patriarcale)

(٢) راجع انجلو . نفس المرجع ص ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥١

طبقات ، وزالت الشيوعية البدائية ، كما تغير أساس المجتمع الاقتصادي . تم كل ذلك حسب متطلبات قوى الانتاج الجديدة ، وتحسين التقنيات داخل الكومون البدائية ، بدون إرادة الناس .

حينما أخذ بعض أعضاء الكومون البدائية بالانتقال تدريجياً من الآلات الحجرية إلى الآلات الحديدية ، كانوا يحاولون النتائج الاجتماعية التي يفضي إليها هذا التجديد . ولم يكونوا يفكرون بذلك .

ولم يعوا ذلك ، ولم يكونوا يدركون ان استعمال الآلات المعدنية يعني ثورة في الانتاج ، وأنه سيؤدي بالنهاية إلى نظام الرق . لم يكونوا يريدون سوى مجرد جعل عملهم أسهل ، وان يحصلوا على فائدة مباشرة محسوسة ؛ فكان نشاطهم الواعي ضمن نطاق هذه الفائدة الشخصية اليومية الضيق^(٢) .

توكت نهاية العصر البدائي ومطلع عصر الرق آثاراً عميقة في مخيلة الناس . ولما كانوا لا يدركون ضرورتها الموضوعية ، وأوا فيها انتقاماً إلهياً ، وفقداناً « للبراءة » الأولية ، وغرة « للشر » و « الكبرياء » ، والشيطان . وهكذا صيغت « الفضائل » القديمة في أفكار ، تولد عنها العديد من الموضوعات الأخلاقية . فاستمرت ذكرى وجود المرأة القديم في اسطورة سيبييل (Cybele) إلهة الخصب . كما نعى الانجيل « سقوط » الانسان ، كما تغنى الشعراء القدامى أمثال هزبود وأوفيد « بالجيل الذهبي » الذي تنبأ الماثور بعودته المحتومة .

وإذا كان العصر البدائي لم يعرف ضروب النضال الطبقي ، التي مزقت المجتمع في العصر التالي ، فلقد عرف حالة الانسانية الباقسة ، التي كانت فريسة للاخطار

(٢) راجع ستالين : النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية ٣ ، ب ص ٢١ .

الطبيعية المتعددة . وانه لمن السخرية ان لا نعرف بأن الرق ، الذي ظهر على أساس غو قوى الانتاج ، قد انتزع القبائل المتأخرة تقنياً من الحالة التي كانت متخبط فيها ، فكان بذلك خطوة إلى الأمام .

يجب ، إذن ، ان لا نجعل من العصر البدائي العصر المثالي . لانه كان لابد من ظهور الطبقات الذي يجعل غو الانتاج ممكناً . ومع ذلك لا يجب ان ننسى أنه يفتتح هذا العصر الفريد من تاريخ الانسانية حيث نجد ، جنب قول الخبز ، ان كل خطوة الى الأمام ينتج عنها خطوة الى الوراء . لأن كل ازدياد في الانتاج والرفاهية والمدنية عند فريق من المجتمع يشترط ازدياد استغلال سائر اعضاء المجتمع وازدياد شقايمهم .

وقد غير مجتمع الطبقات نفسية الانسان تغييراً قوياً ، ولهذا لم يكن روسو مخطئاً حينما جعل « المجتمع مسؤولاً » عن « فساد الطبيعة الانسانية » إذ أن نتيجة استغلال الانسان للانسان حرمان المستغل من الحصول على ثمرة عمله . وهكذا يُفصل الانسان عن عمله . ويجرمه المستغل من عمله ويستولي على هذا العمل . فإذا ما 'فصل' الانسان عن عمله ، 'فصل' بذلك عن نفسه ، لأن النشاط الانتاجي والمبادرة المبدعة إنما هما من خصائص الانسان التي تجعله انساناً وتميزه عن الحيوان . وبينما يحرم المستغل مما انتجه يستولي المستغل على ما لم ينتجه . وهكذا ينفصل الوعي عن نفسه ، لأنه لا يمكنه تحقيق غاياته بحرية ، كما ان وعي المستغل ينفصل عن نفسه ، لأن الكذب قد حل فيه ، ولانه لا يمكنه الاعتراف بغاياته بحرية . وكل من هذين الوعيين يعكس بطريقته الاستغلال . هذا الانقسام في الوعي على نفسه ، هو ما يسمى بقصد « البراءة البدائية » أو ما سماه هيجل : « مصيبة الوعي » . وهكذا ينعكس ظهور الطبقات ، والاستغلال ، وانقسام الانسانية إلى جماعات متناقضة ، في هذا الانقسام العميق الاسامي للوعي الانساني الذي يتوزع من تلقاء نفسه الى نزعات تتناقض بشدة .

وبدلاً من أن يكون الإنسان نفسه غاية نشاطه المنتج ، فإننا ، نجد على العكس ، أن الغاية والوسيلة منفصل كل منهما عن الآخر. وذلك لأن الفئة التي تكون وسيلة الانتاج في المجتمع ، (وهي الاكثوية) ليست غاية هذا الانتاج ، بل أن غاية هذا الانتاج (وهي الاقلية) ليست وسيلة .

يفسر هذا التناقض انحطاط الطبقات المستغلة الأخلاقي ، متى ما لم يعد نظامها الاستغلالي يتفق وحاجات غو قوى الانتاج . وكلما ازداد الاستغلال زاد التفسخ في عالم المستغلين . فيظهر عندئذ ، بوضوح اشد ، طابع مجتمع الطبقات المفسد وضرورة الإصلاح .

مثال ذلك أن الفلاسفة ، في نهاية النظام القديم - وليس روسو وحده - قد قابلوا بجمعهم « الفضيلة » بعيوب الارستقراطية الزائفة . وصرح روبسبير (Robespierre) انه يستعمل الرعب في سبيل خدمة الفضيلة . كما توخى كوندوسيه وغيره من الثورة تجدييد الجنس البشري . فلم يعتم النظام الاداري أولاً (Le Directoire) ، ومن بعده النظام البورجوازي ، أن خيبا الأمل مما ساعد على ظهور نزعة فورييه الخيالية .

وكان على ماركس وحده أن يدل على أن الإحياء لا يمكن أن يأتي من الدعاية الاخلاقية أو الفلسفية ، ولا من تشريع اسبارطي ، ولا من ثورة عامة ، بل من ازالة الاستغلال الطبقي . ذلك لأن نهاية النضال الطبقي ، وانقسام الانسانية على نفسها ، يستطيع إعادة الانسجام الى الإنسان وحلول عهد الوعي السعيد ، غير أن إزالة النضال الطبقي لا يمكن أن تتم إلا بالاستمرار في النضال الطبقي حتى النهاية . ذلك لأن الثورة البروليتارية ، ولا شيء غيرها ، هي التي تعيد إلى الانسانية وحدتها التي تتمثل في البروليتاريا والجمهير الشعبية . إذ يستعيد البروليتاريون

وحلفاؤهم ، في نضالهم الظافر ضد ظلم الطبقات المستغلة وانحطاطها ، الانسانية من أجلهم ، ويحققون بذلك غاية الانسان . وهكذا تصبح الوسيلة بمثابة للغاية . يمكن الأمل في عمل الجماهير الشعبية للإحياء لأن النضال وحده هو الذي يحول المناضلين .

ولهذا فإن الثورة الاشتراكية هي فجر الانسانية الحقة ، لأنها من عمل رجال جعلهم النضال الثوري يبلغون ذروة الانسانية : أما التعارض الميتافيزيقي ، الذي يحاول المفكرون البورجوازيون اقامته ، بين غاية الثورة ووسائلها ، فهو مجرد سفسطة . لأن عملية تحويل المجتمع الثوري هي عملية واحدة في جميع مراحلها . وتنسحق ، في ظروف نضال الجماهير الثوري ، معالم سلب الانسان (alienation) ومعالم الوعي الموزع ، والانسانية الفسودة ، كما تتأكد ، في ، ظروف هذا النضال ، معالم انسان المستقبل ، الذي تظهر من عيوب مجتمع الطبقات ، والدليل الحي على ذلك تضحية الثوريين .

٣ - مجتمعات الرقيق والاقطاع

دالنا ، في درسنا لأصل استغلال الانسان للانسان ، بصورة بديهية ، على طبيعة هذا الاستغلال : اذ يستولي صاحب وسائل الانتاج على الفائض ، الذي يمكن ان تنتجه قوى الانتاج ، بالنسبة للحد الأدنى الفردي لحياة العامل ، الذي حرم من ملكية وسائل الانتاج متى بلغت قوى الانتاج مستوى معيناً في غناها :

يعرف التاريخ ثلاث صور لاستغلال الانسان للانسان : استغلال الرقيق ، الاستغلال الاقطاعي والاستغلال الرأسمالي . وسوف نتحدث بسرعة عن خصائص

الضربين الأولين . وسنخصص الدرس المقبل للحديث عن خصائص الضرب الثالث .

التناقص الخاص بملاقات الانتاج في استغلال الرقيق هو التناقص بين طبقة الاسياد ، مالكي الرقيق ، وبين طبقة الارقاء . وليس نظام الرق ، الذي أوجده النضال والحرب ، من أجل الحصول على الارقاء ، سوى تسخير امرى الحرب ، ولهذا كان هذا النظام ، منذ بدايته حتى النهاية ، مسرح نضال طبقي مرير .

وملكية سيد الارقاء لوسائل الانتاج وللعمل هي أساس علاقات الانتاج ، وهي تتفق مع حالة قوى الانتاج . إذ يمكن للرقيق ، وهو أسير الحرب القديم ، ان يُشترى ويباع ويقتل كالحيوان ، فتتكس وسائل الانتاج بين يدي اقلية ضئيلة . انتهى بذلك عهد العمل المشترك الحر ، ولم يبق سوى تسخير الارقاء من جهة ، وبطالة الاسياد الذين لا يهتمون بالانتاج ولا يرون وسيلة لزيادة الانتاج الا في زيادة عدد الارقاء . فسيد الارقاء هو المالك الأول الرئيسي والمالك المطلق .

يشعر الرقيق بالاستغلال شعوراً قوياً : فهو يرى ان كل ثمرة عمله يستولى عليها سيده ؛ فلا يبقى له سوى جزء ضئيل يناله في صورة غذائه . غير ان صور نضال الارقاء بدائية : كالسلبية أمام التسخير ، وهجر مكان السيد ، وتنظيم عصائب قطاع الطرق وأخيراً الثورات الجماعية .

وقد نشأت داخل مجتمع الرقيق طبقات أخرى . فقد ظهرت طبقة العمال اليدويين حينما انفصلت المهن عن الزراعة ؛ ثم ولد ازدياد التبادل تبادل السلع .

ومن هنا نشأت تناقضات جديدة . ولما كانت طبقة التجار وسيطاً لا غنى عنه

بين منتجين ، فقد جمعت بسرعة ثروات ضخمة ، وأصبح لها تأثير اجتماعي يناسب هذه الثروات . وأخذت تنافس الملاكين لتوجيه السياسة حسب مصالحها الطبقية (كنضال « الديمقراطيين » ضد « الاستقراطيين » في اليونان) ونضال « plébéiens » ضد « patriciens » في روما) .

غير ان هذه التناقضات الثانوية لا يجب ان تخفي التناقض الأساسي : ذلك لأن الرق يساعد علي زيادة الثروات ، والانتاج الذي تعيش منه التجارة . وتزيد زيادة الانتاج قبة قوة العمل الانساني فيصبح من الصعب الاستغناء عن الرق الذي يصبح عنصراً أساسياً في النظام الاجتماعي .

لم يكن تناقض المصالح بين الاسياد والارقاء ليهدد نظام الرق طالما ان تقدم التقنيات فيه يجعل له أفضلية على القبائل المتأخرة التي كان يردّها الى الرق . ولقد أصبحت علاقات الانتاج في نظام الرق ، بعد ان كانت القمة الرئيسية لنمو قوى الإنتاج ، عوائق لقوى الإنتاج . مثال ذلك أن هيرون الاسكندري اكتشف ، في القرن الثاني بعد المسيح ، مبدأ الآلة البخارية . ولكن لم يكن لهذا الاكتشاف نتائج عملية . لأنه كان من الأفضل الحصول على ارقاء جدد بدلا من ادخال التقنيات الجديدة التي يجعلها عمل السخرة لا فائدة منها . وأخيراً حل محل الأفضلية التقنية جود التقنيات وتدهورها .

كما أن الحصول علي الارقاء كان يتطلب الحرب الدائمة ، وإلا كان لا بد من تربية أطفال الارقاء للحصول على ارقاء جدد . وأخيراً انهارت دولة الرق القديم والامبراطورية الرومانية ، تحت ضربات البرابرة ، بعد فترة طويلة من النزاع ، تشابكت فيها التناقضات الموضوعية وضروب النضال الديني والسياسي . انهارت الامبراطورية في الوقت الذي لم يعد نقصه التقني وتناقضاتها الداخلية - من اقتصادية وسياسية -

يسمعان لها بالانتصار على البرابرة ، والحصول بذلك على اوراق جدد . لانت نضال البرابرة ضد الدولة الرومانية لم يكن سوى نضال ضد استعبادهم . ولهذا كانت الامبراطورية الرومانية بفعل ، منطق نظامها ، تحتل مركز المعتدي الدائم .

وهكذا افنى تناقض نظام الرق بهذا النظام الى الدمار ، حينما أصبح هذا النظام نفسه مناقضاً لطابع قوى الانتاج . فكان لا بد من علاقات انتاج جديدة لبناء الاقتصاد من جديد : فنست هذه العلاقات الجديدة على انقاض عهد الرق ، وكانت النظام الاقطاعي .

يمثل النظام الاقطاعي تطوراً في الملكية الخاصة . وأساسه الاقتصادي هو ملكية السيد الاقطاعي لوسائل الانتاج ، وكذلك ملكيته المحدودة للعامل القين . لم يعد بإمكان الاقطاعي ان يقتل وان كان يمكنه ان يبيعه أو يشتريه . ولا يملك القين ، سواء كان فلاحاً أو عاملاً يدوياً ، شخصياً إلا آلاته وما اقتصده على أساس العمل الشخصي ، وهكذا يمكنه ان يكون عائلة ؛ ولهذا فإن الحصول على الاقيان يتم بواسطة الرق . وتتفق علاقات الانتاج هذه مع حالة قوى الانتاج .

يقوم جوهر الاستغلال هنا أيضاً على أن السيد الاقطاعي يستولي بصفة خاصة على فائض انتاج القين . كان يعمل القين ، مثلاً ، ثلاثة أيام لنفسه وثلاثة أيام للسيد . ولا يكاد الاستغلال يقل بالنسبة لعصر الرق ؛ كما ان كلمة « قين » نفسها مشتقة من لفظ لاتيني يعني « الرقيق » (servus) . ويتمتع السيد بجميع الحقوق . لأن السيد ينهب قيونه طالباً اليهم تقديم تضحيات ضخمة ، زاعماً انه « يحميم » من غزو الاسياد المجاورين . وتظل صور نضال القيون بدائية : كالهروب من منطقة

السيد ، وتنظيم المصائب في الغابات ، والقيام بالثورات لمحاولة القضاء على السجلات التي سجل عليها السيد ما يتوجب عليهم .

وينزل الاضطهاد بالقيون^(١) (jacques) ويستمر النضال الطبقي بين الملاك الاقطاعيين والقيون — وهو انعكاس للتناقض الخاص بعلاقات الانتاج الاقطاعية — من بداية النظام حتى نهايته . يضاف الى ذلك ان هذا التناقض ينمو في صورة جديدة تكون بداية منازعات جديدة : إذ تولد فئة القيون، التي مارست الصناعة اليدوية ومن ثم التجارة ، طبقة جديدة . ويزداد تناقض المصالح بين هؤلاء « البورجوازيين » وبين الاقطاعيين . إذ يجب على هذه البورجوازية الفتية ان تنمي قوى الانتاج ، وان تكون قوة اقتصادية جديدة . وتصبح علاقات الانتاج الاقطاعية ، التي كانت في البدء مطابقة لطابع قوى الانتاج ، عامل تأخر، فتتحول الى عوائق لهذه القوى . ويبدو التناقض بين البورجوازية والاقطاعية ، بعد أن كان ثانوياً، قد تولد عن نمو قوى الانتاج، داخل نظام الرق، فيظهر على المسرح ليقوم في النهاية بالدور الرئيسي .

ذلك لأن نضال القيون القرويين يفضي الى بعض التحسن في مصيرهم خوفاً الاقطاعيين من أن تجد البورجوازية فيهم حلفاء لها . ولكن هذا النضال لا يستطيع بنفسه ان يؤدي الى تصفية علاقات الانتاج الجديدة ، لأن قوى الانتاج الجديدة لم تكن تنمو في القرية بل في المدينة . ولقد قضت الثورة الديمقراطية البورجوازية على نظام القين . ولم يخف

(١) اقرأ بروسير مريميه : (La jacquerie) مقدمة اراجون . المكتبة الفرنسية ، واملج : « حرب الفلاحين » في « الثورة الديمقراطية البورجوازية في ألمانيا » المطبوعات الاجتماعية .

التنافس أخص بعلاقات الانتاج القطاعية إلا متى تناقضت هذه العلاقات نفسها تناقضاً شديداً مع طابع قوى الانتاج الجديد . ذلك لأن النمو الاقتصادي الجديد بحاجة لعلاقات انتاج جديدة ، فارتفع بناء الرأسمالية على انقاض النظام القطاعي .

٤ - تطوّر البورجوازية

نستطيع ان نلاحظ بأن قوى الانتاج الجديدة ، التي ستؤدي الى علاقات انتاج جديدة ، لا تظهر خارج النظام القديم بعد زواله ، بل هي تظهر ، على العكس ، داخل هذا النظام . إذ يعمل كل جيل ، في الواقع ، لتحسين التقنيات الموجودة التي تقيده مباشرة ، وذلك لانه يجب عليه أن يتلاءم مع ظروف الانتاج الموجودة التي ابدعها عمل الأجيال السابقة . يضاف الى ذلك أن كل جيل لا يمي النتائج الاجتماعية التي يمكن ان يؤدي اليها تحسين قوى الانتاج على مر الأيام ، فهو لا يفكر الا بمصالحه اليومية . ولا تدرك الطبقات الحاكمة الخطر إلا بعد مضي فترة من الزمن ، فتوقف تقدم قوى الانتاج . وهكذا يندفع كل جيل في سلسلة من الأسباب والنتائج التي لا يسيطر عليها . وليست علاقات الانتاج الجديدة نتيجة عمل واع يقوم به الناس ؛ بل هي تنبعث ، على العكس ، من تلقاء نفسها ، مستقلة عن وعي الناس وارادتهم . وهي ليست اعتباطية ، بل تنبعث ضرورتها من ظروف النظام القديمة التقنية والاقتصادية . وتلك خاصية مهمة لجذلية طرق الانتاج . إذ أن ما يحدد طريقة الانتاج انما هي علاقات الانتاج المسيطرة . ولننعم النظر في تطور البورجوازية التي عاشت سبعة قرون داخل نظام القطاع .

كان الانتاج ، في البداية ، ضعيفاً ، وكان يُستهلك محلياً . وكان التبادل

قليلاً ، وكنا نشعر بسيطرة القرية على المدينة الخاضعة للاقطاعيين ، ثم ظهرت في المدن ، حوالى القرن الثاني عشر ، بفضل تقدم المهن الذي يسره نظام القين نفسه ، ظواهر جديدة : إذ ظهر فائض الانتاج في السوق . ومن هنا نشأت الأسواق (les foires) ، ونشأت معها طبقة تخصصت في بيع السلع وشرائها : وهؤلاء هم التجار طلائع البورجوازية .

وكان انطلاق البورجوازية هذا مصدرا لحرارة المسألة : «الكومونال» (Communal) وهي أول صودة لنضال البورجوازية الطبقي ضد الاقطاعيين . فقد كان السيد يطلب بدلا من عتق القين حقوقاً تدفع (en espèces) ؛ وكذلك اشترى البورجوازيون ، بنفس الطريقة ، حقوقاً سياسية مختلفة كبناء الاسوار حول مدنها ، اوسك العملة ، أو بناء السجون أو تكوين ميليشيا حربية ، وانتداب ممثلين منتخبين ، أو إقامة مركز بلدية مع برج حصن (beffroi) . وكان الملك يقف الى جانبهم ضد الأسياد إعدائه مقابل قرضه المال الضروري لتقوية الدولة الاقطاعية وتسيير شؤونها .

وقامت الحرب الصليبية بتنمية البورجوازية التجارية بفتحها طريق المتوسط . كما نمت في نفس الوقت طبقة اصحاب المصارف (في فلورنسا) .

ولقد دلت حرب المئة عام على عجز الاقطاعيين^(١) الحربي ، كما دلت على نهضة البورجوازية الانجليزية والبلجيكية على يد بائع الأقمشة ارتيفلد (Artevelde) وزميله أنين مارسيل (Etienne Marcel) . ولقد انطقت التقدم التقني الحربي بالأسیاد ، إذ بلغ من غلاء الأسلحة النارية ان الملك وحده يستطيع شراءها بأموال التجار التي كان يقتونها .

(١) قام الملك جان في اليوم السابق على معركة بواتييه بتجريد الكومونات من السلاح .

حدثت الاكتشافات الكبرى، في نهاية القرن الخامس عشر، وكانت تهدف للاستيلاء على الذهب . كما كان لتدفق الذهب على السوق الاوربي نتائج مذهشة : إذ تكونت مريعاً ثروات ضخمة ، وارتفعت الاسعار ، وافلس الأسياد . وأصبحت العائلات البورجوازية الكبيرة كعائلة المدنسي (les Médecis) ، ملوك العصر الحقيقيين الذين يملكون سلطة بحسب حسابها . وقد منحت الملكية البورجوازية مقابل المساعدة المالية التي كانت تتلقاها منها بعض الاحتكارات :

أصبح من الممكن عندئذ ظهور الصناعة اليدوية (Manufacture) ، لوجود رؤوس الأموال التي تكسدت في العصر السابق، ولأن ازدهار التجارة قد بلغ حداً أصبح معه الانتاج اليدوي ، الذي يمتاز به عهد الاقطاع ، لا يكفي . وهكذا تم الانتقال من الـ (artisanat) إلى التجارة ومن التجارة إلى الصناعة اليدوية (Manufacture) ، فتتحققت بذلك خطوة جديدة قامت بها قوى الانتاج . وأصبحت المراكز التجارية مراكز للصناعة اليدوية مثال ذلك صناعة الحرير في ليون .

وتقوم الصناعة اليدوية (Manufacture) على تجميع صنعة منتوج إلى مهام جزئية يقوم بها عمال مختلفون . يعنى ذلك إمكانية زيادة الانتاج من أجل التجارة وزيادة رأس المال . فأصبحت التجارة غاية توجد لنفسها وسائل جديدة بعد ان كانت وسيلة . وهكذا ظهرت البورجوازية الصناعية ، وسط المجتمع الاقطاعي . كما ظهرت معها طلائع البروليتاريا . فحلت « العصور الحديثة » محل « القرون الوسطى »^(١) فكان ذلك بداية علاقات جديدة للانتاج تمتاز باستغلال الرأسمال لبروليتاريا مأجورة . وقد تكونت هذه البروليتاريا من الفلاحين المفلسين ، بعد أن وطردوا من أراضيهم ، ومن الصناع اليدويين الذين قضت عليهم المضاربة ، ومن مرتزقة

(١) ليس لهذين التعبيرين سوى معنى علمي ضعيف جداً بيد أنها يدلان على تغير حقيقي .

(Marcairs) الاقطاعيين ، الذين لا عمل لهم ، ومن جميع الذين يفرون من الاضطهاد الاقطاعي ، فقد كانوا أحراراً ولكنهم جميعاً لا يملكون وسائل الانتاج ، فاضطروا ، كي لا يموتوا من الجوع ، إلى بيع قوتهم العملية إلى البورجوازي ؛ لأن البورجوازي ، الذي ولد نفسه من الانتاج التجاري ، يعتقد ان كل شيء يُشترى ويُباع .

تتطلب قوى الانتاج الجديدة من العمال أن يكونوا أشد ثقافة وذلكة من القيون الجاهلين ؛ وان يكونوا قادرين على فهم الآلة ، وان يعرفوا كيفية إدارتها كما يجب . ولهذا يفضل الرأسماليون التعامل مع عمال مأجورين متحررين من قيود القينونة (seige) ذوي ثقافة كافية لادارة الآلات كما يجب (٢) .

فقد ساعدت علاقات الانتاج الجديدة على نمو قوى الانتاج التي تزيد الربح . وتم الانتقال من الصناعة اليدوية إلى الصناعة الآلية ، ومن ثم إلى نظام الآلات بواسطة الآلة البخارية ، وبعد ذلك إلى الصناعة الآلية الضخمة الحديثة . وفي القرن الثامن عشر وقعت « الثورة الصناعية » التي وصفها ماركس بقوة في الجزء الاول من « بيان الحزب الشيوعي » .

كان من نتيجة ظهور هذه العلاقات الجديدة للانتاج ان بدأ النضال الطبقي ضد الاقطاعيين . ولقد عرف هذا النضال تطوراً طويلاً منذ المعارك الأولى من أجل العتق (franlises) .

وقد عبرت النهضة عن ذلك . فتصدت البورجوازية للكنيسة ، وهي حليف الاقطاعية الروحي ، معتمدة على النظريات الفكرية في العصر القديم . وأخذت تمجد الطبيعة ، والعلم ، والعقل ، وقوة التفكير الانساني على يد ليونارد دي فنشي

(١) راجع ستالين : النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية ، ج ٣ ، ص ٢٦ .

(Leonard de vinci) ولإسقم (Erasme) ورابليه (Rabelais) ومونتيني (Montaigne) كما انتقدت تربية القرون الوسطى على يد رابليه ومونتيني . وقد عبرت حروب الدين عن هذا النضال في صورة صوفية .

واشتد النضال في القرن الثامن عشر فاتجه ضد الدولة الاقطاعية التي تعمق غزو قوى الانتاج وازدياد التبادل ، وذلك بواسطة القوانين وتجزئة الارض والامتيازات والضرائب . ولاشتداد النضال هذا مغزى كبير : إذ أخذت البورجوازية تدرك انه يتحتم عليها كي تزدهر ، ان تصفي علاقات الانتاج القديمة ، وان تؤمن للعلاقات الجديدة سيطرة تامة . فأصبح بذلك النضال سياسياً .

وهاك ما رأيناه حتى الآن : وجدت وسائل الانتاج والتبادل التي قامت على أساسها البورجوازية داخل المجتمع الاقطاعي . إذ لم تعد وسائل الانتاج والتبادل هذه - بعد أن بلغت درجة معينة من النمو ، كما لم تعد الظروف التي ينتج فيها المجتمع الاقطاعي ويتبادل ، والتنظيم الاقطاعي للزراعة والصناعة اليدوية ، أي النظام الاقطاعي للملكية - تتفق مع قوى الانتاج في ذروة نموها ، فاعاقت الانتاج بدلا من العمل على تقدمه ، فتحولت بذلك إلى قيود كان لا بد من تحطيمها فحطمت .

وحلت محلها المضاربة الحرة ضمن دستور اجتماعي وسياسي خاص وسيطرت الطبقة البورجوازية اقتصادياً وسياسياً .

ولاشك أن هذا الادراك لم يتم بين عشية وضحاها .

حينما أخذت البورجوازية الفتية ، في اوروبا ، في النظام الاقطاعي ، ببناء المصانع الكبيرة إلى جانب مصانع العمال اليدويين الصغيرة ، فساعدت بذلك على تقدم قوى الانتاج في المجتمع ، كانت تجهل حتما النتائج الاجتماعية التي يؤدي إليها

هذا التجديد ؛ ولم تكن تفكر بهذه النتائج ؛ كما أنها لم تكن تعي ، ولم تكن تفهم ان هذا التجديد «الصغير» سيؤدي الى تجمع جديد للقوى الاجتماعية ، وسوف ينتهي بشوة خد السلطة الملكية ، وخذ طبقة النبلاء التي كان يحلم افضل ممثلي البورجوازية بالانضمام اليها ، وكانت تهدف الى تقليل تكاليف انتاج السلع وزيادة كمياتها في اسواق آسية واميركا التي كانت قد اكتشفت حديثاً ؛ والحصول على أرباح أعظم ؛ وهكذا كان نشاطها الواعي لا يتمدى نطاق مصالحها العملية اليومية الضيق^(١) .

لم تكن البورجوازية تهدف ، في أول الأمر ، إلا لضمان مكان لها في المجتمع القطاعي . والنضال الطبقي هو الانمكاس الاجتماعي السياسي الفكري للمصالح الحقيقية المادية الاقتصادية . وهذا واقع موضوعي ، لأن البورجوازية نفسها تدخل ضمن نطاق التاريخ الموضوعي ، فهي ثمرة القوانين الاقتصادية للانتاج التجاري ، كما أنها ثمرة الملكية الخاصة التي جاءت عناصرها الأولية للطبقة المستغلة عن طريق مؤسسة القنونة نفسها .

ثم جاء زمن أصبحت فيه الملكية القطاعية ، كما أصبح النظام القطاعي كله عائقاً مباشراً لتقدم قوى الانتاج بعد أن أمسى التناقض بين علاقات الانتاج القديمة وبين قوى الانتاج الجديدة لا محتمل . وذلك لأن الطبقة الصاعدة هي تلك التي تستطيع تنمية قوى الانتاج الجديدة .

وازداد وعي النضال ، كما أصبح نضالاً منهجياً ، بعد أن كان تلقائياً ، فبجعل من الطبقة الصاعدة طبقة نورية . وأصبح الوسيلة التي لا يمكن تطبيق قانون الترابط الضروري بدونها . وأصبح هدفها ، منذ الآن ، ليس تهيشة مكان للبورجوازية في

(١) راجع ستالين : الزرعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية ، ص ٣٥ ، ص ٢٩ .

النظام الاقطاعي بل القضاء على هذا النظام .

ولهذا اشتد نضال الاقطاعيين واحتدم أيضاً، أولئك الذين لم يكونوا مهدين فقط يزوال سطوتهم الاقتصادية النسبية بل أصبحوا مهدين في وجودهم كطبقة، ولهذا ازدادت رجعتهم .

نهم الآن قول ماركس: نضال الطبقات محرك التاريخ، أي أنه الوسيلة السياسية التي تنحل بواسطتها تناقضات الانتاج، كما انه الوسيلة التي تتقدم بفضلها قوى الانتاج والمجتمع بأكمله . ولكن إذا كان النضال محل التناقض ، فليس هو الذي أوجده . إذ ليس وعي الناس هو الذي يلهو بإيجاد التناقضات . لأن هذا الحرك لا يدور في الهواء . بل هناك الانتاج وقانون الترابط الضروري . فهو يساعد هذا القانون على الظهور تماماً، كما أن الحرك يساعد طاقة المحروق على أن 'تظهر كل فعاليتها حتى إذا ما أصبح الانتاج ولد الطبقات المتناقضة حتى زوالها ، فإن نحو المجتمع يتم بواسطة نضال الطبقات : نضال بين الطبقات المعادية ، من جهة ، لترابط علاقات الانتاج الضروري مع قوى الانتاج ، وبين الطبقات المؤيدة ، من جهة ثانية ، لهذا الترابط ، ولنلاحظ هذا الصدد ؛ ان الطبقة الثورية يمكن ان تكون في نفس الوقت مستغلة وان الطبقة المغلوبة (كطبقة البورجوازية في عهد الاقطاع) ليست بالضرورة طبقة مستغلة .

تصبح الطبقة الصاعدة واعية لرسالتها التاريخية بمساعدة العلم الاقتصادي أو على الأقل بمساعدة التجربة الاقتصادية ، وكلما تحدد هذا الوعي كلما ازدادت فعالية النضال الثوري، لأن هذا النضال يعتمد على معرفة قانون الترابط الضروري الموضوعي .

نخلص الى القول إذن : ان الانتاج الاقتصادي والنظام الاجتماعي الذي ينتج عنه حتماً يكونان ، في كل عصر تاريخي ، أساس التاريخ السيامي والفكري لهذا العصر ؟ .: ولهذا فقد كان التاريخ (بعد زوال ملكية الأرض المشتركة في العصور البدائية) تاريخ نضال طبقي بين طبقات مستغلة وطبقات مستغلة ، بين طبقات محكومة وطبقات حاكمة ، في مختلف مراحل تطورها الاجتماعي^(١) .

(١) راجع انجلز : مقدمة طبعة بيان الحزب الشيوعي عام ١٨٠٣ انظر ص ١٩ من طبعة ١٩٥٤ . المطبوعات الاحتجاجية .

تناقضات المجتمع الرأسمالي

- ١ - علاقات الانتاج الرأسمالية : تناقضها النوعي .
- ٢ - قانون الترابط الضروري في المجتمع الرأسمالي .
 - أ - الترابط بين علاقات الانتاج الرأسمالية وطابع قوى الإنتاج .
 - ب - النزاع بين علاقات الانتاج الرأسمالية وطابع قوى الإنتاج .
- ٣ - نضال طبقة البروليتاريا ، منهج لحل التناقض بين علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج .
- ٤ - الخلاصة .

١ - علاقات الانتاج الرأسمالية : تناقضها النوعي

كتب ستالين يقول ، في وصفه لطابع المجتمع الرأسمالي الذي يتلو المجتمع
الاقطاعي .

تكون ، في النظام الرأسمالي ، ملكية وسائل الانتاج الرأسمالية أساس علاقات
الانتاج ، بعد أن زالت ملكية المنتجين والعمال فلم يعد الرأسمالي يملك حق قتلهم أو
بيعهم ، لأنهم تحرروا من كل ارتباط شخصي معه ، بيد أنهم محرومون من وسائل
الانتاج ، ولهذا فهم مضطرون ، كي لا يموتوا جوعاً ، الى بيع قوتهم على العمل الى
الرأسمالي ، والتردي في نير الاستغلال^(١) .

يعني هذا ان العلاقات الرأسمالية تحتوي على تناقض أساسي بين مصلحة الطبقة
المستغلة (البورجوازية الرأسمالية) ومصلحة الطبقة المستغلة (البروليتاريا) .
وهذا التناقض خاص بالرأسمالية . وذلك لأن وجود البورجوازية الرأسمالية
ورخاءها لا يتوفران إلا بعمل البروليتاريا .

وهكذا ندرك ، إذن ، ان نضال الطبقات ملازم للرأسمالية ، فهو يعبر
عن التناقض الداخلي في علاقات الانتاج الرأسمالية ، واستغلال الانسان الرأسمالي
لأنه الانسان ، حتى إذا ما نشأت علاقات الانتاج الرأسمالية - داخل المجتمع

(١) راجع ستالين : المادية الجدلية والمادية التاريخية ، الفصل الثالث صفحتين : ٢٥ - ٢٦ .

الاقطاعي نفسه — ظهر النضال الطبقي الموضوعي بين البورجوازيين والبروليتاريين^(١) ويستمر ذلك النضال على يدى تاريخ البورجوازية .

وسوف يتيح لنا تحليل علاقات الانتاج الرأسمالية تحديد طبيعة تناقضها النوعي الذي يؤدي بالضرورة إلى نضال الطبقات .

كان الصانع اليدوي يبيع مصنوعاته اليدوية ليشتري لنفسه حاجات مادية ضرورية ؛ والرأسمالي يشتري المواد الأولية لبيع منتجات مصنوعة . هدف الانتاج اليدوي هو الاستهلاك ؛ بينما غاية الانتاج الرأسمالي هي الفائدة . وهكذا يتحول المال الى رأسمال ، في هذا النوع الجديد من دوران المال ، وذلك لأن توظيف المال هو لزيادة انتاج المال .

ويصبح الانتقال من الشكل الأول لدوران المال الى شكل دوران الرأسمال ممكنا ، كلما وجدت الملكية الخاصة لوسائل الانتاج . وهذا ما يحدث في النظام الاقطاعي خاصة ، كما يفسر لنا نشأة الرأسمالية في هذا النظام .

بيد أنه يجب ، كي يتحقق الربح من هذه العملية ، ان يجد الرأسمالي في السوق بضاعة لها ميزة خاصة ، الا وهي انتاج قيمة اكثر من القيمة الضرورية لتجديدها ، وان يملك الرأسمالي لوحده فائض القيمة هذه .

(١) ولهذا من الخطأ الاعتقاد ان الفئة الثالثة (le tiers état) كانت في عام ١٧٨٩ ، أيام الثورة البورجوازية ، كتلة واحدة خالية من تناقضات المصالح . فلقد كانت مصلحة جميع الطبقات التي تكون الفئة الثالثة ، المشتركة في القضاء على الاقطاع . ولكنه كان يوجد في نفس الوقت تعارض في المصالح داخل الفئة الثالثة بين المستغلين و المستغلين ، يضاف اليه تعارض المصالح بين البورجوازية الكبرى والبورجوازية الصغرى والنح ..

فما هي هذه البضاعة المفيدة للرأسمالي ؟ انها ولا شك قوة العامل على العمل ، لان العمل وحده يمكنه ان ينتج القيمة^(١) .

ويجب ان نفهم من القوة على العمل مجموعة الصفات الحية التي يستخدمها لانتاج أشياء مفيدة^(٢) .

ماذا يجب كي يمتلك الرأسمالي القيمة المنتجة ؟ ويملك جميع وسائل الانتاج ؟

ماذا يجب كي تصبح قوة العمل الانسانية بضاعة ؟ ويضطر الناس الى بيعها بأنفسهم في الأسواق ؟

يجب أولاً : أن يملكوا هذه القوة تماماً ، أي ان يتحرروا من قيود الرق ؟
ثانياً : يجب وجود الاسواق : حيث يوجد الشراء والبيع والانتاج التجاري ؟
ثالثاً : ان لا يكون لدى الناس للبيع سوى قوتهم على العمل ؟ أي أنهم لا يملكون هم انفسهم أي وسيلة للانتاج .

يوجد مثل هؤلاء الناس البروليتاريين وذلك اما بسبب ازدهار النظام الاقطاعي اقتصادياً ، أو بسبب المضاربة التي تسيطر في الانتاج التجاري وتقضي على صغار الصناع اليدويين ، وصغار التجار .

هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن الرأسمالي ، الذي يجه استخدام العمال الاحرار

(١) لا شك ان قوة الانسان على العمل لا يمكنها ان تنتج فائضاً على القيمة الا في مستوى معين من تطور قوى الانتاج . كما رأينا في الدرس السابع عشر ، ٢

(٢) راجع كارل ماركس : الرأسمال ، الكتاب الاول ، الجزء الاول ، الفصل السادس من ١٧٠ المطبوعات الاحتاجية .

الذين هم ارقى من الرقيق الجملة ، ويعرفون كيف يستخدمون الآلات الجديدة ،
يشجع بكل الوسائل نضال الرقيق من أجل تحريرهم .

ندرك الآن مصدر « الحرية » التي فادت بها الرأسمالية ، وطبيعة هذه الحرية ،
هذه الحرية هي حرية التجارة والاعمال بالنسبة للرأسمالي ، وحرية العمل عند
الرأسمالي بالنسبة للبروليتاري .

وهذا ليس سوى قوة البروليتاري على العمل . ولكن كيف سيُدفع اجر هذه
القوة ؟ كما يدفع ثمن كل سلعة ، إذ تتحدد قيمتها بكمية العمل الضرورية لانتاجها .
وقيمة المنتوجات الضرورية لاستمرارها وتجديدها ، كي يعيش البروليتاري ويشب
أطفاله فيحلوا محلّه . ولما كانت هذه القيمة ستحصن من القيمة التي ينتجها العامل
خلال عمله اليومي ، فإن الزائد ، وهو فائض القيمة ، سيزيد من رأس المال :
« يكون القسم الأول الاجور بينما يتولد عن القسم الثاني الربح (١) .

ولهذا كانت مصلحة الرأسمالي في تحديد العمل اليومي ، كما ان مصلحة
البروليتاريا ، في تقصيره . فإذا وجب ثلاث ساعات لانتاج قيمة تساوي ما تتطلبه
تغذية قوة العمل عند العامل ، وإذا كان هذا العامل يبدأ عمله في الساعة السادسة
صباحاً ، فإنه منذ الساعة التاسعة يعمل لمصلحة الرأسمالي . فإذا عمل بدون
انقطاع وانتهى من عمله الساعة ١٤ فإنه يكون قد عمل خمس ساعات لمصلحة

(١) « تتحدد قيمة قوة العمل بقيمة الاشياء الضرورية الواجبة لتوليد قوة العمل وحفظها
واستمرارها » . (ك . ماركس ، الاجر ، السر ، والربح ص ١٨ العمل المأجور ورأس
المال ص ٩٥)

« واما فائض القيمة ، أي جزء القيمة الكلية للعمل التي تحتوي على فائض العمل ، أي العمل
غير المأجور الذي تقدمه العامل فائضه الربح » (نفس المراجع ص ٢٣ ، ١٠٠)

الرأسمالي . وإذا انتهى الساعة ١٩ (نفترض عملاً متواصلاً) فإنه يكون قد عمل عشر ساعات لمصلحة الرأسمالي .

وهكذا يتضاعف ربح الرأسمالي ما بين ثماني ساعات عمل يومياً وثلاثة عشر ساعة : (وكان هذا شائعاً في مطلع الرأسمالية) بينما أجر العامل لم يتغير : فهو محدد بالقيمة لتغذية قوة العمل ، وهي قيمة تكفي ثلاث ساعات لانتاجها .

يخفي ، طبعاً ، الرأسمالي ، هذا الامر حين يدفع اجر العامل ، في نهاية اليوم ، بعد انتهاء العمل المطلوب .

ولهذا يضطر البروليتاري ، كي لا يموت من الجوع ، الى العمل طيلة الوقت المحدد كي ينال اجره .

ويعني هذا ان الرأسمالي ، مقابل اجر يمثل تماماً ما يساوي أقل حاجات البروليتاري المادية ، يستولي على منتوجات عمل البروليتاري . وهكذا ينقسم العمل اليومي الى عمل يومي ضروري وعمل يومي بالجهان .

يوجد إذن ، في عهد الرأسمالية ، كما وجد في عهد الاقطاع وعهد الرق ، تلك خاص للعمل غير المجور . غير ان البروليتاري لا يكتشف رأساً مر هذا الاستغلال ، لانه يخيل اليه انه قد دفع اليه اجر كل عمله عند نهاية اليوم . كان الرقيق يملك منتوجات اقتصاده الخاص ، وكان يعرف انه يعمل عدداً من الايام بالجهان في خدمة سيده .

اما البروليتاري العصري ، فهو ، كالعبد ، لا يملك شيئاً سوى « حرّيته » ، أي قدرته على بيع قوته على العمل . وكان العبد ينال غذاءه من سيده ؛ اما الرأسمالي فهو يعطي البروليتاري ، في صورة اجر ، الضروري مما يحتاجه في غذائه ،

وربما عاد فاستولى على كل هذا الاجر في مستودع الاغذية، او عند دفع اجرة السكن : فالرأسمالية هي إذن العبودية المأجورة .

اتاح لنا هذا التحليل أن نتأكد أننا كنا محقّين في قولنا إن مصالح الرأسمالي الاقتصادية لا تتفق ومصالح البروليتاري في الأساس ، ولا يمكن التوفيق بينهما ، وان هناك تناقضاً كامناً في الرأسمالية يكون جوهر علاقات الانتاج الرأسمالية .

ينتج عن ذلك ان فكرة تعاون الطبقات والشرابة بين رأس المال والعمل هي سلاح لخدمة الرأسمالي . فهي تهدف الى ابعاد البروليتاري عن النضال من اجل الدفاع عن مصالحه . ليس الاستغلال الرأسمالي نتيجة « استغلال رؤساء العمل الفاسدين » ، كما تدعي منشورات البابا ؛ لانه لا يوجد رأسمالية « صالحة » إذ ان كل رأسمالية مستغلة بطبيعتها . ولهذا فإن القول بالقضاء على البروليتاريا ، والقضاء على الاستغلال الرأسمالي مع المحافظة على الرأسمالية والملكية الفردية لوسائل الانتاج إنما هو سخر بعقول الناس ، إذ يجب القضاء على الرأسمالية كي نقضي على البروليتا .

وتصح هذه الملاحظات بصد « الاشتراكية » البورجوازية عند برودون التي لا تهتم بالقضاء على الرأسمالية بواسطة عمل الطبقات الثوري ، بل « بتحسين مصير الطبقة العاملة » . ضمن نطاق الرأسمالية بعد تعديله^(١) .

(١) « لا تبلغ الاشتراكية البورجوازية مورتها الكاملة الا حين تصبح مجرد صورة بلاغية . التبادل الحر من اجل مصلحة الطبقة العاملة ! وحقوق تعمي اصحاب المصانع ، من اجل مصلحة الطبقة العاملة ! .. »

تلك هي آخر كلمة للاشتراكية البورجوازية ، وهي الكلمة الوحيدة التي قالتها جادة ، لان الاشتراكية البورجوازية تكمن كلها في هذا القول وهو ان البورجوازيين هم بورجوازيون من اجل مصلحة الطبقة العاملة » (ماركس - انجلو : بيان الحزب الشيوعي ، ص ٥٧)

وهناك نتيجة أخرى لتحليلنا، وهي ان نضال الطبقات ليس من اختراع
كارل ماركس . فهو موجود مستقلاً عن ارادة الناس . ولهذا لا يستطيع
البروليتاريون توفير اسباب عيشهم إلا بالنضال ضد المستغل ، حتى إذا ما
كفت البروليتاريا عن النضال ، من اجل الأجور ، انتهت بها الرأسمالية الى حالة
قريبة من حالة الحيوان .

غير أنه يجب ان نلاحظ ان التناقض بين الرأسمال والعمل ليس هو التناقض
الوحيد الذي وجد منذ مطلع الرأسمالية . ولكن تناقض المصالح بين
الرأسمالين المتنافسين ليس أساسياً بل يتبع التناقض النوعي للرأسمالية ، وهو
التناقض بين الرأسمالي المستغل وبين العامل المستغل : ولولا هذا التناقض لما
كان هناك رأسمالية . وهكذا يكون قانون سيطرة الانتاج في النظام الرأسمالي
تابعاً لقانون فائض القيمة الأساسي .

٢ - قانونُ الترابطِ الضروري في المجتمع الرأسمالي

درسنا فيما سبق علاقات الانتاج الرأسمالية : وذلك بتحليل تناقضها الداخلي
ذلك التناقض الخاص بالرأسمالية .

وسوف تسمح لنا هذه الدراسة ان ندرك مصير قانون المجتمعات الرأسمالية ،
في المجتمع الرأسمالي ، وهو قانون الترابط الضروري بين علاقات الانتاج وطابع
قوى الانتاج .

وسوف نرى ، في المرحلة الاولى ، كيف أوجد تناقض الرأسمالية الخاص
ظروفاً مواتية لعمل قانون الترابط الضروري ، أي لازدهار قوى
الانتاج .

ثم سوف نرى ، في مرحلة ثانية ، ان تناقض الرأسمالية الخاص يوجد ظروفاً
مواتية لعمل قانون الترابط الضروري : ومن ثم ينشأ التزاع بين علاقات الانتاج
وبين قوى الانتاج . فيعيق ذلك نمو قوى الانتاج .

١ - الترابط بين علاقات الانتاج الرأسمالية وطابع قوى الانتاج

رأينا في الدرس الرابع (المسألة ٤) ان طبقة البورجوازية تكونت وسط
المجتمع الاقطاعي . ولما كانت مصالح الطبقة البورجوازية مرتبطة بازدهار قوى
الانتاج الجديدة (كالصناعات اليدوية ، المصانع) فإنها لم تستطع النمو إلا عن
طريق النضال ضد علاقات الانتاج الاقطاعية التي لم تتسجم مع قوى الانتاج
الجديدة . فكانت بذلك حجر عثرة في وجه قانون الترابط الضروري .

كانت مهمة الثورة الديمقراطية البورجوازية تصفية الاقطاع ، فسيطرت
علاقات الانتاج الرأسمالية بفضل انتصار البورجوازية .

وهكذا اقبلت مرحلة تاريخية كانت فيها طريقة الانتاج الجديدة تتفق تماماً مع
متطلبات نمو الانتاج . واستعاد قانون الترابط الضروري ، الذي كان المجتمع
الاقطاعي يعيق عمله ، كل قوته في المجتمع الرأسمالي .

ويجب ان نلاحظ ان العلاقات الرأسمالية لا تتفق مع أية صورة أخرى لعلاقات الإنتاج . لماذا ؟ تقوم الرأسمالية على الربح (راجع المسألة ١ من هذا الدرس) ولهذا كانت مصلحة الرأسمالية في زيادة الإنتاج باستمرار وبأسعار اقل . ولهذا تحتاج الرأسمالية الى ضم قوى جديدة للإنتاج تقلل من الوقت اللازم للإنتاج ، كما تحتاج الى الحصول ، بمختلف الوسائل ، على اسواق جديدة . غير ان هذا الربح لا يمكن ان يأتي بربح اكبر إلا اذا استخدم في مشاريع صناعية ، او تجارية ، او زراعية جديدة . ولهذا كان على الملكية الرأسمالية ان تمتد الى جميع وسائل الإنتاج بدون استثناء . وهكذا لا تستطيع الرأسمالية ان تسمح بوجود أية صورة أخرى للملكية الى جانبها . بل يجب عليها ان تشمل الأمة بأجمعها ، ومن ثم ما هو خارج عن الأمة ، فتسعى منذ بدايتها الى سيطرة عامة شاملة .

لا يمكن للبورجوازية ان توجد إلا بتطوير وسائل الإنتاج باستمرار ، وهذا يعنى تطوير ظروف الإنتاج وجميع العلاقات الاجتماعية . بينما كانت المحافظة على طريقة الإنتاج القديمة بدون أي تغيير ، على العكس ، الشرط الأول لوجود الطبقات الصناعية السابقة^(١) . ولهذا يتميز عهد البورجوازية ، عن جميع العهود السابقة ، بهذا التطوير الدائم للإنتاج الذي يؤدي الى زعزعة مستمرة للنظام الاجتماعي بأكمله ، الى اضطراب وعدم اطمئنان لا ينقطعان ، فتزول جميع العلاقات الاجتماعية التقليدية مع ما يرافقها من نظريات وافكار قديمة . وإذا بالشيوخوخة تعتري العلاقات التي تحل محلها قبل ان يشتد ساعدها ، فكل ما هو صلب دائم يصبح دخاناً تذروه الرياح ، كما يُدَّنسُ كل ما هو مقدس ؛ ولهذا يضطر

(١) في الصناعة التي تعتمد على الرقيق مثلا

الناس الى النظر لأحوالهم المعيشية ولعلاقاتهم المتبادلة نظرة تتم عن الحيبة والياس (١) .

ومع ذلك يعم قوى الانتاج ازدهار عظيم . إذ تعتقد الرأسمالية ، في هذه المرحلة ، ان عليها ان تنمي قوى الانتاج بصورة غير محدودة . ومن هنا كانت الاعتقاد « بالتقدم » الانتهائي داخل البورجوازية ، وخلود الرأسمالية التي تبدو على انها الصورة النهائية الكاملة للمدنية . فيعتقد ، حينئذ ، الاقتصاديون الرأسماليون ان الانتاج الرأسمالي ينمو بئس ، بعيداً عن التناقضات ، فإذا بهذا العصر عصر « الانسجام الاقتصادي » .

يُخيل للرأسماليين عندئذ انهم يخدمون مصالح المجتمع ، ويزيدون من حجم السلع المستهلكة ، ويوفرون العمل للجميع .

اما مشاغلهم « الاجتماعية » فهي ؟ بالنسبة لفريق منهم ، الأمل بعلاج الامراض الاجتماعية ، عن طريق تنمية الانتاج ، وبذلك تتوطد اركان النظام الرأسمالي والمجتمع البورجوازي . ويصبح مثل المصالحين البورجوازيين الأعلى ، آنئذ ، ان يجعلوا من جميع الناس ملاكين ، لتكون البورجوازية بدون البروليتاريا . وقد ولد هذا الضرب من الاحسان المحافظ الجمعيات الخيرية المتعددة .

تعكس لنا هذه الافكار ان الملكية الخاصة الرأسمالية لوسائل الانتاج ، في هذه الفترة ، تساعد الانتاج مساعدة قصوى .

لا شك ان العصر الذي تلى الثورة البورجوازية ، حين قضت البورجوازية

(١) كارل ماركس : بيان لحزب الشيوعي ص ٣٢

على علاقات الانتاج القطاعية ، واحلت مكانها علاقات الانتاج البورجوازية ، قد مرت بفترات كانت فيها علاقات الانتاج البورجوازية حسب طابع قوى الانتاج . وإلا لما استطاعت الرأسمالية ان تنمو بسرعة ، كما فعلت بعد الثورة البورجوازية (١) .

وكانت علاقات الانتاج الرأسمالية القوة الرئيسية التي تعمل على نمو قوى الانتاج . بيد اننا قد برهننا في المسألة (١) من هذا الدرس ان العلاقات الرأسمالية هي علاقات استغلال ، فإذا كانت قوى الانتاج استطاعت ان تنمو في النظام الرأسمالي فما ذلك إلا نتيجة للاستغلال ! لأن ازدهار الانتاج كان بسبب وجود فائض القيمة الذي يولده العمل الانساني ، فاستولت البورجوازية على هذا الفائض . وهكذا يكون استغلال البروليتاريين هو الذي عمل على نمو الرأسمالية . فالبروليتاريون العصريون هم الذين اوجدوا روائع المدينة الحديثة ، وعانوا البؤس الخيف الذي فتك بالرجال والنساء والاطفال ، وكان من جرائه نمو قوى الانتاج الرائع الذي اقامت عليه البورجوازية الرأسمالية بذخها وسلطانها (١) .

يعنى هذا ان الانتاج في المجتمع الرأسمالي تابع للربح الرأسمالي ، وهو يقوم على استغلال الطبقة العاملة .

(١) راجع ستالين : « مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي » آخر مؤلفات ص ١ .

(١) « الرأخال هو عمل ميت ، يشبه الحيوانات التي تعيش على امتصاص الدماء ، فهو لا يعيش إلا على امتصاص عمل الاحياء » ك . ماركس : رأس المال ، الكتاب الاول ، ج ١ ، ص ٢٢٩ . المطبوعات الاحتجاجية .

يحق لنا القول ، إذن ، ان التناقض الخاص بالرأسمالية — وهو التناقض بين الطبقة المستغلة والطبقة المستغلة — اوجد ظروفاً مواتية لعمل قانون الترابط الضروري ، وان هذه الظروف مواتية ايضاً لازدهار قوى الانتاج .

ولسوف نرى الآن كيف كان لنفس التناقض ، في مرحلة ثانية (تبدأ نحو عام ١٨٤٠) اثر معاكس لهذا الأثر .

ب - النزاع بين علاقات الانتاج الرأسمالية وطبائع قوى الانتاج

كان الرأسماليون ، في عصر ازدهار الرأسمالية ، يعتقدون انه يمكنهم تطوير وسائل الانتاج بصورة غير محدودة ، كما كانوا يعتقدون ان الصناعة سوف تخفف الآلام ، وتحل جميع المشاكل . ولم يترأ لهم ان تطوير هذه الوسائل يمكن ان يقف في وجهه حداً ألا وهو الرأسمالية نفسها . وذلك بنفس الطريقة التي يصبح فيها تكبير حبات العدس محدوداً في الميكروسكوب ، فتحدث عندئذ ظواهر ضوئية جديدة تمنع الرؤية ، وتحول دون اي تقدم في الميكروسكوب القديم . كما ان ازدياد سرعة الطائرات يحدث ظواهر جديدة حين تبلغ سرعة الصوت ، وكذلك يجب على نحو قوى الانتاج — الذي يسرته الرأسمالية — ان يضر بالرأسمالية نفسها لأن تلك هي الجدلية في الطبيعة والمجتمع . فلقد اصطدمت الرأسمالية نفسها « بحدار الصوت » فكانت الازمات الاقتصادية (١) . فما هو أساس هذه الازمات ؟

(١) راجع باني : المراجع المذكور ، ص ٢٥٣ — ٢٥٤

تستطيع الرأسمالية ، بواسطة تطوير قوى الانتاج ، ان تعرض في الأسواق كميات متزايدة من السلع بأسعار اخص ؛ فتزداد هي المضاربة ، وتقضي الرأسمالية بذلك على طبقة صغار الملاكين ومتوسطيهم . بينما تتجمع الثروة في ايدي فئة قليلة من الرأسماليين (المحتكرين) ، ويعمُّ الفقر الاغلبية الساحقة (الطبقة المتوسطة ، والفلاحين) . وتزداد اهمية جميع هذه الطبقات ، كلما تجتمع رأس المال بين أيدي اقلية من المستغلين ، كما تضعف قوتهم الشرائية ، فإذا بالبيع في السوق يخف ، وإذا بالكساد يحل ، لأن اكثرية السكان تقتصر في استهلاكها على الضروري فقط . فيظهر الخلل عندئذ اكثر فاكثر بين الانتاج والاستهلاك . وهذا ما يسميه الرأسماليون « فائض الانتاج » ؛ فتحدث حينئذ الازمة .

وهكذا يولد الجري وراء الربح ، وهو هدف الرأسمالية ، عكسه : وهو توقف الربح . فإذا بغالبية المجتمع تتردى في البؤس ، لانها انتجت وسائل للعيش لا تستطيع شراؤها . فإذا بها تعاني الفقر بسبب كثرة الانتاج !

يظهر التحليل الاقتصادي الماركسي ان التوازن بين الانتاج والاستهلاك ، وغو الانتاج الاجتماعي يهدوء وانسجام لا يمكن ان يتحققا إلا إذا اعتبرنا مجموع حاجات المجتمع ، سواء كانت سلع الاستهلاك او وسائل الانتاج . ولكن اني " للرأسمالي ان يعتبر هذه المتطلبات ، بينما هدفه الوحيد هو مصلحته الخاصة وربحه الذي تحدده احوال السوق ؟

وليس الانتاج ، في النظام الرأسمالي ، تابعاً لحاجات الجميع بل هو تابع لأرباح الاقلية الرأسمالية . ولهذا لا يمكن تنمية الانتاج ، في الرأسمالية ، بصورة منسجمة إذ ينقسم هذا الانتاج بطابع استبدادي .

وهكذا نجد ان اساس الازمات الاقتصادية ، هو ، في النهاية ، التناقض الذي

نشأ بين مصالح الرأسمالين الخاصة وبين متطلبات الانتاج الاجتماعي ، فلقد قضت الرأسمالية ، بتبنيها لقوى الانتاج ، على تجزئة الانتاج الخاصة بالصناعة اليدوية ، كما أدت المضاربة القاسية بين الرأسمالين ، في مطلع القرن العشرين ، إلى التهام الاقوياء للضعفاء . فتكونت الاحتكارات ، وهي اشبه باقطاعات اقتصادية هائلة تمتد جبالها خارج حدود بلادها (كالاحتكار الاميركي المؤلف من شركة Standard oil) تحت اشراف روكفلر ملك البترول^(١) .

لا تفرق الرأسمالية ، في هذه المرحلة ، بين الصناعات المختلفة من استخراج المواد الأولية حتى المصنوعات . وتقوم الاحتكارات الضخمة بالاشراف على مجموع اقتصاد بلد او عدة بلدان من صناعة وتجارة وزراعة ، فتسيطر على الاقتصاد أوليجارشية (oligarchie) اقتصادية تملك رؤوس الأموال الضخمة اللازمة لسير الانتاج .

وهكذا حل تطور الرأسمالية الرأسمالية نفسها على التسرب الى جميع مظاهر الحياة الاجتماعية . فإذا بالمصارف والاحتكارات تربط مختلف فروع الانتاج بروابط متينة . وإذا بعملية الانتاج تتحد طابعاً اجتماعياً .

ولكن من يستفيد من كل ذلك ؟ حفنة من الرأسمالين تملك وسائل الانتاج الكبرى ، ويصبح الانتاج اجتماعياً أكثر فأكثر ، ولكنه لفائدة اقلية طفيلية .

(١) يكون الانتقال من الرأسمالية الحرة الى الرأسمالية المحتكرة اروع تصوير عن نزاع الازداد . إذ تحول المضاربة الحرة بين الرأسمالين الى ضدها (الاحتكار) بازالة الضعفاء . تظهر حينئذ صورة جديدة للنضال ، هو النضال بين الاحتكارات على المستوى العالمي .

تتجسّم الاحتكارات المتعادية، التي تكون هذه الأقلية، عن الربح الأكبر، مستغلة

الطبقات الكادحة وصغار الرأسماليين، وذلك لأن الحصول على الربح الأكبر إنما هو، بالنسبة إليهم، ضرورة موضوعية يجتهدون اتساع أعمالهم، ذلك هو القانون الأساسي للرأسمالية الحالية .

ويمكن صياغة معالم قانون الرأسمالية الاقتصادي الأساسي ومتطلباته بما يلي :

تأمين الربح الرأسمالي الأكبر باستغلال غالبية سكان بلد معين وتدميرها وافقارها، وكذلك باستعباد شعوب البلاد الأخرى ونهبها بصورة منظمة، ولا سيما البلاد المتأخرة، واختيراً تسخير الاقتصاد القومي، بواسطة الحروب، للتسلح لاستخدامها في تأمين أكبر الأرباح^(١) .

يؤدي الجري، إذن، وراء الربح الرأسمالي الى نتيجة حتمية وهي بؤس الطبقات الكادحة المترايد، واندلاع نيران الحروب . فلقد اعلنت الحرب الكورية على يد زعماء الرأسمالية الأميركية : لأن هؤلاء الرأسماليين، وقد تملكهم الذعر من شبح الأزمة الاقتصادية، لا يستنكفون عن السعي، بواسطة الحروب، عن طلبات تعود عليهم بالربح الوفير . ولهذا صرح الرئيس ايزنهاور بقوله « ربحنا هو ربحنا حرب » .

تقف الرأسمالية، في المرحلة الحالية، موقف المعتدي الدائم على الشعوب . وهذا هو الاستعمار .

(١) راجع ستالين : « مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي » في مؤلفات

غير أنه ليس بوسع الرأسمالين إزالة التناقض الكامن في الرأسمالية ، وهو التناقض بين مصالح الطبقة المستغلة ومصالح المجتمع بجموعه . وبالرغم من ادراك البورجوازية لهذا التناقض فإنها لا تستطيع تضيحة مصالحها الطبقة والنكوص عن أرباحها . ولهذا تعمل على الحد من قوى الانتاج حسب مصالحها . فتحمل بذلك علاقات الانتاج الرأسمالية ضد تقدم قوى الانتاج التي تهددها .

ويمكننا تعداد الأمثلة الكثيرة التي تظهر ان الرأسمالية ، وقد تملكها الخوف من الأزمة الاقتصادية ، تعمق تطور قوى الانتاج ، فتعود الى العمل اليدوي ، وتنتج سلعاً سيئة ، وتهمل المخترعات الجديدة ، وتقلل او تلغي الاعتمادات الضرورية للبحوث الخ . . . يفسر لنا كل ذلك ركود الانتاج الرأسمالي في جميع الميادين .

كتب ستالين يقول في وصف حال الرأسمالية :

تودت الرأسمالية في تناقضات يصعب عليها حلها ، لأنها ثمتت قوى الانتاج بصورة هائلة . فهي ، بانتاجها كميات متزايدة من السلع وتخفيضها للأسعار ، تريد من خطورة المضاربة ، وتقضي على طبقة صغار الملاكين ومتوسطيهم فتجعل منهم بروتليارين ، كما تنقص من قدرتهم على الشراء فتكون نتيجة ذلك استحالة تصريف السلع المصنوعة . وتجعل الرأسمالية ، بتوسيعها الانتاج وتجميعها للملايين العمال في مصانع ضخمة ، لعملية الانتاج طابعاً اجتماعياً ، كما أنها في نفس الوقت تهدم أساسها ؛ لأن طابع عملية الانتاج الاجتماعي يستدعي ملكية وسائل الانتاج الاجتماعية ؛ غير أن ملكية وسائل الانتاج تظل ملكية فردية رأسمالية لا تتفق وطابع عملية الانتاج الاجتماعي .

تظهر هذه التناقضات المتنافرة بين طابع قوى الإنتاج وبين علاقات الإنتاج في أزمات فائض الإنتاج المستمرة . فيضطر الرأسماليون ، لانعدام الشراء ، بسبب القضاء على الطبقات التي كانوا هم السبب في افقارها ، الى حرق الحبوب و افساد السلع الجاهزة وايقاف الإنتاج ، وتخطيم قوى الإنتاج ، بينما ملايين الناس يعانون البطالة والجوع ، وليس ذلك ، بسبب فقدان السلع ، ولكن بسبب كثرة هذه السلع .

يعني هذا ان علاقات الإنتاج الرأسمالية لا تتفق وحالة قوى الإنتاج في المجتمع فنشأ التناقض بينهما^(١) .

التناقض إذن بين علاقات الإنتاج الرأسمالية وبين طابع قوى الإنتاج الاجتماعي هو أساس الازمات التي تعترى الرأسمالية .

غير أن هذا التناقض نفسه قد تولّد من التناقض الخاص بتكوين الرأسمالية (الذي درسناه في المسألة (١) من هذا الدرس) .

وإذا ما أودنا ان نختصر المسألة (٢) فماذا نجد ؟

كان التناقض الخاص بالرأسمالية (حيث تقف البورجوازية المستغلة ضد البروليتاريا المستغلة) مواتياً أولاً لعل قانون الترابط الضروري : وكان قانون فائض القيمة ، وهو مصدر الربح الرأسمالي ، يعمل على ازدهار قوى الإنتاج ؛ تلك كانت مصلحة الطبقة البورجوازية .

ثم أدّى نفس التناقض الى نتيجة عكسية : إذ أصبحت المصلحة الطبقيّة حجر

(١) سنالين : « المادية الجدلية والمادية التاريخية » الفصل ٣ ، أ ، ص ٢٦ - ٢٧

عثرة في وجه الانتاج. لان قانون فائض القيمة ، الذي يمثل اليوم في قانون الربح الاكبر ، قد عمل على فشل قانون الترابط الضروري بين علاقات الانتاج وطابع قوى الانتاج. غير ان قانون الترابط الضروري ، كما نعلم ، هو القانون العام للمجتمعات الانسانية الذي يشمل جميع صور الانتاج، فلا يمكن للمجتمعات أن تتقدم إلا في ظل هذا القانون .

وهكذا يعمل القانون الخاص بالرمالية (وهو قانون فائض القيمة الذي لا ينفصل عن الاستغلال (البورجوازي) على فشل قانون المجتمعات الانسانية العام . وهذا النزاع هو مصدر انحطاط الرأسمالية . ويعني هذا انه قد نت، داخل النظام الرأسمالي، قوى انتاجية لم يعد يستطيع كبح زمامها . كما يعني أن علاقات الانتاج جديدة ، وهي العلاقات الاجتماعية ، أصبحت ضرورية ، موضوعياً، لانها الوحيدة التي تلائم قوى الانتاج الحديثة .

تحمل الرأسمالية في احشائها ثورة، وعلى هذه الثورة ان 'تحل' محل ملكية وسائل الانتاج الرأسمالية الحالية الملكية الاشتراكية^(١).

وسوف نلاحظ ان الرأسمالية ، بتبنيها لوسائل الانتاج ، قد عملت ، بالرغم منها ، ضد مصلحتها . لان مجموع الانتاج يتخذ طابعاً اجتماعياً في مرحلة الاحتكارات ؛ ويصبح التناقض بين الطابع الاجتماعي للانتاج وبين التملك الفردي الرأسمالي حاداً لا يطاق، كلما ازدادت سطوة الاحتكارات. فتكون البورجوازية قد حفرت بنفسها قبرها، في عملها على ازدهار قوى الانتاج، خدمة لمصلحتها الطبقية، وحصرها لقوى الانتاج اكثراً كثر للحصول منها على الفائدة الاكبر. أما حفر القبر فهي.

(١) المادية الجدلية والمادية التاريخية ، ص ٢٧ .

*الطبقة التي أتاح عملها وبؤسها للرأسمالية أيامها السعيدة : الا وهي طبقة البروليتاريا .

٣ - نِضَالُ طَبَقَةِ الْبُرُولِيتَارِيَا . مَنَهِجُ الْحِلِّ التَّنَاقُضِ بَيْنَ عِلَاقَاتِ الْإِنْتِاجِ وَقَوَى الْإِنْتِاجِ .

أظهر لنا التحليل الجدلي للرأسمالية :

أ) وجود تناقض في علاقات الانتاج يعمل على تعارض البروليتاريا المستغلة والبورجوازية المستغلة . وقد تبينا ، من درسنا لهذا التناقض في المسألة (١) من هذا الدرس ، انه يدوم دوام الرأسمالية نفسها ؛ لانه التناقض الخاص بالرأسمالية .

ب) وجود تناقض بين علاقات الانتاج الرأسمالية وبين طابع قوى الانتاج . وهو لا يظهر الا حين تبلغ قوى الانتاج ، التي تنميها الرأسمالية ، مستوى معيناً (نحو عام ١٨٤٠) - وقد درسنا هذا التناقض في المسألة (٢) من هذا الدرس .

فما هو أساس تغير طريقة الانتاج ، وما هو سبب الثورة الاشتراكية ؟ رأينا أن سبب ذلك هو التناقض الثاني . غير ان التناقض الأول هو الذي يولد التناقض الثاني ، لأن الاستغلال الرأسمالي ، استغلال البروليتاريا على يد البورجوازية ، هو الذي ساعد على ازدهار قوى الانتاج . وهو ازدهار أفاد الطبقة المستغلة حتى اليوم الذي أصبحت فيه قوى الانتاج هائلة بالنسبة للرأسمالية .

نستطيع الآن ادراك مهمة نضال البروليتاريا الطبقي التاريخية . وسنرى بأن هذه المهمة هي حل التناقض (ب) الذي ظهر بين علاقات الانتاج الرأسمالية وبين قوى الانتاج .

كانت البورجوازية تنمي البروليتاريا ، في نفس الوقت الذي كانت تنمي فيه قوى جديدة للانتاج ، حسبما تقتضيه طبيعة علاقات الانتاج الرأسمالية (راجع المسألة ١) . وطبقة البروليتاريا هي الطبقة المستغلة ، أي المناقضة للبورجوازية المستغلة . وكلما تجمعت وسائل الانتاج بين يدي البورجوازية كلما ازداد عدد البروليتاريا وقوتها . وهكذا جمعت البورجوازية ، من أجل الاستغلال الرأسمالي ، عشرات الآلاف من العمال ، ثم الملايين في مصانع واسعة اقامتها في المناطق الصناعية ، كما أنها جمعت عشرات الآلاف من العمال الزراعيين لاستغلالهم .

غير أنه لا يمكن للعمال البروليتاريين ان يؤمنوا معيشتهم ، كما نعلم ، إلا بالنضال المستمر ضد الطبقة التي تستغلهم . وهكذا ولدت البورجوازية ، بتوليدها نقيضها (البروليتاريا المستغلة) ، جيشاً من الاعداء يقومون بنضال طبقي ضد المستغلين .

ولقد وصف كارل ماركس ، في بيان الحزب الشيوعي ، مراحل هذا النضال الرئيسية ؛ فخرجوا من القاريء ان يعود الى قراءة ما كتب^(١) . سدد العمال ، في مطلع الرأسمالية ، ضرباتهم الى الآلات التي كانت نذير البطالة ، وذلك لجهلهم طبيعة النظام الذي يعانونه . فهم لا يميزون بين الآلة وبين كيفية استخدام البورجوازية لهذه الآلة ، وهم يناضلون ضد قوى الانتاج بدلا من النضال ضد الاستغلال .

(١) راجع أيضاً ماركس : بؤس الفلسفة من ١٢٩ - ١٣٦

ثم إذا بهم يكتشفون شيئاً فشيئاً أن عدوهم الحقيقي ليس الآلة بل هو الرأسمالية . وذلك لأن الرأسمالية ، باستعمال الآلات ، تخفض تكاليف الانتاج ، فتتخفف قسمة قوة الانتاج ، وتتنخفض بذلك الأجور . ولهذا يقوم البروليتاريون بالنضال للدفاع عن أجورهم . حتى إذا رأوا أن الرأسمالي يحاول إثارة العمال بعضهم على الآخر (إذ يرضى البائسون منهم بأجور منخفضة جداً فيضطر من هم انعس منهم الى قبول اجور منخفضة اكثر من الأجور الأولى) ادركوا مصالحهم المشتركة . فيتحدون عندئذ للنضال ضد عدوهم المشترك الا وهو الرأسمالي .

هذه الصورة الأولى للنضال هي الاضراب الذي يهدف الى الابقاء على الاجر (وتقصير العمل اليومي) . وكان الاضراب يعني ، وهو السلاح الأول للبروليتار ، وعي البروليتاريا الطبقي بان مصالح العمال الفردية لا يمكن الدفاع عنها إلا بالتضامن الطبقي والنضال المشترك .

ذلك لان الصناعة الكبرى تجمع في مكان واحد جمهوراً من الناس يجمل بعضهم بعضاً . فتفصل المضاربة بين مصالحهم . ولكن الابقاء على الاجر ، وهو مصلحة مشتركة ضد رب العمل ، يوحدهم في المقاومة والتحالف .

وهكذا تسعى المحالفة الى هدف مزدوج : وهو ازالة المضاربة فيما بينهم للقيام بمضاربة عامة ضد الرأسمالي^(١) .

يؤدي التحالف العابر ، من أجل الاضراب ، الى تحالف مستمر للوقوف في وجه الاضطهاد الرأسمالي وتلك هي النقابة .

(١) ماركس : بؤس الفلسفة ، ص ١٣٤

التحالف العابر للاضراب والتحالف المستمر (النقابة) هما صورتا النضال والتنظيم الثلقائيين عند البروليتاريا ؛ وهي تصل اليها بدون مساعدة اية نظرية علمية عن طريق تجربتها الخاصة . وهكذا انتزعت الطبقة العاملة من الرأسماليين بعض الانتصارات الكبرى ، كتحديد العمل اليومي بثماني ساعات .

غير أن البورجوازية الرأسمالية تسعى ، بتأثير قانون الربح الصارم ، الى استعادة كل ما تنازلت عنه . فإذا ما تحدث الرأسماليون ورجالهم السياسيون ، بحجارة ، عن « تحسين مهير الطبقة العاملة » فلا يجب الانخداع بذلك ، إذ ان هذه التحسينات قد كسبها العمال المنظمون بعد نضال مرير . ولهذا تشن البورجوازية حروباً ضارية على النقابات العمالية . فهي تتهم هذه النقابات بتكوين « اقطاعات جديدة » كي تثير الطبقات المتوسطة والفلاحين المخلصين لذكرى ١٧٨٩ ضد البروليتاريا المنظمة وهذا اتهام سخيف . يتردد علي افواه « اقطاعي » رأس الماس الذين يلتمهون جميع ثروات المجتمع (ثروة صغار البورجوازيين والفلاحين) .

حتى إذا ما تسرب علم المجتمعات ، الذي اسسه ماركس وإنجلز ، بين صفوف البروليتاريا ارتفع مستوى النضال الطبقي بفضل الحزب الثوري^(١) . لأن مهمة هذا الحزب ، الذي يضم تحت لوائه عناصر البروليتاريا الناهضة ، ان يدخل الوعي الاشتراكي في الطبقة العاملة ، وان يقودها ، هي وجميع الطبقات السكادحة المتضامنة معها ، الى ذلك صرح الرأسمالية . فهو يناضل من أجل مطالب العمال العاجلة ؛ غير انه لا يكتفي بذلك ، بل يشرح لهم ، بصورة علمية ، مصدر الاستغلال ، كما يظهر لهم إنهم

(١) راجع الدرس الرابع عشر (المسألة ٤ ، ب) حول صفات الحزب الثوري أي الحزب الشيوعي .

لا يستطيعون التخلص من هذا الاستغلال إلا بالقضاء على المجتمع الرأسمالي والدولة
البورجوازية التي تحميه، ويستعيز عن هذا المجتمع، بواسطة دكتاتورية البروليتاريا،
بمجتمع لا يستغل فيه الإنسان أخاه الإنسان، ألا وهو المجتمع الاشتراكي. مثل
هذا النضال يستحق وحده اسم النضال الثوري.

جم البروليتاريا ان تقود هذا النضال حتى النهاية، وأن تقضي على علاقات الانتاج
الرأسمالية. ولقد رأينا ان البروليتاريا، نظراً لارتباطها بأحدث قوى الانتاج،
هي نتيجة ضرورية للاستغلال الرأسمالي. فهي لا تستطيع إذن التحرر من الاستغلال
الطبقي إلا بالاستيلاء على وسائل الانتاج من البورجوازية، الطبقة المستغلة،
لتجعل من هذه الوسائل ملكاً للجميع، في مجتمع لا يعرف المستغلين ولا المستغلين
وبينما تسمى الطبقات المتوسطة (كصغار الصناع، وبائعي المفرق، والعمال
اليديين، والفلاحين الفقراء والمتوسطين) للعيش كطبقات من صغار الملاكين
داخل الرأسمالية، فليس للبروليتاريا، وهي التي لا تملك سوى قوتها على العمل،
من هدف سوى القضاء على الاستغلال الذي هي موضوعه، أي القضاء على نفسها
كطبقة مستغلة لتبني المجتمع الذي لا يعرف الطبقات.

وكما تضامن الاقطاعيون القدماء، في جميع بلدان أوروبا، ضد البورجوازية
الغازية، تضامن اليوم البورجوازية في مختلف البلاد الرأسمالية، ضد البروليتاريا
الثورية. واشتد هذا الوضع، الذي استمرت معه التناقضات بين الرأسماليين
الالاء، بصورة غريبة، مع ظهور الاحتكارات. لأن الرأسمالية الكبرى عالمية.
غير ان البروليتاريا تضامنت بدورها في جميع البلاد كطبقة ثورية مردة النداء الذي
يجتم بيان الحزب الشيوعي: « اتحدوا ايها العمال في جميع انحاء العالم ».

وهكذا نجد ان النزعة العالمية للبروليتاريا هي نتيجة لوضع العمال الموضوعي

مهما كانت جنسياتهم ، لأن المستغلين في جميع البلاد لهم عدو مشترك هو الطبقة المستغلة مهما كانت جنسيتها .

ذلك هو النضال الثوري ضد الاستغلال .

ومع ذلك لن يفوز هذا النضال بالنصر ، طالما ان علاقات الانتاج الرأسمالية تتفق موضوعياً مع مستوى قوى الانتاج ، اي طالما ان الرأسمالية تنمو حسباً يقر قانون الترابط الضروري ولا يعني ذلك ان نضال البروليتاريا غير مجد حينئذ لأن البروليتاريا ، بفضل هذا النضال ، تعي قواها فتعمل على جمعها وتنظيمها ، كما ان هذا النضال يربطها ويحددها . ولا يستطيع نضال البروليتاريا ، في هذه المرحلة ، ازالة الاستغلال الرأسمالي بل يحد من تأثيره .

حتى إذا لم تعد علاقات الانتاج الرأسمالية مناسبة لقوى الانتاج ، بسبب ازدهار هذه القوى ، اي حين تدخل الرأسمالية في نزاع مع قانون الترابط الضروري بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، تتوفر حينئذ الشروط الموضوعية الجديدة لنضال البروليتاريا^(١) .

ويسمى نضال البروليتاريا ، من اجل تأمين وسائل الانتاج ، الى تهينة ظروف موالية لعمل قانون الترابط الضروري الذي لم تعد الرأسمالية تحتمله . وهكذا يسير نضال البروليتاريا الثوري في اتجاه التاريخ ، ولهذا كان واثقاً من المستقبل لأن هذا هذا النضال يسير حسب قانون المجتمعات الاسامي .

غير ان البورجوازية ، الحريصة على أرباحها كطبقة مستغلة ، تستخدم كل

(١) سري في الدرسين العشرين والواحد والعشرين ان التغيير الثوري في المجتمع على يد البروليتاريا يتطلب ايضاً شروطاً ذاتية سوف ندرسها .

وسيلة لتقف في وجه قانون الترابط الضروري ، فينتج عن ذلك ، كما رأينا ، اعظم الآلام للجموع . وليس هناك سوى قوة اجتماعية واحدة تستطيع التغلب على مقاومة البورجوازية لقانون الترابط الضروري ، فما هي هذه القوة ؟ خيال للغياليين من المفكرين انهم يستطيعون تغيير المجتمع بواسطة قوة الأفكار . ويعود الفضل الى ماركس وانجلز بأنها اكتشفا ان الوسيلة الوحيدة التي تستطيع حل التناقض بين طابع قوى الانتاج الاجتماعي وبين الملكية الخاصة (التناقض ب) (راجع ما سبق) هو نضال الطبقة العاملة الثوري معتمدة على تأييد ضحايا الاستغلال الاخرى . وذلك لأن البروليتاريا ليست وحيدة في نضالها ، لأن نحو الرأسمالية - وانتقالها من المضاربة الى الاحتكار - يؤدي الى افقار مختلف طبقات المجتمع . إذ لا تستطيع البورجوازية الكبرى ان تدهر إلا بتعميم البؤس حولها . فيقف في وجهها لا محالة - عدا البروليتاريا الثورية وعدوها الطبيعي - الطبقات المتوسطة التي افترقت ، والفلاحون العمال ، والصناع اليدويون ، واصحاب الدكاكين ، الخ .. وجميع الطبقات التي قضت عليها ، فتجتمع البروليتاريا جميع طبقاتها ، بقيادة الحزب الماركسي اللينيني ، وتؤلف جبهة واحدة للنضال ضد العدو المشترك ، الا وهو البورجوازية الكبرى المستغلة . وهكذا تقوم قوة اجتماعية جبارة لتعطيم العلاقات الرأسمالية واقامة علاقات جديدة للانتاج ، الا وهي العلاقات الاشتراكية المواتية لمستوى قوى الانتاج الحديثة .

أما قدرة البروليتاريا على جمع اكبر الجموع للنضال ضد الاقلية المستغلة فهي تظهر بوضوح مهمتها القومية ، وهكذا تقف الطبقة العاملة ، كما اشار اليه كل من ماركس وانجلز ، في النضال الثوري ، في مقدمة الامة ، بينما تنفصل عنها اوليجارشية رأس المال الكبير نظراً لمصلحتها الطبقية . وكلنا يعرف ، اليوم في فرنسا ، كيف انتقلت هذه الاوليجارشية الى الحياة المفزوحة للمصلحة القومية . وهي مستعدة

لا ارتكاب كل شيء حياً للبقاء، ولهذا سلمت البلاد الى الاستعمار الاجنبي . وهذا وضع يشبه وضع الاقطاعيين عام ١٧٨٩، حين تحالفوا مع اقطاعي البلاد الأخرى ضد شعبهم املاً في استعادة السلطة في البلاد .

بينما تتفق ، على العكس ، مصالح البروليتاريا الثورية مع مصالح الأمة ضد البورجوازية الكبرى المستغلة التي لا تعرف لها وطناً .

وهكذا تصبح النزعة الوطنية البروليتارية والنزعة العالمية البروليتارية مظهرين لا ينفصلان لنفس النضال الذي تقوم به الطبقة العاملة ضد البورجوازية الرجعية التي تضعي حياة الشعوب في سبيل الربح الاكبر .

٤ - الخلاصة

تؤدي بنا دراسة تناقضات المجتمع الرأسمالي ونموها الى عتبة مجتمع جديد لا استغلال فيه . وقبل ان نستمر في البحث يجدر بنا ان نمنع الفكر في بعض النتائج الفكرية للاستغلال الرأسمالي .

هناك نزعة انسانية (Humanisme) بورجوازية • وإذا ما قلنا « انسانية » علينا الثقة بالانسان ، وحب الانسان .

كانت البورجوازية الثورية ، ولا سيما في فرنسا ، تغضر باعتقادها بالاخوة الشاملة . لماذا ؟ لأنها كانت تناضل موضوعياً لتعيد لقانون الترابط الضروري تأثيره الذي وقفت في وجهه الاقطاعية ، وهكذا كان عملها يسير باتجاه التاريخ .

ولكن ماذا بقي اليوم من كل ذلك ؟ أصبحت اليوم البورجوازية ، نظراً

لمصلحة الطبقة ، حجر عثرة في وجه عمل قانون الترابط الضروري بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، وذلك هو الاساس الموضوعي لـ «الانسانية البورجوازية» (inhumanisme) (التي تقوم على احتقار فاشيستي للانسان وتكون موضوعاً للانحطاط) .

ان عقلية البورجوازية الكبرى العالمية هي عقلية عصابة قطعت كل علاقة لها بالجنس البشرى . اما فلسفتها الفكرية ، التي تدعى حرمان كل معارض من ابسط حقوقه ، فهي فلسفة فكرية تقوم على البطش والموت ، كما انها تبرر الجرائم المريعة التي ترتكبها طبقها من اجل خلاصها (كحرب كوريا مثلاً) .

بينما تكون الطبقة العاملة ، التي تناضل لتعيد الى قانون الترابط الضروري حقوقه ، طليعة الانسانية . ولما كانت الطبقة العاملة طبقة ثورية ، فهي تقيم علاقات حية بين ماضي المجتمعات ومستقبلها . بين الماضي ، لانها تحتضن كل العوامل التي عملت على تقدم المجتمعات (ولهذا فهي تحيي النزعة الانسانية البورجوازية بالرغم من معارضة البورجوازية الرجعية) . وبين المستقبل لأنها تضع هذا المستقبل في نضالها الطبقي .

وهكذا تناضل الطبقة العاملة من اجل جميع الناس : ولهذا كان نصرها الأول - ثورة تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٧ - اعظم حادث في تاريخ الانسانية .

البناء الفوقي

- ١ - ما هو البناء الفوقي .
- ٢ - يتولد البناء الفوقي بواسطة الاساس .
- ٣ - البناء الفوقي قوة فعالة .
- ٤ - ليس البناء الفوقي مرتبطاً مباشرة بالإنتاج .
- ٥ - الخلاصة .

١ - ما هو البناء الفوقي

درسنا في الدرس الثاني عشر والثالث عشر مصدر الافكار ومهمتها في الحياة الاجتماعية : ولقد رأينا ان حياة المجتمع الفكرية انعكاس لحياته المادية . فهل من الصواب إذن ان نطلق كلمة البناء الفوقي (Superstructure) على جميع الافكار والمؤسسات التي توجد في مجتمع معين ؟

نستطيع الاجابة على هذا السؤال بدقة الآن ، وقد عرفنا نظريات المادية التاريخية الاساسية .

يوجد في كل مرحلة من مراحل التاريخ ، في جميع المجتمعات ، جنباً الى جنب افكار مختلفة متناقضة لانها انعكاس لتناقضات المجتمع الموضوعية . ومع ذلك فلا تتساوى هذه الافكار في القيمة . منها ما يصبو الى الابقاء على المجتمع في اوضاعه القديمة ، ومنها ما يسعى الى تجديد هذا المجتمع ، وتكون حركة الافكار المتعارضة انعكاساً لنضال الطبقات في المجتمعات التي يوجد فيها نضال الطبقات المتعارضة . كما يمكن لنزاع الافكار ان يتخذ شكلاً قاسياً زجرياً . ونخلو الاشتراكية من تناقض الطبقات ، غير ان النضال بين القديم ، والحديث موجود وهو ينعكس في النزاع الفكري .

يدرك الناس المشاكل التي تنشأ في زمنهم من خلال نزاع الافكار الذي يفتح الطريق لاكتشاف حلول يعرضها الواقع نفسه . ولهذا يعتقد المثاليون ، كهيغل ، ان جدلية الفكرة هي التي تولد الحركة التاريخية :

ولهذا من الخطأ القول بأنه وجدت عصور مباركة ، لم تعرف نزاع الافكار ، وحل فيها الانسجام بين الافكار والقلوب ، كما اعتاد بعض المؤرخين تصوير الماضي بصورة ميتافيزيقية . فلقد وجدت افكار معارضة قضت عليها الطبقات المسيطرة ولم يذكرها التاريخ الرسمي ، فلقد هاجم العصر الوسيط ، بعنف ، الاكايروس والافطاعيين في مؤلفاته الشعبية اللاذعة سواء كانت خرافات ام اغاني .

أما اضطهاد الافكار الجديدة ، ونزاع الطبقة المسيطرة الفكري المنظم ، فهما من ميزات المجتمعات التي يوجد فيها استغلال الانسان علي يد اخيه الانسان .

ولقد خيل للبورجوازية انها سوف تشتهر إذا ما أعلنت عن حرية النزاع الفكري ، اما الواقع فهو ان الامر لم يتعدّ حرية الرأي ، ضمن نطاق الفلسفة الفكرية البورجوازية . وهذه حقيقة ستزداد وضوحاً مع انحطاط هذه الطبقة .

ولا تستطيع سوى الطبقة القادرة على ازالة التناقضات الطبقة ان تكون رائدة النزاع الفكري الحر . ولهذا يستحيل ، في المجتمع الذي يسرع في تقدمه ، اي في الاشتراكية ، ان لا ينو النزاع الفكري بشدة .

والمادية التاريخية هي الوحدة التي تعلم المناضل ، كما تعلم العالم ، ان لا يضع في معركة الافكار ، وان يساوي بينها في القيمة ، وان يميز المصالح الطبقة التي تحفيها .

لا شك ان سلطات النظام الرأسمالي تقدم فكرة على أخرى عن طريق الصحافة مثلاً : فإذا ما قرأنا في صحيفة ان عدد صغار التجار الكبير هو سبب الصعوبات الاقتصادية ، يجب علينا ان نكتشف وراء هذه « النظرية » مصلحة رأس المال الكبير ، فهو يسعى ، مدفوعاً بقانون الربح الاكبر ، ميزة الرأسمالية الحالية ، الى تخفيض نصيب بائعي الفرق من فائض القيمة الى اقصى حد . وإذا ما قرأنا ان افضل نظام للضرائب هي الضرائب الغير المباشرة ، لأن جميع الناس يدفعونها ، فإن هذا القول يخفي أيضاً المصالح الرأسمالية ، لأن الضريبة الغير المباشرة ، التي تفرض على الاستهلاك ، تمس اصحاب الاجور والفلاحين والطبقات المتوسطة بصورة أشد مما تمس الرأسمالي .

غير ان هذه الافكار لا تكتفي بفلسفة النظام الموجود . بل هي وسائل للنضال ، فيسعى رأس المال بإذاعتها الى المحافظة على الوضع المواتي له ، كما انه يبيء الأذهان لتقبل المقررات الجديدة من قوانين واجراءات سياسية توطد اركان الرأسمالية .

وهكذا تمكس هذه الافكار ، التي تنشرها الطبقة المسيطرة ، مصالحها كما انها تستخدم هذه المصالح . ابتدأنا ندرك ما نعنيه بالبناء الفوقي (Superstructure) .

وما يصح على فكرة معينة تنشرها الصحافة يومياً ، يصح أيضاً على النظريات الفلسفية .

كتب أنجلز يقول بصدد نظرية كلفن عن القضاء والقدر :

كانت العقيدة الكلفانية تتفق وحاجات البورجوازية في ذلك العصر. فقد كانت عقيدة القضاء والقدر تعبيراً دينياً ، إذ كان النجاح والفشل ، في عالم المضاربة التجاري لا يتماثلان بنشاط الانسان او مهارته بل بظروف خارجية عن ارادته . لم تكن هذه الظروف تتعلق بإرادة الانسان أو بعمله ؛ بل هي تخضع لقوى اقتصادية عليا مجهولة .

وكان هذا حقاً ، لا سيما في عصر ثورة اقتصادية حل فيه محل مراكز التجارة القديمة والطرق مراكز وطرق أخرى ، كما فتحت الهند وأميركا أبوابها للعالم ، بينما أخذت أكثر سلع الثقة الاقتصادية احتراماً ، بسبب قدمها - كقيمة كل من الذهب والفضة - تتهار^(١) .

وهكذا أصبحت مجرد ظاهرة اقتصادية عمل الحكمة الإلهية التي تكتنفها الأسرار . ولقد عانت البورجوازية تجربة المضاربة ، غير أن روح العصر الديني كان يخفي عنهم طبيعتها الاقتصادية الصرفة ، كما أن فكرة « القضاء » نقلت إلى مستوى النظرة إلى العالم ، وأخذت تتسرب إلى الديانة . وأخذ التجار يشكون من آثار المضاربة ، وأن عاشوا بفضلها وآثروا . إذ كانوا يريدون المضاربة بدون آثارها . ولكنهم تعزوا عنها بالفكرة القائلة أن الناس يجب أن يعانوا قضاء مقدراً عليهم من قبل .

(١) أنجلز : دراسات فلسفية ، ص ٩٨

وهكذا وطدت فكرة « القضاء والقدر » الانتاج التجاري، بعملها على قبول آثار المضاربة في الفنة التي تعيش منها .

كان من الطبيعي ان لا يرضى الاقطاعيون ، الذين كانت التجارة البورجوازية تحمل الخراب اليهم ، بهذه العقيدة ، ولهذا حرمتها الكنيسة الكاثوليكية ، سيف الاقطاعية الروحي . غير ان الاقتصاد التجاري، بتنميته لقوى الانتاج، كان تقدماً على الاقتصاد الاقطاعي . ولهذا قامت النظرية الكلفانية بدور تقدمي بالنسبة الى عقيدة القرون الوسطى . بينما اصبحت هذه العقيدة ، في ايامنا هذه ، بالية ؛ لان نزعتها للايمان بالقضاء والقدر تتعارض مع الفكرة الثورية القائلة بأن الانسان سيد مصيره . ولما كانت فكرة كبار اصحاب المصارف البروتستنت فهي لا تسعى إلا لقبول « القضاء والقدر » في الازمات الاقتصادية والاضطرابات الاقتصادية في الرأسمالية .

يظهر هذا المثال ، بصورة بديهة ، انه يمكن لنفس الفكرة ان تحتل ، حسب الظروف الاقتصادية ، موضعين مختلفين : فهي تستطيع الاساءة الى صورة الاقتصاد السائد ، وذلك شأن عقيدة « القضاء والقدر » في النظام الاقطاعي ، كما تستطيع خدمة علاقات الانتاج السائدة ، وهذا شأن نفس العقيدة في النظام الرأسمالي، ولانقول عن هذه العقيدة بأنها عنصر من عناصر البناء الفوقي (la Superstructure) إلا في الحالة الثانية . وهكذا لا ينطبق لفظ البناء الفوقي على أية فكرة او مؤسسة ، بل هو يتحدد بالنسبة الى أساس المجتمع الاقتصادي . وهكذا يشمل البناء الفوقي الافكار والمؤسسات التي تعكس علاقات الانتاج السائدة فتسود هي أيضاً .

الاساس هو نظام المجتمع الاقتصادي في مرحلة معينة من غوه . اما البناء

الفوقي فهو النظرات الساسة والقانونية ، والمؤسسات الساسة والقانونية ، وغيرها
التي تتعلق بهذا النظام .

ولكل أساس البناء الفوقي الذي يتعلق به . ولهذا كان للنظام الرأسمالي بناءؤه
الفوقي ، ونظراته السياسية والقانونية وغيرها مع المؤسسات المتعلقة به ، كما كانت
للأساس الرأسمالي البناء الفوقي الخاص به ، وكذلك للأساس الاشتراكي بناءؤه الفوقي الخاص
به . حتى إذا ما تغير الأساس أو زال تغير معه البناء الفوقي أو زال ؛ وإذا تولد
أساس جديد تولد على أثره بناء فوقي يُناسبه^(١) .

ولنلاحظ ان المؤسسات السامسة ، اى الدولة ، هي جزء من البناء
الفوقي .

وذلك لأن الدولة « تتعلق » ، حسب قول ستالين ، بالنظرات السياسية
والافكار السامسة السائدة . وهي تنظم حسب المبادئ التي تعكس المصالح
الطبقية ؛ الدولة هي صورة تنظيم لسلطة الطبقة الأقوى ، تلك التي تشخص علاقات
الانتاج السائدة . فالأساس الاقتصادي هو الأولي ثم تأتي الدولة . وهكذا يتولد
التنظيم السياسي عن الافكار السياسية وهي القوة المنظمة . وليست قوى الدولة ،
في آخر الأمر ، سوى قوة الافكار التي هي بدورها انعكاس لحوية الأساس
الاقتصادي . وتكمن القوة السياسية في السند الطبقي الذي توفره الافكار السائدة
للدولة ، ويمكن تبرير هذا السند الطبقي اولا يمكن : إذ يمكن للجماهير ان تخضع
الى حد ما من التطور التاريخي ، فتكمن قوة سلطة الطبقات المستغلة في الكذب ،
حتى إذا ما ضعف هذا السند الطبقي ضعفت الدولة : واصبح استخدام القوة

(١) ستالين : « حول الماركسية في علم اللغة » . آخر مؤلفات من ١٣ - ١٤

الصريحة على يد الطبقة الحاكمة الدليل على ضعفها ونهايتها القريبة . لان الافكار التي تتسلك الجماهير هي العامل الفعال^(١) :

٢ - يتولد البناء الفوقي بواسطة الأساس

يتولد البناء الفوقي عن الأساس . ويزول معه ويكون مصيره مصيره . إذ تتولد الافكار السائدة ، في مجتمع معين ، من غودج ملكية وسائل الانتاج ، التي تسيطر فيه . ليس البناء الفوقي ، إذن ، مجرد تراكم افكار سياسية ، تشريعية ، فلسفية ، دينية ، الخ .. ذلك لأن لهذه الافكار رابطاً داخلياً : فهي تعكس نفس الأساس . وهكذا يكون الأساس والبناء الفوقي كلا عضويًا . ولهذا فإن البناء الفوقي الاقطاعي مرتبط ارتباطاً وثيقاً في جميع اجزائه بالأساس الاقطاعي . وتكون وحدة الأساس والبناء الفوقي الجدلية تحتوي المفهوم الماركسي للتكوين الاجتماعي .

وهكذا يكون البناء الفوقي كلا . وليس هذا الكل ابدياً ولكنه كل حي ، يولد مع اساسه وينمو معه ويزول اثره .

يطبع وجود الدولة ، في المجتمعات الطبقة ، جميع حياة البناء الفوقي بطابع خاص . فهو عنصرها المنظم ، فهو ، مثلاً ، الذي ينظم التعليم الطبقي .

ويزول البناء الفوقي ، ككل عضوي ، بعد زوال نظام اقتصادي معين . لا يجب إذن ان نخلط بين البناء الفوقي ، كفكرة اساسية للمادية التاريخية ، وبين اية فكرة او مؤسسة في نفسها مفصولة عن بناء فوقي معين . لأن كل فكرة ، حين تدخل في

(١) راجع بصدد دراسة عميقة للدولة كتاب لينين الكلاسيكي : الدولة والثورة . المطبوعات الاجتماعية . باريس ١٩٤٧

نطاق بناء فوقى جديد، تتحول بعق، ويصبح لها معنى جديد من الكل الذي اصبحت جزءاً منه . ونسيان ذلك يؤدي بنا إلى النزعة الشكلية (formalisme) .

نجد مثالا ذا مغزى على ذلك في المدرسة الطائفية . زالت عن مسرح التاريخ مدرسة القرون الوسطى ، في الوقت الذي زال فيه البناء الفوقى الاقطاعي ، على يد البورجوازية الثورية ، بعد زوال الأساس الاقتصادي الاقطاعي .

ومن ثم شجعت البورجوازية الفرنسية ، في القرن التاسع عشر ، المدرسة الطائفية ، خوفاً من تقدم البروليتاريا الثوري، ولأنها لم تعد تخشى عودة الاقطاعية ، وذلك كي تستخدم هذه المدرسة في اغراضها المناوئة للديمقراطية . غير انها اعادت إليها الحياة ، كعنصر من البناء الفوقى البورجوازي ، ولهذا حولتها لتجعلها ملائمة لظروف المجتمع البورجوازي^(١) .

لا يعني هذا قط ان البناء الفوقى الاقطاعي قد استمر بعد زوال اساسه ، بل ان البناء الفوقى الاقطاعي البورجوازي قد تحول باتجاه رجعي ، في زمن كانت فيه علاقات الانتاج الرأسمالية تقدمية فأصبحت رجعية . ولهذا كانت المدرسة العلمانية ، التي ورثت السنة الديمقراطية البورجوازية ، في مثل هذه الظروف ، احد العناصر التي يمكنها ان تناضل الاتجاه الجديد لهذا البناء الفوقى . وعلى البروليتاريا ان تساندها في هذا النضال^(٢) .

(١) هذا هو مغزى قانون جيزو (Gnizot) في عام ١٨٣٣ الذي ظهر بعد عصيان ١٨٣١ وقانون فلو (Falloux) عام ١٨٥٠ الذي ظهر بعد القضاء وعلى العصيان العالي في حزيران ١٨٤٨

(٢) لا يعني هذا قط ان تستكف البروليتاريا عن نقد محتوى تعليم هذه المدرسة : فهي تنقد هذا المحتوى بقدر ما يبر عن الافكار البورجوازية في الاستغلال .

وهكذا لا يبدو الترابط بين البناء الفوقي وأساسه، في عصور انقلاب طريقة الإنتاج فقط، بل خلال مختلف مراحل النمو ودرجاته في فئة اجتماعية واحدة .

توتبط الافكار « التحررية » في السياسة والديمقراطية البرلمانية البورجوازية (liberales) في النظام الرأسمالي ، بمرحلة التنافس الحر ، بينما توتبط الرجعية ، على طول الخط ، بمرحلة الاحتكار : فتعلن البورجوازية المحتكرة ضرورة « الدولة القوية » كما تعدي على شرعيتها الخاصة ، وتلقى بالحريات الديمقراطية البورجوازية جانباً .

وبلاحظ، في الميدان الثقافي ، حركة مزدوجة تتعلق جوانبها المتناقضة بمرحلي الازدهار والانحطاط في الرأسمالية . إذ نرى في المرحلة الاولى - منذ عصر النهضة حتى أواسط القرن التاسع عشر - الثقافة البرجوازية تنمو وتزداد غنى ، بواسطة تمثل نقدي لكل تراث الفكر الانساني ولا سيما الثقافة القديمة .

كما انها تصبر لانتخاذ طابع الثقافة الشاملة النهائية . ونرى في المرحلة الثانية الثقافة البورجوازية تلفظ ، شيئاً فشيئاً ، جميع العناصر التقدمية العقلانية الانسانية التي كانت تحتوي عليها ، ثم تأخذ بالتحلل سريعاً . فلا تعود تستطيع احترام ماضيها الخاص . يتلو إذن عملية التمثل النقدي عملية لفظ كل ما تمثلته (discrimination) . فتتخلى عن مطامحها في الشمول وعن تراثها الخاص . وتخرج ديدرو من بين الفلاسفة كما تخرج ميشليه من صفوف المؤرخين ، وفكتور هوجو من زمرة الشعراء « المحض » .

نخلص الى القول في هذا الصدد ، انه لا يجب ، كي نفهم بصورة صحيحة فكرة
او مؤسسة ، ان نعرض لها في ذاتها مجردة عن بنائها الفوقي الذي تنتسب اليه والذي
يعكس اساساً معيناً . وهذا ضروري ، ولا سيما ، فيما يتعلق بالدولة ، ولهذا كانت

فكرة الاشتراكية الديمقراطية المثالية عن الدولة « الوسيط » التي « تلو الطبقات »، وتجسد « الصالح العام » كذوبة . كما يصور الديمقراطيون المسيحيون الدولة على أنها تجسيد « للخير المشترك » . بينما تظل الدولة في الحقيقة – وهي ظاهرة ضرورية تاريخياً ، ظهرت مع تقسيم المجتمع الى طبقات متناحرة – في اصلها وطبيعتها دولة طبقة من الطبقات . ولهذا لا نستطيع التكلم عن « ديمقراطية » على العموم وبصورة مجردة، دون ان نتودى في النزعة الشكلية ، وهي خطأ علمي . ولهذا كان من الضروري ان نطرح هذا السؤال : ديمقراطية من اجل من ؟ من اجل الرأسمالين ام من أجل الشعب ؟

ملاحظة : الفوضوية (L'anarchisme) – التي لا تزال تؤثر بعض التأثير في الحركة العمالية الفرنسية – هي عقيدة مثالية تجعل طبيعة البناء الفوقي ومهسته وفيها هذا تجعل اصل الدولة الطبقي وعلاقتها الموضوعية مع الاساس الاقتصادي . بل هي ترى في الدولة ثمرة « اغرزة » السيطرة والقوة التي تكمن في اعماق الانسان ، بينما هي في الواقع ثمرة نضال الطبقات . ولهذا تنكر الفوضوية ، في الميدان العملي ، ضرورة عمل الطبقات السياسي والفكري لانها لا ترى أن قوة الدولة الحقيقية هي ديم الشعب لها . وهكذا تؤدي الفوضوية ، بتشجيعها عمل الفرد والاقليات ، الى المقامرة ، وتصحح اداة للتجدي .

٣ - البناء الفوقي قوة فعالة

يتولد البناء الفوقي عن الاساس . ولا يعني هذا انه يكتفي بعكس هذا الاساس ، وأنه سلبى ، محايد ، لا يسه مصير الاساس ، ومصير الطبقات ، وطابع النظام الذي يوجد فيه . بل هو ، على العكس ، لا يكاد يظهر الى الوجود حتى

يصبح قوة هائلة نشيطة، تساعد أساسها على التبلور والتوطد؛ فتتخذ جميع الاجراءات لمساعدة النظام الجديد، للقضاء على الاساس القديم، والطبقات القديمة وتصفيتها .

ولا يمكن ان يكون الامر غير ذلك . ذلك لأن البناء الفوقي يتولد عن الاساس لكي يقوم بخدمة هذا الاساس ، ومساعدته بنشاط كي يتبلور ويتوطد ، ويتناضل من أجل تصفية الاساس القديم البالي وبنائه الفوقي القديم . ويكفي ان يمنع البناء الفوقي عن ان يقوم بدور الاداة ، كما يكفي ان ينتقل من موقف الدفاع للنشيط عن أساسه ليتخذ موقف اللامبالي بازائه ، كما يتخذ موقفاً مماثلاً نحو الطبقات حتى يفقد ميزته فلا يعود بناء فوقياً^(١) .

نعلم الآن ان الافكار هي قوى نشيطة عاملة . غير ان ستالين يلح هنا على القول بأن البناء الفوقي يتولد كي يخدم أساسه ويدافع عنه . حتى إذا ما كف عن خدمة اساسه فقد صفته كبناء فوقي .

البناء الفوقي هو اداة ، وغرة مخطط ، ونشاط واع تقوم به الطبقة السائدة . لا تدع هذه الطبقة الافكار من العدم . فالافكار هي انعكاسات .

غير ان كل طبقة تستخدم ، عن قصد ، الافكار التي تفيدها .

وصفنا البناء الفوقي ككل منسجم . فما الذي يحدد انتهاء فكرة او مؤسسة الى هذا الككل ؟ فائدتها الطبقية ودورها في خدمة الاساس .

ليس هناك من صدفة في حياة البناء الفوقي ، وفي نضال الافكار ، وفي تطور المؤسسات . إذ تنظم البورجوازية بناءها الفوقي حسب مخطط . وهاك مثالا : خطاب الكونت مونتالمبير (Montalembert) من على منصة المجلس اثناء مناقشة

(١) راجع ستالين : نفس المرجع المذكور ص ١٤ - ١٥

قانون فاللو (Falloux) بعد مضي بضعة أشهر على حزيران ١٨٤٨ . قال :
« سأضيف كلمة واحدة كمتلاك يتحدث الى ملاكين بصراحة تامة ، لاننا اجتمعنا
ها هنا ، كما اعتقد ، كي يقول كل منا الحقيقة للآخر بدون تورية .

ما هي المشكلة اليوم ؟ انها مشكلة بعث احترام الملكية في نفوس الذين ليسوا
ملاكين . وانما لا أعرف إلا علاجاً^(١) لبعث هذا الاحترام ، وجعل الذين ليسوا
ملاكين يؤمنون بالملكية ، الا وهو جعلهم يعتقدون بالله ! وليس هذا الايمان بأله
مبهم كما تقول النزعة التليفقية (électisme) او أي مذهب آخر ، بل الايمان
بأله كتاب الصلوات (catéchisme) ، الآله الذي أوحى بالتوراة ، والذي يعاقب
السارقين الى الأبد . تلك هي العقيدة الشعبية حقاً التي يمكنها ان تحمي بشكل
فعال الملكية ..^(٢)»

ندرك هنا ، على الفور ، تكوين البناء الفوقي الواعي ، واضطراب البورجوازية
إلى ان تضم مؤسسة قديمة إلى بنائها الفوقي الذي يزداد رجعية .

لم تحرم الكنيسة الكاثوليكية الرق : ولذلك وجد رقيق في اوروبا في
القرن الوسيط ، في المستعمرات حتى عام ١٨٤٨ ، وفي الولايات المتحدة حتى
عام ١٨٦٤ .

ولقد علمت الكنيسة الارقاء ان يطيعوا سيدهم . واضطرت الأسياذ المحاربين ،
حقاً ، الى احترام « هدنة الله » وهددتهم بالنار الابدية . ولكنها باتخاذها هذا

(١) لاحظ هذه الكلمة التي تبرز تماماً نفس ستالين .

(٢) خطاب اتقاء في المجلس الوطني ، في كانون الثاني ١٨٥٠

الأجراء قد انتقدت، قبل كل شيء، المزروعات الضرورية لحياة المجتمع، كما حفظت الانتاج وأمنت تقتني الجماعة، واندلاع نار الثورة. وهكذا تحمي، في النهاية، الاقطاعية ضد تصرفات الاقطاعيين « المغالية »، غير ان مطران ريمس كان يناهز قائلا :

« ايها الارقاء ! اطيعوا، في كل وقت، اسبادكم . ولا تحتجوا بقسوتهم أو بجلهم . اطيعوا، ليس فقط الصالحين المعتدلين، بل الذين لا يعرفون الصلاح او الاعتدال » .

تقول نعاليم الكنيسة بلغة اولئك الذين يدفعون الرقيق الى العvisان، ولا سيما اولئك الذين يعلمونهم المقاومة الصريحة^(١) .

يضاف الى ذلك ان الكنيسة حاولت، بواسطة النشرات (Eneyclique) التي اصدرتها في نهاية القرن التاسع عشر، ان تحمي الرأسمالية من « مغالاة » الرأسمالين . كانت في الماضي تدعو الى ضرورة وجود الاسياد والارقاء في المجتمع، فأصبحت اليوم تنادي بضرورة وجود الرأسمالين والبروليتاريا .

وهكذا لا يكون وجود الكنيسة، في عهد الرأسمالية، أثراً باقياً، بل يعني ذلك ان النظام البورجوازي المستغل المضطهد يستفيد من افكار ومن مؤسسة تتعلق بتكوين اجتماعي أقدم منها كان يسوده الاستغلال والاضطهاد .

ولهذا رأينا البورجوازية، حينما شعرت بالتهديد، اعادت الدين عن قصد وتبنته، بعد أن سخرته لخدمة حاجاتها، فقوته ودعمته وجعلته جزءاً لا يتجزء من

(١) ذكره ج . بروها في . تاريخ الحركة المالية الفرنسية ، ص ٤٣ المطبوعات الاجتماعية ،

البناء الفوقي الرأسمالي. ثم اعلنت ان التعليم الديني والتعليم العلماني يتم كل منهما الآخر. إذ تنص التعليمات الرسمية عام ١٨٨٧ ، فيما يتعلق بالمدرسة الابتدائية، على ما يلي :
يتميز التعليم العلماني عن الدين دون ان يناقضة فلا يحل المدرس محل الراهب ، بل يضيف جهوده الى جهوده ليجعل من كل طفل انساناً شريفاً .

فإذا كانت البورجوازية لا تضع جميع بيوضها في نفس السلة فإنها ، مع ذلك ، تعرف كيف توفى بين كراتها !

يجب الإشارة هنا الى ملاحظة ابداهما ستالين : في الوقت الذي يستنكف فيه البناء الفوقي عن القيام بدور الاداة يفقد صفته فلا يعود بناء فوقياً * ولهذا حينما يستنكف اساتذته التعليم العام عن مقاومة اهداف البورجوازية الاستثمارية ، تطرد هذه البورجوازية المدرسين الديمقراطيين . وحين لا تعود الشرعية البورجوازية تطبق على متطلبات الاحتكارات السياسية ولا تعود اداة صالحة بين أيديها لتحقيق مصالحها ، تسعى البورجوازية الى التخلي عن الحريات الديمقراطية البورجوازية ، ولهذا كان على البوليتراري، عندئذ ، ان يحل لواء الحريات البورجوازية، وان يتقدم به، لانه يجد في الديمقراطية البورجوازية أفضل الظروف الممكنة ، في النظام الرأسمالي، لنشر ارائه السياسية في الأمة .

لا يجب إذن ان نقدر المؤسسات والافكار بصورة ميتافيزيقية، وإذا كان حقاً ان اصل هذه الافكار والمؤسسات يحدد طابعها، فإن تغير الظروف التاريخية يحول دورها : بل يجب البحث دائماً ، بصورة جدلية: في خدمة أية طبقة يمكن لهذه الافكار والمؤسسات ان تستخدم في وقت معين بسبب تغير الظروف الموضوعية .

تبدو قوة البناء الفوقي الفعالة ، ولا سيما قوة الدولة، في مرحلة الرق المق الأخير

للرأسمالية . إذ لا تعود علاقات الانتاج ، في هذه المرحلة ، تتفق وطابع قوى الانتاج . فتقوم الدولة الرأسمالية باتخاذ جميع الاجراءات المفيدة لتثبيتها والوقوف في وجه تطبيق قانون الترابط الضروري بين علاقات الانتاج وقوى الانتاج ، وللمحاولة اطالة أمد وجود الرأسمالية إلى ما لا نهاية ، تصبح الدولة البورجوازية ، تساندها الافكار المناسبة ، العثرة الرئيسية لتقدم المجتمع .

ولا يمكن إزالة هذه العثرة من الطريق إلا بنشاط القوى الجديدة الواعي .
نلم من الدرس السابق (الدرس الثاني عشر . المسألة ٣) ان هذه القوى الاجتماعية والسياسية تتكون بتحالف البروليتاريا مع الطبقات الكادحة في القرية والمدينة .
ونرى الآن ان مثل هذا النضال يهدف إلى تحطيم هذه العثرة ، وهي الدولة البورجوازية وإقامة سلطة جديدة سياسية ، هي سلطة البروليتاريا التي سيعمل دورها الفعال على
تصفية الاساس القديم ، والبناء الفوقي القديم ، ولإيجاد أساس جديد ، وبناء فوقي
جديد .

وهكذا تقوم الافكار والمؤسسات ، في بعض الظروف التاريخية ، بدور
فعال . تؤدي المادية الساذجة إلى « النظرية » الخاطئة القائلة بنمو المجتمع الآلي ،
« التلقائي » .

وهي بذلك تبور ، عملياً ، السلبية أمام العمل الذي تقوم به الدولة الرأسمالية لتמידد أجل اساسها . بينما الماركسية ، على العكس ، لا تهمل قط الدور الرئيسي الذي تقوم به مبادرة الجماهير الثورية ، والوعي الاشتراكي . كما انها لا تهمل قط النضال لتنمية النشاط السياسي ورفع مستوى الجماهير الفكري .

٤ - ليس البناء الفوقي مرتبطاً مباشرة بالانتاج

ليس البناء الفوقي مرتبطاً مباشرة بالانتاج ونشاط الانسان الانتاجي . فهو لا يرتبط بالانتاج إلا بصورة غير مباشرة بواسطة الأساس . ولهذا لا يعكس البناء الفوقي التغيرات التي تحدث على مستوى نمو قوى الانتاج بصورة مباشرة ، بل إثر تغيرات الأساس ، وبعد انعكاس تغيرات الانتاج في تغيرات الأساس . يعني ذلك ان دائرة عمل البناء الفوقي ضيقة محدودة^(١) .

نحذرنا هذه الفرضية الماركسية من جميع الذين يملون علاقات الانتاج ونضال الطبقات ، ويدعون ان « تطور التقنيات » يؤدي رأساً الى تقدم الافكار والمؤسسات .

ولقد اعتاد الفكر البورجوازي على ترديد القول بأن تقدم « المدينة الحديثة » المادي يجب ان يتبعه تقدم في الميدان الثقافي والفكري والاخلاقي . ويتبع التكنذيب المستمر ، الذي يقدمه الاستعمار ، لهذا القول ، الفرصة لشكوى المثاليين الذين ينتهزون الفرصة لمهاجمة تقدم التقنيات والعلوم .

ان ما يحدد المستوى الثقافي والفكري و « الأخلاقي » لمجتمع ما هو أساسه الاقتصادي . ولا يستطيع تقدم المعارف التقنية والعلمية ان يغير شيئاً في هذا الأمر . فهو لا ينعكس في البناء الفوقي إلا بواسطة الأساس . وكل أن قوى الانتاج تنمو في حدود علاقات الانتاج الكائنة فكذلك يقدّر التقدم التقني والعلمي حسب معايير النظرية الفكرية التي تعكس هذا الأساس ، فتقدّره كل طبقة حسب

(١) ستانين : المرجع المذكور ص ٢٨

مصلحتها الطبقية .

مر زمن أعلنت فيه البورجوازية الصناعية أن تقدم العلوم يفضي الى التقدم المادي والثقافي للانسانية؛ وهي في هذا الاعلان إنما تعبر عن امكانيات نحو الرأسمالية الصناعية في هذه الفترة. غير ان هذه الفرضية - التي كانت فرضية النزعة الموضوعية - في ذاتها خاطئة .

ليس العلم والتقدم التقني ، في عهد الرأسمالية المنحطة ، في خدمة الحاجات الاجتماعية قط ، لأنها في خدمة الربح الرأسمالي ، بل أن الافكار العلمية لا يمكنها أيضاً أن تتسرب كفاية إلى الجماهير فتعمل على رفع مستواها الثقافي ، فتسيطر الأفكار البورجوازية الرجعية على الجماهير ؛ كما يحده البناء الفوقي مستواها الثقافي ، فيظل هذا المستوى ، حماءً ، متأخراً عن تقدم المعرفة العلمية . ولهذا كانت نظرية « أ . كومت » التي تعتقد بأن تقدم المجتمع والمؤسسات يتعلق فقط بنشر المعرفة بين الجماهير ، نظرية خيالية جاءت بها البورجوازية التقدمية : ولقد دلت تطور الرأسمالية فيما بعد على هلهلتها .

تدلل الماركسية ، على عكس النزعة الموضوعية ، على ان نضال الطبقات وتغير الأساس الاقتصادي هما اللذان يتيحان للبناء الفوقي الجديد عكس التقدم التقني والعلمي . والطريق الوحيد لرفع مستوى المجتمع الثقافي والفكري والسير نحو تقدم الأفكار والمؤسسات هو نضال الطبقات والثورة الاشتراكية . إذ ليس للألة ولا للعلم ، في ذاتها ، القدرة على الانحطاط بالانسان ؛ كما أنها لا يستطيعان الارتفاع به . وهما لا يكفيان لتحديد « المدنية » . ولهذا فإن التقدم التقني في الولايات المتحدة لا يمنع من أن تكون الافكار السائدة ، في هذه البلاد ، بدلاً من أن تعبر عن درجة عالية من المدنية فلأنها تقدم كل الدلائل على البربرية الرأسمالية .

أما الاشتراكية ؛ فهي ليست « مدنية تقنية » ، ولا هي انتصار النزعة العلمية
المغالية . وما سموها الأخلاقي إلا انعكاس للأساس الاشتراكي الذي يولد نزعة
إنسانية سامية . ولا يحرم الإنساني الحق النضال الطبقي ، بل هو يشارك فيه
لأنه يعلم أن هذا النضال هو الوحيد الذي يؤدي إلى نظام اقتصادي واجتماعي يمكن
أن تطبق فيه الانتصارات الجريئة التي فاز بها العمل والذهن الإنساني.

٥ - الخلاصة

لا يمكن لمجتمع يحرق تناحر الطبقات أن يعرف حقاً الوحدة الأخلاقية والثقافية .
يمكن للطبقة السائدة ، ولأشك ، أن تفرض أفكارها ، وأن تتوصل إلى كتم
أصوات المضطهدين . وتنتعم « بالسلام » ولكنه سلام القبور الذي يضع حداً
للحرب بعد أن يكون أحد الفريقين المتحاربين قد فني وزال ! فالمجتمع الوحيد الحالي
من تناحر الطبقات هو الذي يعرف حقاً الوحدة الأخلاقية والروحية ، فهو لا ينكر
قط نضال الأفكار الضروري لتقدم المعرفة .

يوجد في مجتمع كمبرجنا نوعان فقط من الأفكار متناهران : الأفكار التي
تخدم مصالح البورجوازية ، وهي جزء لا يتجزأ من البناء الفوقي ، ومن جهة ثانية
أفكار البروليتاريا التي لا تجد التعبير العلمي عنها إلا في الماركسية .

لا يمكن أن يضاف إلى هذين الفريقين ضرب من « الأفكار المحايدة » .

غير أن هناك أفكاراً بورجوازية متأخرة عن متطلبات الاستعمار الأثيم الفكرية ،
ذلك الاستعمار ، عدو الشعب ، والأمم ، والإنسان . تلك هي الأفكار البورجوازية
العقلانية ، المعادية للفاشية ، ذات النزعة الإنسانية . حتى إذا ما تناقضت هذه

الأفكار مع متطلبات الاستعمار ، أعلنت البورجوازية الحرب عليها . فيتضح عندئذ انه على الطبقة العاملة والقوى التقدمية ، ان تحتضنها ، وان تبعث فيها القوة والنشاط ، وأن تدفع بها الى الأمام بتنمية محتواها الديمقراطي .

وهكذا ليس هذان النوعان من الأفكار جامدين ثابتين . بل أحدهما في طريق الانحطاط ، يزداد رجعية يوماً بعد يوم وهو أقل شمولاً . بينما يقوى الآخر في نضاله من أجل نزعة انسانية جديدة .

تقتبس البروليتاريا من الثقافة القومية في الماضي ، حسب مصلحتها الطبقة التي لا تنفصل من المصلحة القومية ، العناصر التقدمية التي تعكس بصدق الحياة وتكون تراثاً من الفن لا يفنى . كما تصد البورجوازية ، حسب مصلحتها الطبقة التي تعارض مصلحة الأمة ، عن التراث القومي ، وعن تراثها الديمقراطي وعن الانسان نفسه . وليس هناك ، ولا يمكن أن يكون ، نظرية فكرية محايدة ، بل هناك أفكار صنعتها البورجوازية خلال تاريخها الطويل ، والأفكار التي تنتج عن النقد العالمي للأفكار الأولى والتي تدفع بها الماركسية الى الأمام وتبنيها البروليتاريا . أما ان تستطيع هذه الفكرة أو تلك الانتقال من معسكر إلى آخر حسب تطورات نضال الطبقات التاريخي ، فإن هذا يدل على أنها ليست محايدة ، بل لها محتوى معين ، ولهذا ترفضها البورجوازية حين تتحول مصلحتها .

أما المهمة التي تقع على عاتق قوى الطبقة ، في المجتمع ، فهي إعادة تقييم كل التراث الفكري والثقافي . لأن الماركسية هي ، في الأساس ، نقد لا يترك حجر أعلى حجر في بناء الماركسية الفكري . ولهذا لا يمكن أن يكون ماركسياً حقاً من لم يمثل ، بصورة نقدية ، حضارة الماضي .

الدَّرْسُ العِشْرُونَ ٣

الاشتراكية

- ١ - التوزيع والانتاج.
- ٢ - أساس الاشتراكية الاقتصادي .
- ٣ - الشروط الموضوعية للانتقال الى الاشتراكية .
- ٤ - قانون الاشتراكية الأساسي.
- ٥ - الشروط الذاتية للانتقال الى الاشتراكية ولنموها.
- ٦ - الخلاصة.

١ - التوزيع والانتاج

ما فتىء الناس ، منذ ظهور الطبقات ، يحملون بنظام اجتماعي مثالي يحلو من استغلال الانسان للانسان ومن نضال الطبقات .

وهكذا نجد تاريخ الطبقات المضطهدة يجتاحه المطامح الشعبية ، منذ الاعتقاد بعودة العصر الذهبي . ولم يتسرب اليأس قط إلى الشعب من

مستقبل الانسانية ، فلقد قام الشعراء والمفكرون ، في جميع العصور ، بتقريب فجر العصور الحديثة والاحتفال به . كما فعل توماس كيمانيلا ، الذي كتب في نهاية القرن السادس عشر « مدينة الشمس » وأمضى سبعةً وعشرين سنة في السجن . ولقد عملت الديانة المسيحية ، خلال الفتي سنة ، على ترديد القول الى المضطهدين « ليس هذا الملكوت في هذا العالم » . ولكن هذا لم يقض على أمل جماهير الشعب بالسعادة الارضية ، ولهذا جعل بهتوفن من « سمفونيته التاسعة » نشيد العصور المقبلة .

ومع ذلك لم تخرج الافكار حول « المدينة المثالية » قبل الماركسية ، عن نطاق « الايتوبيا » الخيالية . فلقد رأى الفلاسفة الاجتماعيون ان الشر الأسامي يكن في عدم المساواة في توزيع الخيرات بين الأفراد ، لحرماتهم من معرفة القوانين الاقتصادية ؛ فدعوا إلى المساواة في توزيع الخيرات ، أو إلى الاشتراكية فيها ، غير أنهم كانوا يجهلون تحليل الانتاج ، بسبب جهلهم لقانون المجتمعات ، واطهار عملية الاستغلال الطبقي ، ولهذا نظر اليهم كفلاسفة حاملين ، واستقر في ذهن البورجوازية الصغيرة والكبيرة رأي خاطيء يقول بأن الاشتراكية والشيوعية يستحيل تحقيقها .

ولقد أدرك الاشتراكيون الخياليون ، في القرن التاسع عشر ، أنه يجب معالجة المشكلة من الطرف الآخر ، أي ليس عن طريق الاستهلاك وإنما عن طريق الانتاج ، وانه لا يمكن أن نطلب ازدياد السلع قبل أن تزيد الانتاج . وهذا ما تساعد عليه الصناعة الآلية الحديثة . غير أنهم لم يروا بوضوح ، وذلك بسبب افتقارهم إلى تحليل علمي لقوانين الانتاج والاقتصاد ، ان المسألة الفاصلة التي يجب حلها ، إذا أردنا حقاً زيادة الانتاج ، هي مسألة القضاء على ملكية وسائل الانتاج الخاصة الرأسمالية .

وليس هناك من مسألة غيرها لأن هذه الملكية هي التي تؤدي إلى جعل « زيادة الإنتاج » مصيبة اقتصادية . ولما كانوا يجهلون قوانين الرأسمالية ، فقد خيل إليهم أن الإرادة الطبية تكفي لوضع جهاز الصناعة الرأسمالية في خدمة حاجات المجتمع . ولقد رأينا أن الأمر لا يمكن أن يكون كذلك ، لأن ملكية وسائل الإنتاج الخاصة تقف في وجه ما يمكن أن تحققه الصناعة والعلم الحديثين .

ومع ذلك فقد استطاع الاشتراكيون الخياليون أن يوضحوا هذه الفكرة الثورية القائلة بأنه يجب استخدام قوى الإنتاج الهائلة التي حررها العلم والصناعة الحديثان لخدمة حاجات المجتمع المادية ، وليس لتوفير الربح لفئة صغيرة من المستغلين . وذلك « بالاستعاضة عن استغلال الانسان لآخيه الانسان باستغلال العالم على يد اناس متحدين ، والاستعاضة عن حكم الناس بإدارة الأشياء » . تلك كانت أهداف الاشتراكية حسب رأي سان سيون .

ولقد أجابت الماركسية وحدها بصورة علمية على المشاكل التي أثارها تحقيق هذه الأهداف فظهرت :

١ - أن العنصر الأساسي في علاقات الإنتاج هو ملكية وسائل الإنتاج .

٢ - أنه لا يمكن القيام بتغيير وسائل الإنتاج إذا لم نعتد على الجدلية الداخلية لنمو طريقة الإنتاج .

٣ - أن القوة الوحيدة التي يمكنها التغلب على مقاومة الطبقات التي يضرها هذا التغيير هي نضال البروليتاريا وحلفائها نضالاً طبقياً .

وهكذا نتيج لنا الماركسية تحديد :

(١) أساس الاشتراكية .

(٢) الشروط الموضوعية التي يتطلبها حدوثها .

(٣) الذاتية لبنائها بصورة علمية .

٢ - أساس الاشتراكية الاقتصادية

دلت الماركسية ، باظهارها أن العنصر الاساسي في علاقات الانتاج ، في أي مجتمع ، هو صورة ملكية وسائل الانتاج ، ان الاشتراكية لا يمكن أن تقوم على اشتراكية « الخيرات » (Liens) عامة ولا على تقسيم هذه « الخيرات » ، ولا على اشتراك رؤوس الأموال الخاصة ، ولا على تركيز الرأسمالية وتنظيمها . لان أساس الاشتراكية هو ملكية وسائل الانتاج الاجتماعية ، وهذا يعني حرمان الملاك الخصوصيين ، ولا سيما ملاك وسائل الانتاج الكبرى الحديثة التي يمكن أن تستعمل لخدمة الحاجات الاجتماعية : ولقد برهنت الماركسية انه يمكن تحقيق هذا الهدف ؛ كما أنها دلت على الطرق المؤدية اليه . والبروليتاريا هي التي تستطيع موضوعياً تحقيق هذا التحويل التاريخي لطريقة الانتاج ، لأنها الضحية المباشرة للملكية الخاصة ؛ كما أن ملكية وسائل الانتاج الاجتماعية تتفق ومصلحتها كطبقة مستغلة . ولما كان الرأسماليون ، خلال قرون طويلة ، قد استولوا على ثمرة عمل الجماهير المعمة ، فإنهم بذلك قد سلبوها ما تملك ، ولهذا تعمل الاشتراكية على استعادة ما سلبوا .

تؤدي ملكية وسائل الانتاج الاجتماعية إلى القضاء على الأجور ، وذلك لأن فائض القيمة الذي تسكن قوى الانتاج الحديثة من انتاجه ، في يوم ، بالنسبة إلى القيمة الضرورية للقيام بحاجات قوة العامل على العمل ، لا يعود الآن ، إلى الرأسمالي ، بل إلى الجماهير عامة ، ثم يوزع بين أعضائها حسب عمل كل عضو ، كما يوزع في

صورة فوائد اجتماعية متعددة . وهكذا تفقد أفكار فائض القيمة ، والأجر ،
كثمن لقوة العمل ، والربح ، والأعمال ، والعمل الضروري ، والعمل المجاني ،
معانيها .

ولهذا كتب ستالين يقول : « ان الحديث عن قوة العمل كسلعة ، وعن
« أجور » العمال عبث في نظامنا . وذلك كما لو أن الطبقة العاملة ، التي تملك وسائل
الانتاج ، تدفع الأجور لنفسها وتبيع إلى نفسها قوتها على العمل . وكذلك لا يقل
غربة الحديث عن العمل « الضروري » و « فائض العمل » كما لو أن عمل العمال الذي
يؤدونه للمجتمع ، من أجل توسيع الانتاج ، وتنمية التعليم ، والحفاظ على الصحة
العامة ، وتنظيم الدفاع القومي ، الخ : . ليس ضرورياً للطبقة العاملة ، وقد
أصبحت اليوم في الحكم ، ضرورة العمل الذي يُؤدَّى لتأمين حاجات العامل
وحاجات عائلته الشخصية^(١) .

الاشتراكية ، كما تحددها الماركسية علمياً ، هي القضاء على استغلال الانسان
لأنه الانسان ، والقضاء ، في نفس الوقت ، على طبقات المجتمع المتناحرة .
وهكذا ينتهي أيضاً تناحر الطبقات على المستوى الاقتصادي بين المستغلين
والمستغلين .

كما تؤدي ملكية وسائل الانتاج الاجتماعية إلى القضاء على كل امكانية في نشوء
الازمة الاقتصادية . وذلك لأن المضاربة بين المنتجين ، من أجل الربح ، تزول ،
ويزول معها استبداد الانتاج الرأسمالي . كما أن قانون التراكم الرأسمالي ، الذي يقوم

(١) راجع ستالين : « مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي »

آخر مؤلفات ص ١٥١ .

على أن غو قوى الانتاج الهائلة يعتمد على شقاء جماهير العمال بسبب استهلاك ثروة العمل الاجتماعية بصورة فردية ، يصبح بالياً . ينتج عن ذلك :

(١) يمكن التوفيق بين غو انتاج وسائل الانتاج وبين غو انتاج وسائل الاستهلاك حسب قواعد الانتاج التي وضعها العلم الاقتصادي الماركسي ، وهكذا يحل محل استبدال الانتاج قانون النمو الاقتصادي بصورة منسجمة .

(٢) لا يمكن أن يؤدي ازدياد الانتاج المتواصل إلى « أزمة فائض الانتاج » لأن ذلك يصحبه بالضرورة ارتفاع قوة الشراء عند جميع العمال الذين يزيدون من استهلاكهم ، إذ يأخذ كل منهم اجراً يناسب عمله . وهكذا لا يقع التنافر بين الانتاج والاستهلاك ، وما يصحبه من بطالة ، وتدمير لقوى الانتاج .

تعني الاشتراكية إذن انعدام الازمات الاقتصادية ، والقضاء على الاستعمار ، وازوال أسباب الحرب .

ولقد كتب ستالين يقول مختصراً ميزات الاشتراكية الأساسية :

تكون ملكية وسائل الانتاج الاجتماعية أساس علاقات الانتاج ، في النظام الاشتراكي الذي لم يتحقق حتى الآن إلا في الاتحاد السوفياتي ، إذ لم يعد يوجد في هذا النظام ، مستغلون ومستغلون . بل توزع المنتوجات حسب عمل كل شخص ، وحسب المبدأ القائل : « من لا يعمل لا يأكل » . اما علاقات الناس في عملية الانتاج فهي علاقات تعاون أخوي وتعاقد اشتراكي يقوم به عمال تحرروا من نير الاستغلال^(١) .

(١) راجع ستالين : المادية الجدلية والمادية التاريخية ، الفصل الثالث ، ص ٢٥

فكيف يمكن تحقيق ملكية وسائل الانتاج الاجتماعية ؟ إذ نأخذنا مثال الاتحاد السوفياتي فإننا نرى :

- (١) انتزعت ملكية وسائل الانتاج في الصناعة وأعيدت إلى الشعب بأجمعه.
- (٢) 'ضم' صغار المنتجين الفرديين ومتوسطيهم بصورة تدريجية في تعاونيات للانتاج ، أي في مؤسسات زراعية كبرى هي الكولخوزات .

(٣) ظل الانتاج التجاري (التبادل بواسطة الشراء والبيع) لفترة ، محافظة على التحالف الاقتصادي بين المدينة والقرية وبين الصناعة والزراعة ، على أنه الصورة الوحيدة المقبولة من الفلاحين للعلاقات الاقتصادية مع المدينة ، كما تمت تجارة الدولة والتجارة التعاونية الكولخوزية بالقضاء على جميع أنواع الرأسماليين في السوق التجاري^(١) .

ينبثق عن ذلك أنه يوجد في الاتحاد السوفياتي صورتان للملكية وسائل الانتاج الاجتماعية :

ترتدي الملكية الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي إما صورة ملكية الدولة ، وإما صورة ملكية تعاونية كولخوزية (وهي ملكية كل كولخوز ، وملكيتها الاتحادات التعاونية) . (المادة ٥ من دستور الاتحاد السوفياتي) .

فالأرض ، وباطن الأرض ، والغابات ، والمصانع ، والبنابر ، ومناجم الفحم والحديد ، وطرق السكك الحديدية ، ووسائل النقل المائية والجوية ، والمصارف ، والبرق والبريد ، والمنشآت الكبرى الزراعية التي تنظمها الدولة (كالكولخوز ،

(١) راجع ستالين : « مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي » .

ومحطات الآلات والتراكتورات ، الخ .) وكذلك المنشآت البلدية ، وبيوت
السكن في المدن والمناطق الصناعية كل هذا ملك للدولة ، أي هو ملك الشعب بأجمعه
(المادة ٦) .

والمؤسسات المشتركة في الكولخوز وفي التنظيمات التعاونية وما تملك من
حيوان (cheptel) حياً أو ميتاً ، وكذلك انتاج الكولخوز والتنظيمات التعاونية
ومبانيها المشتركة تكون ملكية مشتركة اشتراكية للكولخوزات والتنظيمات
التعاونية (المادة ٧) .

وهكذا نجد أن التعاونيات الزراعية ، في (الاتحاد السوفياتي) تعمل في أرض
أعطيت لها ، وهي تتمتع بحירותها مجاناً الى الأبد ، وهي ملك للشعب بأجمعه . كما ان
الدولة تمد هذه التعاونيات بالتراكتورات والآلات الأخرى التي هي ملك للدولة ،
أما ما يملكه الكولخوز ، عدا مؤسساته وابنيته ، فهو ثمرة الانتاج الكولخوزي
الذي هو مصدر دخله .

لكل عائلة كولخوزية ، عدا دخل الاقتصاد الكولخوزي المشترك الأساسي ،
الحق بالتمتع بقطعة أرض صغيرة تملك عليها اقتصاداً خاصاً بها كبيت السكن
والاغنام المنتجة والطيور ووسائل الزراعة البسيطة .

يسمح القانون ، إذن ، باقتصادات صغيرة للفلاحين والصناع اليدويين ويمنع
استغلال عمل الآخرين .

أما فيما يتعلق بوسائل الاستهلاك فلهذا المواطنين الحق بالملكية الشخصية لما كسبوه
واذخروه بعملهم ، وملكية بيت سكنهم واقتصادهم العائلي المساعد ، واغراض
البيت للاستعمال اليومي ، أو الاستعمال الشخصي (كالسيارة مثلاً) ، كما لهم الحق في
وراثة الملكية الشخصية .

محتوي المجتمع الاشتراكي ، إذن ، على طبقتين : طبقة العمال^(١) ، وطبقة الفلاحين العمال الكولخوزيين ؛ وهؤلاء لا يوجد بينهم أي تعارض لأن مصالحهم واحدة .

ويوجد أيضاً طبقة اجتماعية من رجال الفكر وهم رجال التقنية والمهندسون ، ورجال التنظيم الاقتصادي ، والعمال المفكرون ، ورجال التعليم والفنانون ، والكتاب . وهم يمتازون بميزة لا يعرفها المجتمع البورجوازي وهي انهم ينتمون لجميع أصناف العمال . وقد لاحظ ستالين عام ١٩٣٦ ، ان تكوين رجال الفكر قد تغير عما كان عليه في النظام القديم ، وأن ٨٠٪ - ٩٠٪ منهم ينتمون لطبقة العمال والفلاحين الكادحة . ويقوم هؤلاء المفكرون بخدمة الشعب بأجمعه وليس بخدمة الطبقة المختارة .

ولهذا كان طابع التكوين الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي الأسامي هو أنه ، بفضل القضاء على الاستغلال ، أصبحت الفئات الاجتماعية المختلفة متحالفة متحابّة تعمل لبناء مجتمع لا يعرف الطبقات ، وجميعهم من العمال .

وتوطد هذا الحلف في النضال : مثال ذلك أن العمال ساعدوا الفلاحين في نضالهم ضد طبقة الفلاحين الملاكين المستغلين (الكولاك) ؛ فأرسلوا اليهم الآلات ، بينما قام الفلاحون العمال بتأمين تموين مراكز العمال الذين اراد الكولاك تجويعهم . وكذلك تغيرت العلاقات بين رجال الفكر والعمال في الانتاج .

ولم يعد الآن العمال اليدويون ورجال الادارة اعداء بل أصبحوا رفاقاً وأصدقاء واعضاء في جماعة واحدة من المنتجين الذين همهم جداً تقدم الانتاج وتحسينه . ولم يبق شيء

(١) ان زوال الاستغلال ينعنا من استعمال كلمة « البروليناريا » .

من العداء القديم^(١) .

ومع زوال استغلال الانسان لأخيه الانسان زال أيضاً التنافر بين القرية والمدينة - تلك القرية التي خرجها بورجوازيو المدينة الرأسماليون واستولوا عليها . وكان هذا التنافر سبب عداء الفلاحين لأهل المدن واحتقار أهل المدن للفلاحين ، كما زال التنافر بين العمال اليدويين وبين العمال المفكرين ، صنائع البورجوازية المستغلة - وكان هذا التنافر سبب كره العمال اليدويين للعمال المفكرين واحتقار هؤلاء لأولئك .

يضاف الى ذلك أن الانتاج ، في المجتمع الاشتراكي ، يشرف عليه العمال ومنظمتهم ، اشرافاً ديمقراطياً، وهكذا نجد عمل المدير (الذي تسميه الدولة) يخضع لنقد جميع العمال . وكذلك 'تنتخب' الادارة ، في الكولخوزات التي يشرف عليها جمعية أعضاء الكولخوزات ، بصورة ديمقراطية .

وأخيراً زال، بزوال استغلال الانسان لأخيه الانسان، استعباد المرأة، ووضعت أسس المساواة بين الرجل والمرأة .

كما توفرت ، بفضل الاشتراكية في وسائل الانتاج وزوال استغلال الانسان لأخيه الانسان ، الظروف المواتية ، لظهور ، قانون اقتصادي أسامي جديد خاص بعلاقات الانتاج الاشتراكية غير المتناحرة ، ويعكس هذا القانون عملية نمو الاقتصاد الاشتراكي ، كما يعكس هدف اقتصاد لا يعرف الاستغلال والازمات ووسائله - ولن يكون لمثل هذا الاقتصاد سوى تأمين ارضاء حاجات الجماهير المادية

(١) راجع ستالين : مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي ، آخر مؤلفات ص ١١٧ .

والثقافية إلى أقصى حد. ولنشر، قبل دراسة هذا القانون الخاص بالاشتراكية، إلى ان الانتقال الى الاشتراكية يتطلب شروطاً موضوعية معينة تطابق قانون المجتمعات الأسامي وهو قانون الترابط بين علاقات الانتاج وطابع قوى الانتاج .

٣ - الشروط الموضوعية للانتقال الى الاشتراكية

تحدد الاشتراكية ، بتحديد لها للاشتراكية بصورة علمية ، الشروط المواتية لظهور المجتمع الاشتراكي وبنائه . ولا يمكن تغير طريقة الانتاج إلا في ظروف موضوعية معينة . فما هو أساس تغير علاقات الانتاج ؟ الأساس هو الخلاف بين هذه العلاقات وبين طابع قوى الانتاج ، وقد حدث هذا الخلاف في وقت معين .

ليس هدف الثورة الاشتراكية ، إذن ، هدفاً ذاتياً . فهي لا تصدر عن الحسد والطمع كما تذيع البورجوازية التي تنسب هذه العيوب للطبقة العاملة - كما أنها لا تصدر عن طموح بعض المشاغبين الذين قرروا القيام بهذه الكارثة ذات مساء ! لان مهمة الثورة الاشتراكية هي ايجاد الشروط المواتية لنمو قوى الانتاج غواً غير محدود ، وذلك بإزالة العقبة الوحيدة التي تعترض ذلك الا وهي علاقات الانتاج الرأسمالية ، في الوقت الذي أصبح فيه هذا ممكناً ؛ وذلك لأن الرأسمالية هي التي هيأت الأساس الموضوعي للثورة الاشتراكية ، بتنميتها لقوى الانتاج حتى الحد الذي فاقت فيه الرأسمالية نفسها . فالقضاء الثوري على الملكية الفردية لوسائل الانتاج الجديدة والاستغلال الرأسمالي يسمح بإقامة الترابط بين علاقات الانتاج الجديدة وبين طابع قوى الانتاج ، في الوقت الذي أصبح فيه ذلك ممكناً وضرورياً

إذن تستحيل الاشتراكية بدون شروط موضوعية مرتبطة بمرحلة تاريخية

معينة، ففي بلد، لم تتم فيه الصناعة غواً كبيراً كالصين، مثلاً، لا تستطيع البروليتاريا، وقد أصبحت في الحكم، ان تفكر باقامة الاشتراكية قبل ايجاد الاسس التي تقوم عليها، أي ايجاد صناعة قومية كبرى، ولهذا تظل طريقة الانتاج الرأسمالية، لفترة معينة، جانباً من الاقتصاد.

يعني هذا انه ليس بمقدور أي شخص أن يزيل قوانين الاقتصاد؛ إذ لا تنفع ارادة الناس، الذين تقودهم مصالحهم الطبقية، إلا إذا اعتمدت على القوانين الموضوعية. ولهذا كانت « النزعة الارادية » فلسفة خاطئة لأنها تعتقد بأن ارادة الانسان، التي تعمل خارج نطاق معرفة قوانين الطبيعة والاقتصاد، مطلقة.

ويذكر ستالين، في حديثه عن بناء الاشتراكية، ان هذا الامر كان صعباً معقداً، بالنسبة لسلطة السوفييات، ولكنهم مع ذلك قاموا به خير القيام.

وليس ذلك لانهم ازالوا القوانين الاقتصادية الموجودة و« كوتّوا » قوانين جديدة، بل لانهم اعتمدوا على قانون اقتصادي، هو قانون الترابط الضروري بين علاقات الانتاج وبين طابع قوى الانتاج، وإلا لما استطاع السوفييات تحقيق هذه المهمة بدون هذا القانون والاعتماد عليه^(١).

ثم يشير، فيما بعد، إلى ان المصلحة الطبقية هي التي كانت تشرف على استخدام هذا القانون.

استخدمت الطبقة العاملة قانون الترابط الضروري بين علاقات الانتاج وبين طابع قوى الانتاج فقلبت أوضاع علاقات الانتاج البورجوازية؛ وأوجدت

(١) راجع ستالين: « مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي » في مؤلفات

علاقات انتاج جديدة ، اشتراكية ، وعملت على التوفيق بينها وبين طابع قوى الانتاج . ولم تستطع القيام بهذا ، بفضل مواهبها الخاصة ، بل لان ذلك كان مهاجداً ، بالنسبة اليها^(١).

٤ - قَانُونُ الْاِشْتِرَاكِىَّةِ الْاِسْمَايِ

لا تستطيع الثورة الاشتراكية ، مع ذلك ، الاكتفاء باستخدام قوى الانتاج التي تركتها الرأسمالية استخداماً حقاً . إذ يجب أن تقدر أنه مهما كانت قوى الانتاج التي يمتها الرأسمالية ، فهي لا تكفي لسد حاجات المجتمع الاشتراكي ، وذلك لان الرأسمالية ، في مرحلتها النهائية ، مهما كانت متقدمة تقنياً ، تهدم قوى الانتاج ، كما أن غو قوى الانتاج في النظام الرأسمالي إستبدادي تماماً ؛ واخيراً فإن استهلاك جماهير الشعب ضعيف جداً في النظام الرأسمالي ، فلا تستطيع سوى طائفة ضئيلة من المستغلين التمتع برغد العيش ، وهكذا لا يمكن المقارنة بين كمية المنتوجات التي يستهلكها المجتمع الرأسمالي وبين حاجات الجماهير الحقيقية التي يسمى المجتمع الاشتراكي لسدها الى أقصى حد ، وذلك لان الاشتراكية ليست تعميم البؤس بل هي تعميم الرخاء .

لا اشتراكية ، إذن ، بدون زيادة الانتاج بصورة هائلة لا يمكن تخيلها في النظام الرأسمالي ، وهذه ضرورة موضوعية ، بيد أنه كي نستطيع انتاج سلع للاستهلاك ، بكميات كبيرة ، وزيادة حجمها باستمرار ، لا بد من البدء بانتاج

(١) راجع ستالين: نفس المرجع ، ٢٠ من ٢٣

وسائل الانتاج بكميات كافية . والعمل علي تبديلها وازديادها ، ولهذا وجب أن يبدأ ارتفاع الانتاج بازياد انتاج وسائل الانتاج . وهذا يعني ان احد شروط الاشتراكية الموضوعية هو ايجاد صناعة ثقيلة قوية تستطيع ، مثلاً ، ان تمد الزراعة بكميات كبيرة من التركتورات . وغو هذه الصناعة . إذ ليس ازدهار قوى الانتاج القوي ظاهرة امكنت بزوال الملكية الخاصة فقط ، بل هي أيضاً ، كما رأينا ، ضرورة موضوعية تتطلبها قوى الانتاج الاشتراكية الجديدة .

يعني هذا ان علاقات الانتاج الجديدة قد أصبحت القوة الرئيسية التي تعمل على تنشيط غو قوى الانتاج الى أقصى حد . وكانت قوى الانتاج ، تتطلب ، قبل الثورة الاشتراكية ، تغيير علاقات الانتاج ، فأصبحت علاقات الانتاج الجديدة تتطلب ، بعد الثورة الاشتراكية ، غو قوى الانتاج :

غير أن غو قوى الانتاج لا يمكن أن ينحصر في زيادة معدات الطبقة العاملة أو زيادة كميات الانتاج وآلاته . لأن ازدياد حاجات السكان ، الذين لا يكفون عن التضخم ، يتطلب ارتفاع انتاجية العمل ، بيد أن هذه الانتاجية تتعاضد مع أهداف الاشتراكية إذا كانت نتيجة لارهاق العامل ، « فيعمل كالعبد » كما ملح الى ذلك ليون بلوم . ولا يمكن زيادة انتاجية العمل وتخفيض وقت العمل وتعب العمال إلا بتقدم آلات الانتاج نوعياً ، وذلك باستخدام تقنيه الطبيعة ، واستعمال الآلة في الاعمال الشاقة ، الخ .. ومن ثمّ تعمل الاشتراكية ، نتيجة لهذه القوانين الموضوعية ، على تنمية العلم لا محالة ، من علم الآلة (mécanique) حتى علم المحاصيل (agronomie) بمقادير لم تعرفها البلاد الرأسمالية ، وكذلك تتطلب الاشتراكية ارتفاع صفة العامل بحيث يتسرب الفكر ، شيئاً فشيئاً ، الى العمل اليدوي في اتصاله بتقنيه علياً .

تلك هي العناصر الضرورية لنمو المجتمع الاشتراكي . وينتج عن ذلك وجود

قانون اقتصادي أساسي للاشتراكية ، وهو قانون موضوعي مستقل عن ارادة الناس .

يمكن صياغة صفات القانون الاقتصادي الأساسي للاشتراكية ومتطلباته بما يلي تقريباً .

تأمين سد حاجات المجتمع المادية والثقافية ، المتزايدة باستمرار ، الى أقصى حد ، وذلك بتنمية الانتاج الاشتراكي ، وتحسينه باستمرار على أساس تقنية عليا .

ولهذا ، فبدلاً من تأمين أقصى الارباح ، نؤمن سد حاجات المجتمع المادية والثقافية الى أقصى حد؛ وبدلاً من تنمية الانتاج مع فترات توقف — من الازدهار الى الأزمة ومن الأزمة الى الازدهار — نؤيد ، بدون توقف ، الانتاج ؛ وبدلاً من توقف التقدم التقني في فترات معينة ، مع ما يصحب ذلك من تخريب قوى المجتمع الانتاجية ، يستمر تحسين الانتاج على أساس تقنية عليا^(١) .

من المهم ان ندرك جيداً ان التقدم الرائع في الصناعة والزراعة ، الذي نشهده في المجتمع الاشتراكي ، ليس هدفاً في ذاته ، فالتقدم التقني هو أساس نمو الانتاج ؛ كما أن هذا النمو مرتبط بضرورة موضوعية أساسية في الاشتراكية ، ألا وهي سد حاجات جميع أفراد المجتمع المتزايدة باستمرار الى أقصى حد . وهذه ضرورة موضوعية ، لأن زوال استغلال الانسان لاختيه الانسان يعني ان العمال يعملون من أجل أنفسهم . فهدف الانتاج إذن ، بالضرورة ، هو سد حاجات المجتمع الى أقصى حد ،

(١) راجع ستالين : « مناقل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي » آخر مؤلفات ص ١٣٠ .

وذلك في أفضل ظروف العمل . فما هي هذه الحاجات ؟ الحاجات المادية ،
والحاجات الثقافية . هدف الانتاج الاشتراكي ، إذن ، هو « الانسان وسد جميع
حاجاته »^(١) . وهكذا ليست الاشتراكية « مدينة تقنية » تتلف للقيام بأعمال
مادية رائعة ، دون أن تعباً بالانسان ، كما يدعي المفكرون البورجوازيون . ذلك
لان الانسان في تمام تفتحته هو مركز الاشتراكية ، وليس لجميع الاعمال المادية من
هدف سوى سد حاجاته على أفضل وجه : كحاجته الى المعرفة والثقافة ، وحاجته
الى العيش الكريم ، أي العناصر المختلفة لحياة سعيدة . فالاشتراكية هي تحقيق
النزعة الانسانية .

٥ - الشروط الذاتية للانتقال الى الاشتراكية ولتموها

لا نجعلنا الماركسية نعرف علمياً فقط الشروط الموضوعية الاشتراكية ونموها
بل هي تعرفنا أيضاً على الشروط الذاتية التي تتعلق بتأثير الناس في التاريخ
تأثيراً واعياً .

فنحن نعلم أن الطبقة الرأسمالية تعترض بكل الوسائل فعل قانون الترابط
الضروري ، وانها تحاول انقاذ طريقتها في الانتاج بفضل عمل الدولة ، وانه لا يمكن
ازالة هذا السد ، الذي تقيمه أمام التقدم ، إلا بعمل البروليتاريا الواعي وحلفائها الذين
يؤلفون القوة الاجتماعية الضرورية للتغلب على مقاومة الرأسماليين (راجع الدرس
التاسع عشر ، المسألة ٣) .

(١) م . توريز : نحية الى المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي .

أول شرط ذاتي لبناء الاشتراكية هو أن تكون البروليتاريا لنفسها حزباً ثورياً حقاً بعد أن اتحدت مصالحها مع مصلحة الأمة .

فإلام يجب أن يؤدي هذا العمل الجماهيري الثوري ؟ الى تخطيم الحاجز الوحيد الذي يجتبيء وراءه الرأسماليون ، الذين حكم عليهم التاريخ بالموت ، الا وهو الدولة البورجوازية ، وتنظيم سلطة جديدة للدولة تستطيع القضاء على ملكية وسائل الانتاج الخاصة . هذه السلطة الجديدة للدولة هي ديكتاتورية البروليتاريا .

وديكتاتورية البروليتاريا هي الوسيلة التي لا يتم تغيير علاقات الانتاج بدونها . فكل منا يدرك أنه يستعمل أن تقوم نقابات العمال فجأة بالاستيلاء على ممتلكات الرأسماليين ، وتنظيم الانتاج الاشتراكي ، انتاج العمال الذين اتحدوا في المنظمات وتقاسموا ثمره عليهم ! لانها لو فعلت ذلك لاختطأت . في تقدير عمل الدولة البورجوازية السياسي العنيف ، حامية الرأسمالية^(١) :

ولقد عبر ماركس عن مهمة ديكتاتورية البروليتاريا الأساسية بوضوح فقال :

تستخدم البروليتاريا تفوقها السياسي لتنتزع ، شيئاً فشيئاً ، كل الرأسمال من البورجوازية ، ولجعل جميع وسائل الانتاج بين يدي الدولة ، أي بين يدي البروليتاريا ، وقد تنظمت في طبقة مهيمنة ، وزيادة كمية قوى الانتاج بأسرع ما يمكن^(٢) .

(١) يضاف الى ذلك انه لما كانت قوى الانتاج الرأسمالية قد بلغت هذا المستوى من التقدم فان ملكية وسائل الانتاج الاجتماعية يجب ان تتحقق ضمن النطاق القومي ، أي على يد سلطة الطبقة العاملة السياسية القومية لانها الوحيدة التي تستطيع تحقيق ذلك .

(٢) ماركس وانجلز : بيان الحزب الشيوعي ، ص ٤٨ .

والمرحلة التاريخية التي تقوم فيها دكتاتورية البروليتاريا هي مرحلة يبلغ فيها النضال الطبقي أقصاه . إذ يستمر النضال ضد بقايا الطبقات الزائلة وضد محاولات البورجوازية لإعادة الرأسمالية بعد مضي زمن طويل على قضاء الاشتراكية على التناقضات الاقتصادية ، حتى تنتصر الشيوعية في معظم أجزاء الكرة الأرضية .

ولست دكتاتورية البروليتاريا غاية نضال الطبقات ، بل هي استمرار له في صور جديدة . لأن دكتاتورية البروليتاريا هي نضال البروليتاريا المنتصرة الطبقي بعد أن استولت على الحكم السياسي ، ضد البورجوازية المغلوبة على أمرها وان لم تفن وتختف ولم تكف عن المقاومة بل زادت من هذه المقاومة^(١) .

وقد كتب لينين يقول :

من يعترف فقط بنضال الطبقات لم يصبح بعد ماركسيا ، إذ يمكن أن يكون لم يخرج بعد من نطاق التفكير البورجوازي والسياسة البورجوازية . ولهذا فان قصر الماركسية على عقيدة نضال الطبقات تشويه لها وجعلها مقبولة من البورجوازية ، والماركسي هو الذي يعترف بنضال الطبقات كما يعترف بدكتاتورية البروليتاريا^(٢) .

كما كتب يقول :

ان السبب الأساسي لعدم فهم الاشتراكيين لدكتاتورية البروليتاريا هو أنهم يذهبون حتى النهاية مع فكرة النضال الطبقي^(٣) .

(١) لينين : ذكره ستالين : مسائل اللينية ، ج ٢ ، ص ٢٢٤

(٢) لينين الدولة والثورة ، ص ٣٥ .

(٣) لينين : « حول دكتاتورية البروليتاريا » ، في « الدولة والثورة » ص ١٤٥

دكتاتورية البروليتاريا هي سيطرة طبقية . سيطرة على من ؟ على الرأسمالين . ومختلف فئات المستغلين ، والمهرين والمقامين الذين يعيشون على فساد الرأسمالية ويدعمون سلطتها كدولة .

وهكذا تكونْ دكتاتورية البروليتاريا سلطة دولة من نوع جديد تماماً . فلقد كانت جميع السلطات السياسية التي عرفها التاريخ سابقاً تمثل سيطرة طبقات مستغلة وسيطرة الاقلية على الاكثرية . أما دكتاتورية البروليتاريا فهي تمثل ، لأول مرة ، سيطرة المستغلين على المستغلين . ولهذا تحظى بعطف سائر الطبقات الاجتماعية الكادحة ، المستغلة ، المضطهدة ، وتأييدها . فهي إذن تمثل سيطرة الاكثرية على الاقلية ، وحكم العمال .

ولا يمكن لهذه السيطرة ان تقوم وتستمر وتتوطد الا بفضل عمل الجماهير الكادحة الواعي المنظم ، وبفضل نشاطها السيامي ومبادرتها المبدعة .

ولا تشعر هذه السيطرة بالقلق والحيرة بصدد « الشرعية » البورجوازية التي هي التعلل الفكرية للعهد السيامي والنظام الاقتصادي الذين يجب القضاء عليها وازالتها . ولهذا توجد الجماهير المتحركة شرعية جديدة تتفق ومصالح الأمة فتنمو بذلك الحريات الديمقراطية بشكل واسع .

ولا يمكن لهذه السيطرة أن تستخدم آلة الدولة البيروقراطية البورجوازية التي اقيمت بكل تفاصيلها لاضهاد الاكثرية . ولهذا تحطم الجماهير المتحركة النزعة البيروقراطية التي فرضت عليها من عل وتقيم مكانها ادارة من نوع جديد تشرف عليها بنفسها وتعمل تحت انظار الشعب .

ليست دكتاتورية البروليتاريا وسيلة فقط للسيطرة ، بل هي أيضاً وسيلة للتحالف بين البروليتاريا والفلاحين العمال والطبقات الوسطى . فهي ضرورية

لتوجيه حلفائها في الطريق الذي يتفق والمصلحة القومية . ولما كانت دكتاتورية البروليتاريا هي سيطرة الاكثوية على الأقلية، فهي الديمقراطية بالنسبة للعالم والجمهير، لانها نهاية النير السيامي الذي تفرضه البورجوازية على الجماهير ، ولهذا فإن دكتاتورية البروليتاريا هي تحرير سيامي يقوم على الضغط السياسي للقضاء على الاغيب البورجوازية. وهكذا يتمتع الشعب ، لأول مرة ، بديمقراطية هي ديمقراطيته ، وتقبل ملايين الناس ، لأول مرة ، على حياة انسانية ، يرفع الفلاحون ، في الصين ، مثلا ، رؤوسهم ، في أقصى الدساكر ، بعد أن كانوا يعاملون كالبهائم ، ويشعرون بأنهم مواطنون ، وأنهم مسؤولون عن الممتلكات العامة . ذلك هو فضل دكتاتورية البروليتاريا العيم . فهي تهب حياة واعية نشيطة لهذه الجماهير الشعبية التي سدت في وجهها جميع السُّبُل ، ولما كانت دكتاتورية البروليتاريا ، لأول مرة ، ديمقراطية من أجل الشعب، فهي بذلك أسمى صورة للديمقراطية ، وهي تمثل مرحلة انتقال ، انتقال من الديمقراطية البورجوازية ، ودكتاتورية رأس المال ، الى ديمقراطية بروليتارية أو شعبية ، من ديمقراطية المضطهدين الى ديمقراطية الطبقات المضطهدة. وأصبحت الدولة، التي كانت حتى ذلك الحين القوة المختصة لاضهاد الاكثوية ، التعبير عن قوة أغلبية الشعب العامة ، وقوة العمال والفلاحين حلفائهم ضد المضطهدين .

إذ لا يمكن أن تتوفر «الحريات» الحقه للمستغلين ومشاركة البروليتاريين والفلاحين في ادارة البلاد مشاركة حقيقية ، الا في ظل دكتاتورية البروليتاريا^(١) .

ولما كانت الدولة ، التي تقوم بوظيفة دكتاتورية البروليتاريا، لا تعتمد فقط على

(١) راجع صتاين : حول مباديء الفلسفة البنينية ص ٣٧ .

قوة خاصة للضغط ، بل على قوة غالبية الشعب العامة ، فقد تغير بهذا طابعها . فهي دولة من نوع جديد . ولهذا فإن تقوية هذه الدولة المستمر ، الذي لا مفر منه طالما ان البورجوازية 'تقهر ولم يُقبض عليها كطبقة في العالم اجمع ، يعني ، قبل كل شيء ، تقوية نشاط الشعب السياسي الواعي . أما « تقوية » الدول البورجوازية ، فهي ، على العكس ، لا تعنى سوى زيادة قوتها البوليسية ، ومحاولة كتم نشاط الشعب السياسي . وهكذا نرى أن تقوية دكتاتورية البروليتاريا هي نقيض «تقوية» دول الطبقات المستغلة ؛ ولهذا كانت تقوية دكتاتورية البروليتارية هي ، في نفس الوقت ، اضمحلال حقيقي لمعالم « الدولة » التقليدية ، لأن مملكة الشرطة الشعبية ، وعلاقتها مع جماهير الشعب ، لا تقارن بمسلك وعلاقات شرطة الدولة البورجوازية إذا كان لنا أن نتحدث ، في هذه الحالة الأخيرة ، عن علاقات مع جماهير الشعب كما لا يشبه مسلك جيش شعبي مسلك جيش استعماري : ولقد لاحظ ذلك العالم بأجمعه عند تحرير الصين . ولا توضع سياسة الدولة الجديدة في أوساط « المختصين » الضيقة المغلقة . بل هي تتكون وسط جماهير الشعب وطليعتها : فيظل النائب الكوخوزي عاملا في كوخوزه .

وتتنوع الصور التاريخية التي تتخذها ممارسة دكتاتورية البروليتاريا . وكانت أول صورة هي صورة كومون باريس (La Commune de Paris) . والديمقراطية الشعبية صورة أخرى لها . وأما الصورة التقليدية فهي سلطة السوفيات .

ظهرت سوفيات (أو مجالس) نواب العمال ، في روسيا ، أثناء ثورة ١٩٠٥ . ولقد أوجدت جماهير الشعب المتحركة هذه الصورة للسلطة السياسية ، جعلت ثورة تشرين الاول سنة ١٩١٧ « كل السلطة للسوفيات » . والسوفيات هي أوسع منظمة شعبية للبروليتاريا وجميع المستغلين ، وهي المنظمة المباشرة للجماهير

الشعب نفسها ، فهي تقرر ، وتتخذ ، وتراقب بنفسها تنفيذ قراراتها . وهي تملك ، على عكس المجالس النيابية البورجوازية (القومية والمحلية) كل السلطة التنفيذية والتشريعية ، فهي منظمات سلطة الدولة ، المحلية والمركزية ، ولما كانت اكثر انواع الديمقراطية تقدماً في العالم فإنه يمكن للناخبين تنحية أعضائها في كل لحظة . ولقد كرس دستور ستالين ، وهو انعكاس للأساس الاقتصادي الجديد ، هذا الوضع ، بقوله :

تقتضي كل السلطة في الاتحاد السوفياتي الى عمال المدينة أو القرية ، وذلك في شخص سوفيات نواب العمال (المادة ٣) .

ولهذا فليس في الاتحاد السوفياتي شخص يُسمح له بالخروج على القانون . وان كان هذا لا يسر المفكرين البورجوازيين الذين يجعلون من الاشتراكية مثيلاً للفاشية . ذلك لأن الدكتاتورية الفاشية ، التي اقامتها اكثر عناصر رأس المال الكبير رجعية ، لا سلاح بين يديها سوى سلاح الاضطهاد والارهاب ؛ فهي تدوس بأرجلها الشرعية البورجوازية نفسها . بينما تستمد الديمقراطية الاشتراكية ، على العكس ، قوتها من تأييد العمال ؛ فهي لا توجد إذن إلا إذا ضمنت لهم ممارسة حقوقهم الخاصة والعامة . وعلى الحكومة السوفياتية ، كأبي مواطن ، أن تحترم الدستور وان تلتزم بنصوص القوانين . وهي لا يمكنها أن تتصرف بصورة أخرى دون أن تفقد كل سلطتها :

وهكذا يكون مثل روسو الأعلى - الديمقراطية كتعبير عن الارادة العامة - قد تحقق تماماً بواسطة دكتاتورية البروليتاريا ، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بالغاء تعارض الطبقات الاقتصادي .

مهمة الدولة السوفياتية ، التي تعتمد على نشاط جماهير الشعب الواعي ، ضخمة في بناء الاشتراكية . والسلطة الجديدة شرط ذاتي ضروري لظهور علاقات انتاج جديدة ، وذلك لأن سلطة البوليتاريا لها ميزة خاصة بها، وهي أنها تسبق ، تاريخياً أساسها الاقتصادي، ولهذا كان عليها أن توجد أساسها الخاص بها . بينما كان على السلطة البورجوازية ، على العكس ، أثناء الثورة البورجوازية ، ان توفق بين سيطرة البورجوازية السياسية والاقتصاد البورجوازي الموجود سابقاً . يضاف الى ذلك انه كان على الثورات السابقة على الثورة البوليتارية ان تحل صورة من الاستغلال (البورجوازي) محل صورة أخرى من الاستغلال (القطاعي) ؟ بينما تقضي الثورة البوليتارية على كل استغلال ، وهذا يزيد في أهمية الدولة .

حتى إذا ما وجد الأساس الاقتصادي الاشتراكي ، كانت الدولة السوفياتية انعكاساً لأساسها الاقتصادي ، وامكن التعبير عن حقيقة الوقائع في صورة جديدة ألا وهي الدستور الستاليني لعام ١٩٣٦ .

ويمتاز الدستور السوفياتي بميزة خاصة به وهي أنه بدلا من اعلان حقوق مجردة مرجئاً الى ما بعد ايجاد الظروف المادية التي تسمح بممارسة هذه الحقوق - كما تفعل الدساتير البورجوازية - فقد كرس وجود حقوق واقعية وجدت أساسها المادية ، مثال :

للمواطنين في الاتحاد السوفياتي حق العمل ، أي حق الفوز بعمل مضبوط مأجور حسب كميته ونوعه .

وحق العمل مضمون بتنظيم الاقتصاد القومي الاشتراكي ، وغو قوى الانتاج المستمر في المجتمع السوفياتي، وإزالة امكانية الأزمات الاقتصادية والقضاء على البطالة . (المادة ١١٨) .

فهل يعني هذا ان الدولة السوفياتية تكفي بمكس أساسها الاقتصادي بصورة سلبية ؟ كلا ! فهي لا تكف ، في أي وقت ، عن ان تكون قوة فعالة تسرع في تنمية الاقتصاد الاشتراكي وتخطيطه بصورة مناسبة ، معتمدة في ذلك على معرفتها بقوانين الاقتصاد الموضوعية .

هناك شيان ضروريان للدولة السوفياتية للقيام بمهمتها وهما :

(١) معرفة قوانين الطبيعة والمجتمع ، أي العلم .

(٢) تأييد الجماهير الواعي بعد أن تمثلت الافكار الجديدة . فيزداد من جراء ذلك الدور الضخم الذي تقوم به الاشتراكية العلمية أثناء قيام سلطة البروليتاريا السياسية . ولهذا فإن النضال الواعي ضد الأفكار البروجوازية ، ونشر الماركسية اللينينية بين جماهير الشعب ، وإيجاد ثقافة جديدة ، قومية في صورتها ، اشتراكية في محتواها ، كل ذلك شروط ذاتية ضرورية لبناء الاشتراكية .

كلما تقدم بناء الاشتراكية كلما ازداد الدور التربوي والثقافي الذي تقوم به الدولة السوفياتية ، وهي دولة من نوع جديد . ولا يعني ازدياد دور الدولة ازدياد « الضغط الاستبدادي » الذي يتحدث عنه أعداء الماركسية . هذا الدور الجديد للدولة لا تجهله تقريباً الدول البروجوازية أو الرأسمالية ، التي لا تستطيع رفع مستوى الجماهير الثقافي والفكري بدون المخاطرة بمصير الطبقة المسيطرة ! ولهذا تهتم الدولة الرأسمالية ، بصورة رئيسية ، بمتطلبات الاضطهاد . بينما تصبح دولة العمال ، على العكس ، مع معرفتها كيفية الدفاع عن وجودها ، المركز الموجّه ، شيئاً فشيئاً ، لعمل الجماهير الخلاق ، سواء في الميدان الاقتصادي أم الميدان الثقافي : فهي منظم الجماهير ومربيها ، وليست عدواً لها ، ولهذا يعني ازدياد دور الدولة السوفياتية ،

هنا أيضاً ، اضحلال صفات الدولة « التقليدية » !

ولهذا تهتم الدولة نفسها بالثورة الثقافية ، ولإذاعة الأفكار والعلم التقدمي بين الشعب ، وانتصار الافكار الاشتراكية على الافكار البورجوازية ، وذلك حسب تعاليم المادية الجدلية حول مهمة الافكار في الحياة الاجتماعية . بينما أوجد تحول علاقات الإنتاج الظروف لظهور وعي جديد في الجماهير ، وذلك بإزالة الأسس الموضوعية للأفكار البورجوازية : وهي ملكية وسائل الإنتاج الخاصة . ولهذا لم يوجد الوعي الجديد الاشتراكي من العدم : ومهمة الدولة هي التوفيق ، بقدر الامكان ، بين وعي الجماهير وبين الظروف الجديدة الموضوعية ، الاشتراكية ، وان تسرع في العملية التي تعمل على ظهور صورة جديدة من الوعي تتفق والمحتوى الجديد . وكذلك يجب دفع الوعي الاشتراكي ، الى الأمام ، في نفس الوقت ، وذلك بفضل معرفة قوانين المجتمع . حتى تستطيع معرفة سير النمو والتعجيل في النمو الاقتصادي وذلك بتأثيرها بدورها في الشروط الموضوعية . وهكذا نرى ان الشروط الموضوعية والشروط الذاتية ، في المجتمع الاشتراكي ، لا تتناقض بل تؤثر تأثيراً متبادلاً وتدعم كل منها الأخرى . ولهذا يمكن للمجتمع الاشتراكي ان ينمو مادياً وثقافياً بشكل لا يعرفه المجتمع البورجوازي . كما كانت التنافس الاشتراكي مثالا على أهمية وعي الجماهير الجديد بالنسبة لنمو الإنتاج الاشتراكي . وعلى الأدب والفن ان يقوموا بدور مهم في هذا التحويل للوعي : فيصبح الفنانون ، حسب قول ستالين « مهندسي النفوس » .

يتضح أخيراً ان جميع المهات الملقاة على عاتق الدولة الاشتراكية لم يمكن تحقيقها — منذ الفوز بدكتاتورية البروليتاريا حتى الثورة الثقافية — لو ان الطبقة العاملة وحلفاءها لم يكن على رأسها جماعة واعية منظمة ، أي حزب سياسي ، مرتبط بالجماهير ، ومسلح بالنظرية الماركسية اللينينية عن المجتمعات الا وهو الحزب

الشيوعي . ويزداد دور هذه الطليعة ، التي نضى طريق المجتمع الاشتراكي وتوحد النظرية مع التطبيق ، كلما ظهرت متطلبات جديدة ، مادية او ثقافية ، وكلما ازداد دور الدولة السوفياتية .

٦ - الخلاصة

القانون الاقتصادي الاساسي للاشتراكية هو قانون موضوعي ، وذلك لأن سدّ رغبات الجماهير المادية والثقافية الى أقصى حد ليس ثمة « الاختيار الحر » للحكومة ، ولا يمكن ان يكون كذلك ، بل هو النتيجة الضرورية لاشتراك وسائل الانتاج . ولا تستطيع سوى ساطة الطبقة العاملة ان تعطي للجماهير ما تقدم به لأنها جعلت وسائل الانتاج اشتراكية ، ولأنها تعتمد على القانون الموضوعي الذي يميز علاقات الانتاج الجديدة . وبما يميز النظرة الماركسية للاشتراكية عن النظرات الخيالية (الأوتوبية) (utopiques) هو انها تجعل مطلب الجماهير الذاتي منذ آلاف السنين يتفق ومتطلبات القانون الاقتصادي الأساسي لنوع من الانتاج قد حدد بصورة علمية . وهذا ما يفسر نجاح بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي بقيادة الحزب الشيوعي ، وليس بسبب « اختيار حر » او حظ سعيد بل لانه كان ملماً بعلم المجتمعات » .

ويورد اعداء الاشتراكية ، وهي البورجوازية الرأسمالية ، بأن نجاح بناء الاشتراكية لا يمكن تحقيقه إلا باستعباد الفرد . فيزعمون ان الاشتراكية تقضي على الشخصية الانسانية كما تقضي على الطاقة الشخصية والمبادرة الشخصية ، وكذلك تقضي على طاقات الافراد ومواهبها وحقوقها وحرياتها ؛ وانها تسوى بين الحاجات والاذواق . والحقيقة هي أن الرأسمالية ، باستغلالها وتشجيعها للعمال جسدياً وفكرياً

تقضي على عالم من المصالح الروحية والمطامح والطاقات الانسانية وتجعل من العامل تبعاً للآلة ، وتشوّه في فرديته الجسدية والاخلاقية ، وتستعبده في العمل ، تحت ظل نظام يقوم على الاضطهاد والجماعة والبطالة ، يبعث القلق في حياته ويجعل من الناس آلات متحركة (Robots) . يقف الانسان وحيداً أعزل أمام الرأسمالية ، وليس هناك من وسيلة لتحريره سوى اتحاد المستغلين المضطّهرين ، والنضال الثوري . ولقد قال ستالين عام ١٩٠٦ : « الشعب هو حجر الزاوية في الماركسية » لانه بدون تحرير جماهير الشعب لا يمكن تحرير الفرد : فهو الشرط الاساسي لتحرير الفرد .

ويؤكد أنصار الرأسمالية ان كل انسان، في ظل الرأسمالية ، ذي عزيمة وجراءة ، يستطيع ولو كان معدماً ، ان « يخط طريقه » ويحتل مكانة تناسب كفاءاته . ويذكرون ، بهذا الصدد ، « أمثلة موفقة » عن ماسحي احذية أصبحوا من أصحاب الملايين : ولكنهم لا يكشفون عن ان « نجاح » البعض إنما يدفع ثمة آلاف العمال المستغلين . وتدل ضرورة « خط الطريق » في النظام الرأسمالي ان وضع الناس في المجتمع البورجوازي يحدده مدى الملكية الخاصة . ولا يحتل مراكز الادارة إلا ممثلو الطبقات « العليا » . وهكذا يتحدد وضع الناس حسب ثروتهم أو طبقتهم أو ملتهم أو أصلهم القومي ، أو جنسهم ، أو طائفتهم ، أو محالفاتهم أو من يلوذون بهم ، الخ . ذلك هو « الوضع » الذي يعتبره « مفكرو » الرأسمالية و « اخلاقيوها » « خالداً » و « منطقياً » معقولا يمكن تصوره . فيستدعون « الطاقات الخلاقة » عند آل كروب ، وستين ، ومورجان ، وروتشيلد ، وروكفلر ، وفورد ، وبوساك للتدليل على أن لهم الحق في احتلال مركز رئيسي ، غير ان كل واحد منا يعلم ان « الطاقات الخلاقة » عند الرأسمالين إنما ترجع لبراعتهم في سلب فائض القيمة من

العمال للأجورين ، وان مقدار رأسمالهم فقط هو الذي يحدد وضعهم المسيطر .
وهذا ما يحدد « قبة » الانسان في النظام الرأسمالي :

أما في الاشتراكية فإن ارتفاع الفرد ، وغو طاقاته ومواهبه الخلاقة يشترط ارتفاع طاقات جماهير الشعب الخلاقة ، نفسها . ولقد يوهن لنا قانون الاشتراكية الاقتصادي الأسامي على مهمة التقنية التقدمية ؛ كما أشارت دراسة شروط الاشتراكية الذاتية الى أهمية الوعي الاشتراكي الذي هو قوة هائلة نشيطة للمجتمع الجديد .

ويجب أن ندرك من هذه الدراسة المزدوجة ان الاشتراكية تنمي شخصية العامل في جميع جوانبها : فتجعل منه عاملاً تقنياً (Technicien) مثقفاً ؛ كما تجعل منه انساناً اجتماعياً يملك معرفة واسعة عميقة لمشاكل المجتمع ، فهو بناء واعٍ لحياة جديدة . وبدلاً من ان يبقى نحو الفردية الانسانية المتعدد ، وغو الطاقات الشخصية ، ظاهرة وحيدة ، كما هو الحال في الرأسمالية ، يصبح ذلك في الاشتراكية ظاهرة شعبية منتشرة . فالتنافس الاشتراكي دليل حي على الامكافات التي تتاح للبادرة الشخصية والذكاء الخلاق عند الجميع . ولهذا يُعَد في الاتحاد السوفياتي بالمالين المجددون ، والمخترون والعمال المتهنون ، والمجربون في الزراعة ، ومنظمو الإنتاج والاقتصاد ، والمفكرون الذين انحدروا من الشعب ، والرجال والنساء الذين يمارسون نشاطاً اجتماعياً وسياسياً ، والعمال الذين يمكنهم الاشتراك في نقاش علمي ، أو مسابقة أدبية أو فنية ، والعديد من أبطال العمل الاشتراكي ، والفائزون بجائزة مالية ، ولا يحتل الانسان حقاً مكانة تليق بمواهبه ، بدون اعتبارٍ للاصل او الجنس او الثروة ، إلا في المجتمع الاشتراكي .

الاشتراكية هي حقاً حكم الجماهير الشعبية ، وملايين الناس الذين كانوا ضحايا الاضطهاد وحرموا ، بواسطة الاستغلال ، من كل غو انساني . هذه الجماهير الشعبية هي التي تصنع التاريخ ، لأنها الوحيدة التي تستطيع القضاء على سلطة رأس المال . حتى إذا ما تحررت من نير الاستغلال أقامت لنفسها حياة جديدة ، وهي ، بإزالتها لاستغلال الانسان لأنخيه الانسان ، قد وفقت بين الفرد والمجتمع ووضعت في يد كل انسان الوسائل كي ينتفع تماماً .

الدَّرْسُ الْوَاحِدُ الْعِشْرُونَ

مِنْ لاشْتِرَاكِيتِ إِلَى الشِّيُوعِيَّةِ

- ١- مرحلة المجتمع الشيوعي الأولى .
- ٢- ، ، ، ، العليا .
- ٣- قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج في الاشتراكية .
- ٤- شروط الانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية .
- ٥- الخلاصة .

وأينما ان هدف الاقتصاد الاشتراكي ، حسب قانون الاشتراكية الأساسي ، هو سد حاجات المجتمع المادية والثقافية إلى أقصى حد . ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك طالما ان الملكية الخاصة قد زالت .

ولا يعني هذا ، مع ذلك ، انه يمكن لكل عضو في المجتمع أن ينال ما يحتاجه بصورة غير محدودة . إذ أن كل فرد ، في المجتمع الاشتراكي ، ينال حسب العمل الذي يؤديه ، ولهذا يجب التمييز بين مرحلتين في نمو المجتمع القائم على الملكية الاجتماعية ؛ مرحلة أولى وتسمى «الاشتراكية» ومرحلة عليا تسمى « الشيوعية» . وقد أقام ماركس هذا التمييز بصورة علمية .

١ - مَرَحَلَةُ الْمُجْتَمَعِ الشَّيْوعِيِّ الْأَوَّلِيِّ

ليست الاشتراكية ، التي درسناها - إذا نظرنا إليها بالنسبة للمجتمع الشيوعي الذي أتم نموه ، سوى مرحلة أولى ، وهي تقوم على المبدأ التالي : « على كل فرد أن يؤدي حسب طاقاته ، وأن ينال حسب عمله » . غير أن مبدأ الشيوعية هو « على كل فرد أن يؤدي حسب طاقاته ، وأن ينال حسب حاجاته » . ولا شك أن العثرة الرئيسية التي تحول دون أن ينال كل فرد حسب حاجاته ، في العالم الحديث ، هي الاستغلال الرأسمالي الذي يبذر ثروات العمل الانساني ، والنتيجة الاولى لازالة استغلال الانسان لأخيه الانسان هي ان العامل يستطيع ان ينال حسب عمله الذي يؤديه دون أن يُسلب جزءاً من الثروة التي انتجها ، اما ان ينال كل فرد حسب ارادته وحاجاته فيجب أن يصل المجتمع إلى انتاج كمية كافية من وسائل الاستهلاك . تحقيق هدف الشيوعية ، إذن ، هو السبب في الاجراءات الاولى التي تتخذها السلطة الجديدة ، وهي تسمى لزيادة الانتاج . غير أن حاجات الفرد اللاحدودة ليست هي التي يمكنها أن تمدها ، في هذه المرحلة ، بمبدأ التوزيع . وذلك لأن كل زيادة للانتاج ، إذا أريد لها ان تعيش وتستمر ، يجب أن تبدأ بزيادة انتاج وسائل الانتاج ، إذ يجب ، قبل سد حاجات الاستهلاك الفردي ، أن نسد حاجات المجتمع المادية إلى وسائل الانتاج ، ولقد رأينا (راجع الدرس العشرين ، المسألة ٤) ان المجتمع الرأسمالي ، في الغالب ، يترك للاشتراكية ضعفاً سيئاً جداً لا يتفق فيه انتاج وسائل الانتاج مع وسائل الاستهلاك . فلقد غمّت الرأسمالية في تشيكوسلوفاكيا مثلاً ، صناعة خفيفة وفرت للبورجوازية في هذه البلاد التي سميت « بالمصنعة » مستوى عالياً للمعيشة . غير أن هذه

الصناعة الخفيفة كانت تعتمد في مجملها على الصناعة الثقيلة في البلاد الرأسمالية الكبرى.

يتفق قول الاشتراكية إذن : « على كل فرد ان يؤدي حسب طاقاته وأن ينال حسب عمله » مع الواقع ، وهو انه ، في المرحلة الاولى . للمجتمع الشيوعي يجب ايجاد مقياس للاستهلاك .

فإن نجد هذا المقياس ؟ في العمل طبعاً . وذلك لأن كمية العمل الذي يؤديه كل فرد ونوعه هما اللذان يحددان القدر الذي يناله من الانتاج الاجتماعي ، وهذه هي الطريقة الوحيدة العادلة لتقدير حقه في الاستهلاك . يضاف إلى ذلك ان العمل هو الشرط الأساسي لازدهار قوى الانتاج ، أي ظهور الشيوعية فيما بعد . وهكذا يجب الاجر الذي يناله الفرد على عمله ارحلة يصبح فيها هذا الاجر غير ضروري لتقدير استهلاكه الفردي !

ومع ذلك فإن مبدأ الاشتراكية « على كل فرد ان يؤدي حسب طاقاته وان ينال حسب عمله » يكون خطوة كبرى إلى الامام بالنسبة إلى الرأسمالية المستغلة ، حيث لا ينال العامل قط حسب عمله .

يجب على الافراد ، إذن ، في المجتمع الاشتراكي ، أن يحصلوا بواسطة الشراء على السلع الضرورية لمعيشتهم . وهذا الشراء هو الصورة الوحيدة الممكنة لتوزيع سلع الاستهلاك . وبالإضافة إلى ذلك فإن حاجات الجماهير المادية والثقافية تسد إلى الحد الأقصى بواسطة الخدمات الاجتماعية - كجانية العناية الطبية مثلاً - والمؤسسات الثقافية التي لا تعرفها الرأسمالية .

ويجب كذلك ان نعرف انه لا يمكن ازدياد الانتاج ، الذي يسمح بتوزيع سلع الاستهلاك حسب حاجات كل فرد ، بدون نمو التقنية الهائل . ويتطلب مثل

هذا النمو التقني ان يبلغ تخصص العمال وثقافتهم درجة اسمى من الدرجة التي بلغوها في الرأسمالية ، التي تحرم الجماهير من الثقافة والعلم . غير أنه طالما ان العمل لم يصبح بالنسبة للفرد حاجة طبيعية كحاجته الى التنفس والمشي ، فالوسيلة لتشجيع التقدم وتخصص العمال هي ان ينال كل فرد حسب نوع العمل الذي يؤديه .

ولهذا تصبح وعود الرأسمالية الخلابه ، التي تريد أن تقتنع العمال بانها تستطيع رفع مستوى معيشتهم إذا حسنوا نوعية عملهم ، حقيقة ، في الاشتراكية ؛ بسبب زوال الاستغلال .

ولهذا يجب ، كي نفهم المرحلة الاولى للمجتمع الشيوعي ، أن الانسئ واجب المجتمع الشيوعي في تصفية تركة الرأسمالية الثقيلة في جميع المباديء .

ولهذا يقول ماركس وانجلز : « نحن هنا أمام مجتمع شيوعي لم يتم حسب الأسس الخاصة به ، بل على العكس ، كما ولد في المجتمع الرأسمالي ؛ وهو مجتمع يحمل لذلك في المبادئ الاقتصادية والاخلاقية والفكرية سمات المجتمع القديم الذي خرج من ضلله »^(١) .

ونحن حين نقول بأن المجتمع الاشتراكي يعطي لكل فرد حسب عمله ، لا نعني بذلك ان كل فرد يأخذ فرديا ومباشرة نتيجة عمله كاملة — لان ذلك وهم البورجوازية الصغيرة ، وذلك لأننا إذا نظرنا الى مجرى انتاج العمل الاجتماعي يتضح لنا أنه يجب أن نحتفظ بقسم منه من أجل تنمية الانتاج وبقسم آخر لتجديد الآلات البالية ، الخ ... وإذا نظرنا لوسائل الاستهلاك وأينا انه يجب ان نحتفظ بقسم منها لتغطية مصاريف الادارة ، وبقسم آخر من أجل المدارس والمستوصفات وملاجيء

(١) ماركس وانجلز : نقد برنامج غوتا وارفورت ص ٢٣ . المطبوعات الاجتماعية باريس ١٩٥٠

الكهول ، النح ..

يساعدنا كل ما سبق على فهم أهمية المادة ١٢ من الدستور السوفياتي .
العمل بالنسبة لكل مواطن كفاء للعمل فرض ومسألة شرف حسب المبدأ
القاتل : « كل من لا يعمل لا يأكل » .

ولهذا كانت المساواة ، في المجتمع الاشتراكي ، هي في أن تعطي كل فرد
حسب عمله ، أي بصورة غير متساوية بين الافراد ، بعد ان يؤمن لكل فرد
أسباب معيشته (بفضل ازالة الاستغلال) . ولهذا لا يجب مساواة الاشتراكية
بنزعة خيالية للمساواة بين الناس .

كتب موريس توريز يقول : « أما فيما يتعلق بنزعة المساواة التي تقوم على
قياس الناس بنفس المقياس فهي استحالة اجتماعية لأن هناك تفاوتاً طبيعياً بين
الناس ، سببه كفاءاتهم البيولوجية والنفسية . أما التفاوت ، الذي يسعى الشيوعيون
لإزالته ، فهو التفاوت الذي ينشأ عن وجود الطبقات ، إذ ان الافراد ، في المجتمع
الرأسمالي ، لا يتمتعون بفرصة متساوية لنمو شخصياتهم ، فالمليونير والعامل الذي
يقامى البطالة متساويان أمام القانون وكلاهما حر . غير ان هذه الحرية تؤدي
بأحدهما الى فنادق الريفيرا الفخمة بينما تؤدي بالآخر الى المبيت تحت الجسور . لن
يكون رجل المستقبل « انساناً آلياً » (Robot) بل شخصية حرة قوية ، تفتح
طاقاتها وقواها تفتحاً واسعاً^(١) .

يقوم «التفاوت» في المجتمع الاشتراكي على أن الأفراد الذين تتشابه حاجاتهم ،
وتفاوت كفاءاتهم ، ينال كل منهم حسب عمله ، ما يؤديه للمجتمع ، أي بصورة

(١) موريس توريز : ابن الشعب ص ٢٣٤

غير متساوية ، فالعامل الستاخانوفي (Stakthanoviste) ينال اكثر من غير الستاخانوفي ، وليس ذلك تمييزاً له عن غيره (لأنه لا يوجد تمييز في مجتمع خال من الطبقة المستغلة) بل لانه عامل ممتاز بجده ، يؤدي اكثر من غيره للمجتمع أي لكل فرد من أعضاء هذا المجتمع^(١) .

وأما التفاوت فهو ، على العكس ، يقوم في المجتمع الشيوعي على أن الأفراد الذين يختلفون في كفاءاتهم ويؤدون ، بسبب ذلك ، للمجتمع عملاً يتفاوت (في الكمية والنوعية) ينالون بصورة متساوية ، كل حسب حاجاته القصوى . لماذا ؟ لأن ارتفاع الانتاج بصورة كافية يسمح بذلك .

يوجد في المجتمع الاشتراكي ، إذن ، مراقبة شديدة لمقدار العمل ومقدار الاستهلاك . فالعمل واجب ، وكل فرد ينال حسب العمل الذي يؤديه . ولهذا لم يعد هناك محظوظون ولا مستغلون ، بل العمل هو سيد الجميع .

لا يزال ، في المجتمع الاشتراكي ، شيء من التفاوت في الممتلكات ، غير أنه لا يوجد في المجتمع الاشتراكي قط بطالة ولا استغلال ولا اضطهاد للقوميات . وعلى كل فرد ، في المجتمع الاشتراكي ، أن يعمل ، وإن كان لا ينال بعدُ على عمله حسب حاجاته بل حسب كمية العمل الذي يؤديه ونوعه ، ولهذا لا يزال يوجد أجر متفاوت ومختلف . ولن نستطيع القول باتمام بناء المجتمع الشيوعي إلا متى

(٢) ليس رفع هذا الاجر للعامل الستاخانوفي تمييزاً له بل هو نتيجة للقانون الاشتراكي ، ولقد لاحظ لينين « ان كل قانون يقوم على تطبيق قاعدة واحدة على اناس مختلفين ، ليسوا في الواقع متماثلين او متساوين » الدولة والثورة ص ٨٤)

نبحثنا في ايجاد نظام ينال فيه الناس من المجتمع على عملهم حسب حاجاتهم ، وليس حسب كمية عملهم ونوعه^(١) .

٢ - مرحلة المجتمع الشيوعي العليا

حين يبلغ المجتمع الشيوعي مرحلته العليا ، وتزول تبعية الأفراد الذليلة لتقسيم العمل ، كما يزول التعارض بين العمل الفكري والعمل اليدوي ، فلا يعود العمل وسيلة للحياة فقط ، بل يصبح الحاجة الاولى الحياتية ، وتزداد قوى الانتاج مع نمو الأفراد وتفيض مصادر الثروة الجماعية ، يمكن حينئذ ، تخطي حدود القانون البورجوازي الضيقة ، ويستطيع المجتمع ان يعلن علاناً : « على كل فرد ان يؤدي حسب طاقاته وان ينال حسب حاجاته »^(٢) .

« حجة » البورجوازية الرئيسية فيما يتعلق بما تدعيه من « استحالة تحقيق » الشيوعية ان المجتمع لن يستطيع ان يقدم لكل فرد « حسب حاجاته » أي مجاناً دون ان يحاول كل فرد ، عندئذ ، ان يعمل « أقل ما يمكن » وهكذا يأتي الفقر بسرعة ! تعتقد البورجوازية ان الانسان ، وهو فريسة « الخطيئة الاصلية » ، كسول ، بطبيعته ، لا يعمل إلا إذا أُجبر على العمل وُحِّل عليه ، فيحاول الاستفادة الى أقصى حد من عمل غيره . تعكس البورجوازية ، بهذا الاعتقاد ، نظرتها الخاصة « للعمل » ! أما العقلية التي تكتفي « بمحدود القانون البورجوازي الضيقة » وتحسب

(١) ستالين : « تصريح الى رومانوفا » كراسات الشيوعية عدد ١١ (١٩٥٨) ، ص ١٣١٥

(٢) ماركس ، المجلد نقد لبرابغ غوتن وارفورت ص ٢٥ .

كما فعل شيلوك^(١) فنقول : « لا يجب أن أعمل نصف ساعة زيادة عما يعمل غيري ، ولا أنال اجراً أقل منه^(٢) » فهي ليست سوى نتيجة لشروط الاستغلال الرأسمالي . ولهذا يمكن فهمها تماماً .

ذلك لأن شروط استغلال الانسان لأخيه الانسان أوجدت ، منذ آلاف السنين ، كراهية العمل الشديد المرهق . ولهذا جعل نمو قوى الانتاج الضعيف ، حتى وقت متأخر في عهد الرأسمالية ، وعدم الاهتمام بتخفيف مهمة العمال بواسطة تقنية خاصة ، كل ذلك جعل من العمل مهمة شاقة - كما كرس تقسيم العمل ، الذي كان في البدء ، شرطاً لتقدم قوى الانتاج ، كل انسان في عمل يزاوله مدى الحياة - ولا سيما في الصناعة الحديثة حيث أصبح كل انسان أسير عمل جزئي يقوم به ؛ يضاف إلى ذلك أن تقسيم العمل إلى فكري ويدوي قد حرم العامل اليدوي من كل نشاط خلّاق ، وجرد العامل اليدوي من كل امتاع . لهذه الأسباب جميعاً أصبح العمل شاقاً .

غير ان هذا الوضع ليس أبدياً . فهو وليد شروط مادية معينة ولهذا يزول بواسطة شروط مادية أخرى . فقد كان هلفتيوس يعتقد ان النشاط المنتج المعتدل السليم ضروري ، بصورة حياتية ، للانسان وسعادته إذ ان الشرود ، في نظره ، لا يمكن ان تأتي إلا عن الكسل والعمل المرهق . كما حيا فورييه « العمل المغربي » الذي يتفق وميول العمال وكفاءاتهم ومواهبهم على أنه من نصيب المجتمع المقبل . ويعطينا النشاط العالمي والفني ، في المجتمع المنقسم الى طبقات ، صورة عما يمكن

(١) شخصية من شخصيات شيكسبير وهو 'مراي' .

(٢) لينين : الدولة والثورة .

ان يكون عليه عمل كل انسان في المجتمع الشيوعي ، فهو ليس شاقاً بـل متعة وتفتحاً . كما انه يجب ان نلاحظ أن المقارنة فاقصة لأن الفنانين والعلماء ، في المجتمع الرأسمالي ، ليسوا دائماً في منجى من العوز والفاقة ، فإذا بهم يجدون جهنم الخلاق محدوداً بنظام الاستغلال .

تمزج التقنية التقدمية ، في المجتمع الشيوعي ، العمل اليدوي بالعمل الفكري ، كما انها تسمح بتخفيض ساعات العمل ، فتمنح للعامل الفراغ لتحسين تخصصه إذا تمكنه من ان لا يكون طيلة حياته اسير نفس المهمة ، ولهذا فلن يشوه العمل شخصية الانسان بل سوف يكون اسمى تعبير عن هذه الشخصية . إذ به ينمي كل منا مواهبه ، ويصبح العمل ، بعد تحرره من الاستغلال ، الحاجة الأساسية لكل فرد .

وسوف يعطي كل منا حسب طاقاته . وتعجز العقلية البورجوازية ، هنا أيضاً ، عن أن تدرك ذلك لأنها تعتقد ان الدافع لكل نشاط انساني هي المصلحة الخاصة التي تعارض المصلحة العامة . غير انه كلما تقدم المجتمع الشيوعي كلما توطد الوعي الاشتراكي الذي يعتقد أن المصلحة الشخصية والمصلحة العامة صنوان . ويصبح ادراك مصلحة المجتمع بأكملها عادة «طبيعية» كحساب شيلوك الدقيق في الرأسمالية . وكما ان الملكية الخاصة قد تسربت الآن الى العادات ، فكذلك تسربت الاشتراكية والشيوعية . وسوف يعتاد الناس على مراقبة قواعد الحياة الاجتماعية الاساسية ويعملون بارادتهم وضميرهم حسب طاقاتهم ويأخذون مجرية من وسائل الاستهلاك حسب حاجاتهم .

ليست الثورة الاشتراكية ، كما نرى ، سوى بداية تحول طويل للمجتمع والناس .

وهمنا ان نرى الى أي حد تكذب الفكرة البورجوازية السائدة، التي تقول بأن الاشتراكية شيء ميت جامد لا يتطور، مع أن الحقيقة هي ان الاشتراكية بداية حركة تقدم مربع حقيقية في جميع ميادين الحياة الاجتماعية والخاصة، حركة شعبية حقاً تشترك فيها الاغلبية في أول الأمر ثم نعم جميع السكان^(١).

غير ان الشيوعية تفترض زوال « بورجوازي اليوم الصغير، القادر... على تبذير » « الثروات العامة والمطالبة بالمستحيل بدون طائل^(٢) ». ولا شك أن هذا البورجوازي الصغير يعتقد انه خالد. فهو واثق بغباؤه ان أفانيته وضيق تفكيره ينعتان وجه الانسان الخالد. فإذا ما قال الماركسيون ان الانسان يتحول وسوف يتحول مع المجتمعات، هز كتفيه ساخراً وعده ذلك القول وهماً وخيالاً. والخيال في الحقيقة هو الاعتقاد ان افكار البورجوازي الصغير سوف تستمر إلى ما لا نهاية بعد زوال الشروط الاجتماعية للمعيشة.

ومع ذلك فإن « نظام المصنع » الذي سوف تخضع له البروليتار الظافرة المجتمع بأكمله ليس المثل الأعلى ولا هو الغاية النهائية بل هو « خطوة ضرورية لتخليص المجتمع من اوزار الاستغلال الرأسمالي، وضمان السير الى الامام في المستقبل^(٣) ».

(١) لينين : الدولة والثورة ، ص ٩٠

(٢) نفس المرجع ص ٩٢ .

نشير على القاريء للاطلاع على نقد عقلية البورجوازي الصغير بقراءة قصة غوركي : البورجوازيون الصغار (مطبوعات النقد الجديد) وكذلك مؤلفات ماياكوفسكي الشعرية .

(٣) لينين : الدولة والثورة ص ٩٢

ولقد عدد ستالين ، مستخلصا تعاليم كتب ماركس وإنجلز ولينين ، ميزات المجتمع الشيوعي كما يلي :

(أ) لن يكون هناك ملكية خاصة لآلات الانتاج ووسائله بل ستكون ملكية اجتماعية جماعية .

(ب) لن يكون هناك طبقات ولا سلطة دولة^(١) ، بل سيكون هناك عمال في الصناعة والزراعة يديرون انفسهم بأنفسهم اقتصاديا كجمعية حرة للعمال .

(ج) سيعتمد الاقتصاد القومي ، المنظم حسب مخطط موضوع ، على تقنية عليا سواء في ميدان الصناعة أو ميدان الزراعة .

(د) لن يوجد فرق بين المدينة والقرية ، بين الصناعة والزراعة .

(هـ) ستوزع المتوجات حسب مبدأ الشيوعيين الفرنسيين القدماء ، وعلى كل فرد ان يؤدي حسب طاقاته وان ينال حسب حاجاته .

(و) سيستفيد العلم والفنون من شروط مواتية كفاية لبلوغ تفتحها الكامل .

(ز) سيصبح الفرد حراً حقاً بعد أن تخلص من هم خبزة اليومي ، ولن يحاول ارضاء «جباري هذا العالم»^(٢) .

ويضيف ستالين الى ذلك قوله : « التح » ولقد عرض ستالين ، في آخر سنة من

(١) حين 'تقلب البورجوازية ، كطبقة ، في العالم اجمع .

(٢) ستالين : « حديث مع اول بننة من عمال اميركا » في ليتين مؤلفات مختارة ، ج ١ ص ٤٥

حياته ، بصورة رائعة ، الأفكار التي بسطها ماركس وإنجلز ولينين ، معتمداً على التجربة التاريخية لبناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي ، كما حدد شروط الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية .

٣ - قوى الانتاج وعلاقات الانتاج في الاشتراكية

بين الاشتراكية والشيوعية قرابة قوية : وهي ملكية وسائل الانتاج الاجتماعية الجماعية. ويدل قانون الاشتراكية الأساسي تماماً على هذه الصلة المستمرة بين مرحلتي الشيوعية ؛ إذ ان هدف الانتاج ، في المرحلة الاولى ، هو سد الحاجات الى أقصى حد . ليس هناك سد « كجدار الصين » بين المرحلتين . ومع ذلك تتخذ الملكية الاجتماعية اشكالا متعددة ؛ فقد رأينا انه يوجد ، في الاشتراكية كما تحققت في الاتحاد السوفياتي ، صورتان للملكية الاجتماعية . ولا يمتاز المجتمع الشيوعي فقط بعدم وجود التعارض بين الطبقات ، بل يمتاز أيضاً بزوال هذه الطبقات تماماً . فليس هناك ، إذن ، سوى صورة واحدة للملكية الاجتماعية ، وهي ملكية الشعب الجماعية بأكملها ، نرى أنه يوجد اختلاف بين مرحلتي الشيوعية ؛ ليس في مبدأ الذي يشرف على توزيع المنتوجات فقط ، بل في علاقات الانتاج التي يجب عليها ان تساعد على نمو قوى الانتاج بشكل يمكن من نشر الرخاء بين كل الناس : غير انه ، كي تغير علاقات الانتاج ، يجب ان تكون قد تغيرت قوى الانتاج اولاً . وهذا ما نعله .

فهل تجري الامور هكذا بالنسبة للاشتراكية ؟ أجل ! لأن قانون الترابط الضروري بين علاقات الانتاج وطابع قوى الانتاج هو قانون شامل يصح في جميع طرق الانتاج بدون استثناء . ولهذا فإن الفعل المتبادل بين علاقات الانتاج وقوى

الانتاج هو الاساس الموضوعي للانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية. ولا يمكن لأي شيوعي أن يعتقد غير هذا فيقول بأن المجتمع الاشتراكي ينتقل إلى الشيوعية في اية لحظة !

نعم ان علاقات الانتاج الجديدة ، وهي علاقات اشتراكية ، هي الواقع الاسامي لنمو قوى الانتاج . غير ان علاقات الانتاج ، فيما يتعلق بالاتحاد السوفياتي ، تمتاز بأنه يوجد ، الى جانب ملكية الدولة ، وهي ملكية الشعب بأكمله ، الملكية الاشتراكية الكولخوزية : إذ يملك الكولخوز منشآته ومبانيه وانتاجه .

الصورة الأولى للملكية تتفق تماماً وطابع قوى الانتاج ؛ إذ تستطيع الدولة الاشتراكية ، كما يشهد الواقع ، ان تقوم بالاعمال الهائلة كبرى الصحاري وتحويل مناخ المناطق القاحلة ! بينما الصورة الثانية للملكية لا تستطيع القيام بذلك تماماً : فلنفرض ان كولخوزا يريد كهرية الاعمال الزراعية كالتركتورات وآلات جز صوف الاغنام وحلب الابقار ، الخ ... لاشك ان المصلحة تقتضي ببناء مركز كبير لتوزيع الكهرباء بمد أربعة أو خمسة كولخوزات بالكهرباء بدلا من بناء مركز صغير لا يمد سوى كولخوز واحد يكلفه مصاريف باهظة . فإذا لم يقيم الكولخوز بالانضمام الى الكولخوزات المجاورة ، كان ذلك سبباً في عدم بناء المركز الكهربائي . يعني هذا انه لا يمكن استخدام التقنية سواء كان في علم الحياة الزراعية (agrobiologie) او في الآلات الزراعية ، لمصلحة الكولخوزات الصغيرة . وان كانت هذه التقنية قد نمت وتطورت بفضل علاقات الانتاج الاشتراكية^(١) . ولقد علمنا ما ركس أن قوى الانتاج لا تنمو إلا في حدود علاقات الانتاج . وليست الشيوعية عبارة عن

(١) راجع قصة ج : نيقولا بيغا ! الحصاد :

تنظيم لقوى الانتاج . بل هي تتطلب منا دراسة علاقات الانتاج ، أي دراسة الاقتصاد. غير ان الملكية الاجتماعية الكولخوزية التي أتاحت غواً هائلاً للزراعة الاشتراكية تبدو كأنها عائق في وجه غو قوى الانتاج في القرية فيما بعد . وأزدهار الزراعة وتربية المواشي هذا ضروري لازدياد سلع الاستهلاك ، أي لبناء الشيوعية . يجب إذن ان تتسع الملكية الاشتراكية الجماعية ، وان تجتمع لكولخوزات من جديد لتكون كولخوزات اكبر . وإلا تعمق علاقات الانتاج — أي الكولخوز — التي ساعدت قوى الانتاج حتى الآن ازدهارها ويبدأ النزاع بينها . وهكذا تبقى علاقات الانتاج مطابقة لطابع قوى الانتاج .

وليس هذا كل ما في الأمر . فطالما استمر تنقل السلع — بواسطة الشراء والبيع — بين القرية والمدينة ، امكن للكولخوزات ان تبيع إنتاجها . وان تتصرف كما تشاء بدخل هذا الانتاج . ليس من السهل إذن التنبؤ بعملياتها . ولهذا يستحيل تعيين نسبة دقيقة بين انتاج وسائل الانتاج ووسائل الاستهلاك ، في الوقت الذي يزداد فيه انتاج وسائل الاستهلاك ، ووضع مخطط كامل للانتاج حسب احصاء لمجموع الحاجات . غير ان هذا الاحصاء اسامي إذا اردنا الانتقال الى الوفرة في المنتوجات . ولهذا فان تنقل السلع (البيع والشراء) ربما اصبح عائقاً لمو قوى الانتاج حسب المخطط الموضوع لها . وعلى العكس فإن وجود نظام للتبادل بواسطة العقود بين الدولة والكولخوزات يساعد على هذا التخطيط ويعود بالفائدة على الكولخوزيين الذين يتلقون من الدولة المنتوجات التي هم بحاجة اليها بكميات أكبر وباسعار أرخص .

وهكذا يكون الفعل المتبادل بين علاقات الانتاج وقوى الانتاج ، أي الجدلية الداخلية لطريقة الانتاج ، اساس التغييرات التي تحدث . غير ان قانون الترابط

الضروري ، في المجتمع الاشتراكي ، يمكن ان يشق طريقة دون ان تعمل الطبقات
الرجعية للوقوف في وجهه خدمة لمصلحتها . فليس هناك تعارض بين الطبقات :
مصلحة العمال والكوالحوزين الطبقة إذن هي في نمو قوى الانتاج ، وزيادة الانتاج ،
والانتقال الى الشيوعية والرخاء. ولهذا يمكن ان لا يؤدي الخلاف - النسبي -
بين علاقات الانتاج وقوى الانتاج الى نزاع ؛ كما يمكن للتناقضات أن لا تتطور
الى تعاوضات شريطة ان تتبع سياسة عادلة قائمة على علم التناقضات .

ولا ينتهي الأمر ، في النظام الاشتراكي ، عادة الى النزاع بين علاقات الانتاج
وقوى الانتاج ، لأنه يمكن للمجتمع ان يوفق ، في الوقت المناسب ، بين علاقات
الانتاج المتأخرة وبين طابع قوى الانتاج . يمكن للمجتمع الاشتراكي ان يفعل ذلك
لأنه لا يضم ، في داخله ، طبقات في طريق الزوال يمكن ان تقف في وجه ذلك
لا شك انه سيوجد في المجتمع الاشتراكي أيضاً قوى متأخرة لا تدرك ضرورة
تحويل علاقات الانتاج ، غير انه من السهل القضاء عليها دون ان يؤدي الامر الى
النزاع^(١) .

اما الدولة السوفياتية فهي بدلا من ان تكون عائقاً لتحول علاقات الانتاج
كالدولة الرأسمالية ، لأنها تعكس مصالح العمال والفلاحين المتحدين ، فتقف في وجه
تأثير قانون الترابط الضروري ، فإنها تتخذ جميع الاجراءات المفيدة لتشق امامه
الطريق وتسرع في تحول علاقات الانتاج . وهنا يظهر دورها الضخم في انتقال
الاشتراكية الى الشيوعية . « فالشيوعية ، كما يقول لينين ، هي سلطة السوفيات
مع كهرية جميع البلاد » . إذا كانت الدولة ليست عائقاً في وجه التغييرات الضرورية

(١) ستالين : « مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي » اخر مؤلفات ص ١٤٠

بل تشجها فإن الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية - على عكس الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية - لا يحدث بصورة مباغتة . ومع ذلك فهو تغيير نوعي في علاقات الانتاج ، لانا سننتقل بواسطته من صورتي الملكية الى صورة واحدة ، ومن مجتمع ذي طبقتين الى مجتمع لا يعرف الطبقات . غير انه انتقال نوعي بالتدريج بتراكم الجديد وزوال القديم تدريجياً .

يجب ان نقول للرفاق الذين يتحمسون للانفجارات ان القانون الذي يسيطر على الانتقال من النوعية القديمة الى نوعية جديدة بواسطة الانفجارات لا يمكن تطبيقه دائماً فقط على تاريخ نو اللغة بل كذلك لا يمكن تطبيقه دائماً على ظواهر أخرى اجتماعية تتعلق بالاساس . . . فهو ضروري لمجتمع منقسم الى طبقات متناحرة . وليس هو ضرورياً فقط لمجتمع لا يضم طبقات متناحرة^(١) .

لا يشترط الانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية قلب حكم طبقة على يد طبقة معارضة ، والانتقال من الغد إلى القطب المعارض ، بل يشترط زوال الفروق بين طبقتين بالتدريج ؛ فليس هناك أي داعٍ لأن يحدث ذلك بالانفجار . فحيث لا يوجد تعارض بين الطبقات لا يعود نضال الطبقات محرك التاريخ .

ليس هناك إذن محرك قط ؟ ومن الخطأ الاعتقاد بذلك .

ان مصلحة العمال هي في الانتقال إلى الشيوعية بالاعتماد على قوانين الاقتصاد . هناك إذن فئة واعية من المجتمع تمثل قوى الطبيعة الجديدة ، بينما هناك عناصر رجعية ، بسبب العادة أو أي عامل آخر ، لا تدرك ضرورة تغيير علاقات الانتاج ،

(١) صتاين : « حول الماركسية في علم اللغة » آخر مؤلفات ص ٣٥ .

فتعيق بذلك التغير وتمثل القوى القديمة ، محرك التاريخ هنا أيضاً ، هو إذن النضال :
النضال بين قوى التقدم هذه والقوى المحافظة ، بين الجديد والقديم .

ليس الانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية قصة غرامية^(١) . ولهذا كان النقد
والنقد الذاتي القوتين الحقيقيتين اللتين تدفعان بالمجتمع السوفياتي : نقد من أجل
الوصول إلى تغييرات حقيقية ، موضوعية ، مباشرة ، ونقد ذاتي لان النضال بين
القديم والجديد يجري أيضاً داخل الفرد نفسه ، ولأنه يجب استئصال آثار الرأسمالية
الباقية في وعي الناس .

لا يجري النضال في مجتمعنا السوفياتي ، حيث زالت الطبقات المتعاضدة ، بين
القديم والجديد ، ومن ثم ، لا يجري التطور من الأسفل إلى الأعلى ، بصورة نضال
بين طبقات متعارضة أو بصورة هزات كما هو الحال في النظام الرأسمالي بل في صورة
نقد ونقد ذاتي هو القوة الحقيقية المحركة لنموننا ، وهو سلاح قوى بين يدي الحزب .
وهذا ضرب جديد من الحركة ونموذج جديد للنمو وقانون جديد جديلي^(٢) .

نرى أن الشروط الذاتية في الانتقال إلى الشيوعية ليست أقل أهمية منها في
بناء الاشتراكية ، وان تأثير الأفكار والوعي الاشتراكي على الشروط
المادية عظيم .

يجب على كتابنا ورؤسائنا أن يجاربوا الرذائل والأخطاء والظواهر السيئة التي

(١) يصور لنا العلم الروسي الرائع : « الفارس ذو النجمة الذهبية » هذا النضال ، داخل كوخوز ،
لانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية .

(٢) أ . جدانوف : « خطاب إلغاء خلال نقاش جرى حول كتاب ج . الكسندروف : عن
الأدب والفلسفة والموسيقى ، ص ٦٢ - ٦٣ . مطبوعات النقد الجديد ، باريس ١٩٥٠ »

توجد في المجتمع ، وان يظهروا في الشخصيات الايجابية رجالا من مثال جديد في روعة كرامتهم الانسانية فعملوا بذلك على تكوين اخلاق وعادات في أساس مجتمعا خالية من الجروح والشرور التي ولدتها الرأسمالية ... نحن بحاجة إلى أمثال جوجول وشتشدرين سوفياتين الذين يحرقون بنار هجوم كل ما في الحياة من سلبى وفساد وميت ، وكل ما يعيق حركة التقدم إلى الأمام .

إذا ما قدرنا مهمة الدولة السوفياتية ومهمة الأفكار في الانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية ، أدركنا أن هذا الانتقال لا يمكن أن يتم بنجاح بدون القيادة السياسية والفكرية التي ينهض بها حزب العمال السوفياتين ، مسلحاً بالنظرية العلمية . يجب على الشيوعيين أن يكونوا أكفاء لتحمل المسؤوليات المتزايدة : هذه الضرورة التاريخية تعكسها القرارات الجديدة التي اتخذها ، في تشرين الأول سنة ١٩٥٢ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي .

٤ - شروط الانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية

ندرك الآن الشروط الثلاثة الرئيسية الضرورية لتحقيق الانتقال إلى الشيوعية وتهيئة تحقيق الانتقال الحقيقي وليس الانتقال الوهمي ، التي حددها ستالين بوضوح في آخر كتاب له . يتعلق الشرط الأول ، حسب تعاليم الماركسية ، بالانتاج ، بينما يتعلق الشرط الثاني بالأساس الاقتصادي ، ويتعلق الشرط الثالث بتحويل المجتمع الثقافي .

١ - يتعلق الشرط الأول بالانتاج . نعم ان الماركسية ، على عكس النظريات البورجوازية الصغيرة ، « كالاقتصاد التوزيعي » أو « شيوعية الاستهلاك » أو

« اقتصاد الرخاء » ، لا تفصل قط بين الاستهلاك والانتاج ، فإذا أردنا أن نستطيع توفير « حاجات كل فرد » ، فإنه لا يكفي أن نتعمس للهدف بل ، يجب اتخاذ الوسائل للوصول إليه . لهذا كان من الضروري ليس ضمان « تنظيم عقلائي » اسطوري لقوى الانتاج ، بل ازدياد مستمر لكل الانتاج الاجتماعي مع افضلية نحو انتاج وسائل الانتاج^(١) .

نلاحظ أنه ، فيما يتعلق بالانتاج ، من الخطأ تماماً ان نعتبر التنظيم والتخطيط غاية في ذاتها . لان الهدف هو زيادة الانتاج . وهذا الهدف متعلق نفسه بهدف آخر إلا وهو سد الحاجات إلى أقصى حد ، أي حاجات الانسان . وليس قانون النمو المنسجم في الاقتصاد ، الذي يتيح التخطيط ، هو القانون الأساسي في الاقتصاد الاشتراكي ؛ بل ان قانون الاشتراكية الأساسي هو قانون سد الحاجات المادية والثقافية لجميع أفراد المجتمع إلى أقصى حد .

نعم ان ازدياد الانتاج يحدث في الاشتراكية على أساس تقنية عليا تتيح رفع انتاجية العمل بصورة لا تجعل من الممكن فقط زيادة الانتاج ، في نفس مدة العمل ، بل تخفيض هذه المدة . يضاف إلى ذلك ان هذه التقنية العليا العالمية تمحو بالتدريج الفروق بين العمل البدوي والعمل الفكري . وهذه ميزة من ميزات الشيوعية ؛ فالوسيلة هنا أيضاً غاية ؛ ذلك لأن انسان الشيوعية الذي يكون مع كل حاجاته ، الهدف النهائي ، هو نفسه موجود في الانسان الذي يهدل للشيوعية ، وتتمنى كل مواهبه . ولا نجد مثالا ، في أي مكان آخر ، على الحقيقة الجدلية التي تقول بئائل الهدف والوسائل أفضل مما نجد هنا ، كما أننا لا نرى في أي مكان آخر ، كما

(١) ستالين : مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي ، آخر مؤلفات ، ص ١٥٥ .

نرى هنا، أن الانسان هو بداية الشيوعية ونهايتها وأنه « أئمن رأسمال لها ».

يعني ازدياد الانتاج ، أيضاً ، أنه بعد القضاء على تعارض الطبقات ، فإن النضال الذي يحل مكان الصدارة - وان كان لا يجري إلا ضمن حدود علاقات الانتاج ، وضمن حدود النضال بين القديم والجديد - هو نضال ضد الطبيعة : إذ يجب تحويل الطبيعة للتشبيد للشيوعية ، وتحويل سطح الأرض ، والمناخ ، واصلاح الشبكة المائية ، والغابات ، وتجفيف المستنقعات ، وإزالة الصحاري ، واحياء الأراضي ، وابتعاد أنواع جديدة من الحيوانات ، والنبات ، ومد وسائل الاتصال ، وادخال الآلة في الأعمال الشاقة ، الخ ...

وما مشاريع الشيوعية الضخمة الا دليل على هذا النضال العظيم ضد الطبيعة .
غير أنه ، كي نستطيع مواصلة تنمية قوى الانتاج ، يجب تحويل علاقات الانتاج .
ومن هنا كان :

٢ - الشرط الثاني يتعلق بالأساس الاقتصادي ، ونظام الملكية . لهذا من المهم ، بعد كل ما وأيناه ، ان نرتفع بالملكية الكولخوزية ، إلى مستوى الملكية القومية ، وذلك على مراحل تدريجية ، مع توفير الربح للكولخوز أي لجميع المجتمع ، وان نستعيض عن تداول السلع بنظام لتبادل المنتجات ، على مراحل تدريجية أيضاً حتى تستطيع السلطة المركزية ، أو أي مركز اجتماعي اقتصادي آخر ، التعرف بجميع منتجات الانتاج الاجتماعي لمصلحة المجتمع^(١) .

يتحقق ، بواسطة هذه الوسائل ، على اكمل وجهه ؟ وفي كل مرحلة من مراحل

(١) ستالين : « مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي » اخر مؤلفات ص ١٥٦

النمو الاجتماعي ، الترابط التام بين علاقات الانتاج وقوى الانتاج ؛ ولهذا المنخفض عدد الكوئحوزات بين أول تموز ١٩٥٠؛ وتشرين الأول ١٩٥٢ من ٢٤٠٠٠٠ إلى ٩٨٠٠٠ . يهد إذن تجميع الملكية الكوئحوزية بواسطة دمج الكوئحوزات - أي بدون سحب ملكيتها - لزوال الفرق الاسامي بين الصناعة والزراعة - وهو فرق يتعلق بطريقة الملكية الاجتماعية - ويشر بميلاد المجتمع الحالي من الطبقات ، حيث لن يسيطر بعد الآن سوى الملكية الاشتراكية للشعب بأكمه ؛ كما أن دائرة تداول السلع - بعد أن ضاقت بالتدريج - قد حل محلها نظام لتبادل المنتوجات . غير أنه يجب كي نصل إلى هذه المرحلة انتصار وعي جديد على الوعي القديم . ومن هنا كان .

٣ - الشرط الثالث يتعلق بالثقافة . لأننا نعلم أن الشيوعية لا يمكن أن توجد إلا إذا أصبح العمل حاجة حياتية وأصبحت القواعد الأساسية لحياة المجتمع عادات ؛ ولهذا وجب الوصول إلى ازدهار ثقافي للمجتمع ، يضمن لجميع أعضائه تنمية مواهبهم الجسدية والفكرية ، في جميع الميادين ، حتى يستطيع أعضاء المجتمع تلقي قدر كافٍ من الثقافة ليعملوا بنشاط على غو المجتمع ، ويستطيعوا اختيار مهنة لهم بحرية فلا يضطروا ، بسبب تقسيم العمل ، إلى ممارسة مهنة واحدة طيلة حياتهم^(١) .

يتفق تحويل كل مواطن إلى عامل نشيط في النمو الاجتماعي تماماً مع النظرة السامية التي تنظرها الماركسية إلى تأثير الأفكار على حياة المجتمع المادية ، كما يتفق مع نظرة الماركسية السامية أيضاً إلى تأثير الناس في التاريخ ، وإلى حرية الانسان كمبدع . يتضح أنه - إذا لم يصبح الانسان عاملاً نشيطاً ، واعياً للنمو

(١) نفس المرجع ص ١٥٧

الاجتماعي ، وإذا لم يكن حراً في اختيار عمله - فإن الملكية الاجتماعية لن تصبح قط عادة ولن يصبح العمل حاجة .

ماذا يجب كي نصل إلى هذه النتيجة ؟ يجب « تغييرات جذرية في حالة العمل » (ستالين) .

أ) تخفيض ساعات العمل اليومي إلى ٦ ساعات على الأقل . ثم إلى ٥ ساعات . مما يسمح لكل فرد أن يكون لديه متسع من الوقت لتلقي ثقافة شاملة ؛ غير أنه يجب من أجل ذلك .

ب) جعل الثقافة البروليتكنيكية جبرية كما تنبأ بها فورييه وماركس ؛ إذ يجب على كل فرد من المجتمع أن لا يعرف بصورة سطحية بل بصورة علمية (لما كانت النظرية والتطبيق العملي غير منفصلين قط) مبادئ في فروع التقنية الصناعية التقدمية الكبرى ، وان يتمثل العلوم الاجتماعية وأفضل ما في الحضارة الشاملة . وهكذا يستطيع كل فرد أن يختار بحرية مهنة له فلا يظل طيلة حياته يمارس نفس النشاط . ومع ذلك ، يجب أيضاً ، لتحقيق أفضل الشروط للدراسة .

ج) تحسين ظروف السكن بصورة جذرية وأخيراً .

د) مضاعفة أجر انعمال الحقيقي ، وربما زيادته فوق ذلك ، وذلك برفع الأجر مباشرة وتخفيض سعر السلع الكثيرة الاستهلاك مما يمهّد للرخاء الشيوعي .

ولنلاحظ أن انشاء التعليم البروليتكنيكي ، الذي بدأ مشروع الخمس سنوات ، يمهّد لزوال الفرق الأساسي بين العمل الفكري والعمل اليدوي ، بين العمل الصناعي والعمل الزراعي . فتقف عملية تقسيم العمل القديمة التي تشوه الشخصية الانسانية .

كتب ستالين ، مختصراً الشروط الثلاثة الأساسية ، يقول :

متى تحققت فقط جميع هذه الشروط اللازمة في مجموعها نستطيع أن نأمل في أن يصبح العمل في أعين أفراد المجتمع « حاجة الحياة الأولى » (ماوكس) وليس مهمة شاقة ؛ وبدلاً من أن يكون العمل عبئاً ثقيلاً يصبح غبطة وفرحاً « (انجلز) ؛ كما ينظر جميع أعضاء المجتمع إلى الملكية الاجتماعية على أنها الأساس الأول لوجود المجتمع .

متى تحققت جميع هذه الشروط اللازمة في مجموعها، نستطيع الانتقال من الصيغة الاشتراكية القائلة : « من كل فرد حسب كفاءاته ولكل فرد حسب عمله » إلى الصيغة الشيوعية القائلة : « من كل فرد حسب كفاءاته ، ولكل فرد حسب حاجاته » .

وسوف يكون ذلك هو الانتقال التام من اقتصاد ، هو اقتصاد الاشتراكية ، إلى اقتصاد آخر سامٍ هو اقتصاد الشيوعية^(١) .

٥ - الخلاصة

ليست الشيوعية عصر سيادة تقنية يعترف بها اعداؤها على أنها سامية حقاً ، ولكنهم يصورونها على أنها لا تأبه بالانسان بل تعاديه . ليست الشيوعية قط « تنظيمًا عقلياً لقوى الانتاج » بل هي سيادة الانسان الذي أصبح أخيراً سيداً لمصيره بفضل معرفة قوانين الطبيعه والمجتمع الموضوعية .

(١) ستالين : « مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي » آخر مؤلفات ص ١٥٨ .

فالانتاج مرتبط بالانسان وحاجاته . وليس هدف الشيوعيين توزيع البؤس بالتساوي ، بل سد حاجات الجميع .

والتقنية هي لتخفيف تمب الناس وإزالته : وهكذا استخدم ، في الاتحاد السوفياني ، خلال ثلاث سنوات ، ١٦٠٠ نموج جديد من الآلات لتخفيف الجهد الانساني .

الشيوعية هي الانسان وقد تحرر من أوصاب الملكية الخاصة ومن عبودية الماضي الروحية . ولما كانت واثقة ، عن طريق التجربة ، بأنها لا تعمل من أجل أقلية من المستغلين ، بل من أجل خير المجتمع ، فإنها تحقق أعظم المشاريع .

تولد الشيوعية كنتيجة لعمل ملايين العمال الواعي الخلاق . ولهذا كانت نظرية التلقائية القائمة علي اطلاق الحرية (*laisser - aller*) غريبة علي تكوين الاشتراكية الاقتصادية^(١) .

يفوز كل انسان ، بواسطة الشيوعية ، بالحرية المدوسة ، التي هي « قوة ايجابية لتقدير فريديته الحققة » (ماركس - انجلز) . ولما كان الانسان يشترك مع امثاله في ممارسة الديمقراطية التامة ، فإنه يشترك بذلك ، بصورة واعية في تكوين مستقبله .

فهو في الوقت الذي يصبح فيه ، بواسطة استخدامه للآلة ، « سيداً للطبيعة ومالكاً لها » - كما يريد ديكاوت - فإنه يحول حياته الخاصة ويصبح سيد نفسه ومالكها . فيعكس كل فرد أجمل معالم الانسانية الكاملة .

(١) ماركسوف: تقرير الى المؤتمر التاسع عشر لحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياني من ٦٣-٦٤

يجعل اعداء الاشتراكية ، وعملاؤهم من كل نوع، من الاشتراكية نظاماً يقضي على الفرد . وليس هناك من نظرة اكثر بدائية ولا اكثر سذاجة من هذه النظرة، فلقد أصبح واضعاً ان النظام الاشتراكي قد ضمن تحرير الشخصية الانسانية ، وتفتح الابداع الفردي والجماعي ، وأنه أوجد الظروف المواتية لنمو المواهب التي تملكها الجماهير الشعبية في كل الميادين^(١).

هذه الفكرة هي التي أوجت لأليوار هذه الأبيات :

نلقي بحطب الظلمات في النار
ونحطم افعال الظلم الصدئة
فسوف يقبل الناس لا يخافون أنفسهم
لأنهم واثقون من جميع البشر
فلقد زال العدو في صورة الانسان

وحسب قول النجلز ، الذي أشار اليه موديس توديز في المؤتمر الحادي عشر للحزب الشيوعي الفرنسي، فإن النضال من أجل الحياة الفردية ينتهي بواسطة الاشتراكية والشيوعية . فيخرج الانسان عندئذ من مملكة الحيوان ، ليتخطى عن ظروف الحياة الحيوانية وينعم بظروف انسانية حقاً .

(١) نفس المرجع ص ٥٨

القسم الخامس

النظرية المالية

عن الدولة والامت

تساعدنا النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية على توضيح مسائل علوم الطبيعة وعلوم المجتمع . ولا يمكن بحث ذلك في نطاق هذا الكتاب .

ومع ذلك يهم كل واحد منا أن يقف ، قبل أن يفتلق هذا الكتاب ، أمام الحل العلمي لمسألتين قدرنا سابقاً أهميتها (ولا سيما في الدروس الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين) ألا وهما مسألة الدولة ومسألة الأمة .

ولهذا رأينا من الضروري أن نخصص لهما الدروس الخاصة التي ستقرأها • وان كان لا يجب قط فصلها عن البحث في النزعة المادية التاريخية .

الدولة (١)

١ — الدولة و « المصلحة العامة » .

٢ — الدولة ثمرة تعارضات الطبقات المتنازعة .

أ) أصل الدولة .

ب) مهمة الدولة التاريخية .

٣ — محتوى الدولة و صورتها .

أ) محتوى الدولة الاجتماعي .

ب) صورة الدولة .

٤ — نضال الطبقات والحرية .

أ) البورجوازية و « الحرية » .

ب) البروليتاريا والحرية .

(١) لم نعالج مسألة الدولة في الدرسين الثاني عشر والثالث عشر بصورة خاصة . بل احتفظنا بذلك الى هذا الدرس . ومع ذلك يجب الرجوع الى الدرسين الثاني عشر والثالث عشر ، الى الدروس التاسع عشر والعشرين والواحد والعشرين خاصة فيما يتعلق بدكتاتورية البروليتاريا ، وتحلل الدولة .

١ - الدولة و « المصلحة العامة »

تقوم عقيدة رجال السياسة البورجوازيين الدائمة عن الدولة بأن الدولة الجمهورية هي خدمة المصلحة العامة .

غير أن التجربة التاريخية تكذب هذه « النظرية » ، إذ يكفي المواطن أن يذكّروا الحكومة بمتطلبات المصلحة العامة ، كان يعترضوا ، مثلاً ، ضد إعادة تسليح النازيين ، أو أن يحتفلوا بذكرى الاستيلاء على الباستيل ، حتى يصطدموا بصوف شرطة الدولة الجمهورية . وإذا أراد العمال الدفاع عن قوتهم ، سواء كان في الصناعة الخاصة أم المصالح العامة وجدوا قمع الشرطة واستخدام الأسلحة على يد ممثلي الدولة الجمهوريه .

تستثني « المصلحة العامة » إذن في التطبيق العملي مصلحة البروليتاريا والطبقات الشعبية . إذن لهذه « المصلحة العامة » حدوداً طبقية !

كما أن الدولة لم تعد قط المدافع عن « الشرعية » . فلنفترض أن العمال قد اضطروا احتجاجاً على خرق قانون العمل ، ولكي يحافظوا على المبدأ الشرعي القائل : « لكل عمل أجره » ، وأنهم طالبوا بمساندة السلطات العمومية لهم ، لحماية هذه الوسيلة الدستورية ، التي هي الاضراب ، ضد خرق الشرعية على يد صاحب العمل . لا حاجة إلى التساؤل عن موقف الشرطة منهم ، مع أن السلطات العمومية هي ، في المبدأ ، لخدمة القانون !

كما أن عدم تطبيق قانون الموظفين يدل على أن الدولة تضع نفسها فوق القانون بعد اقراره بالاجماع !

غير أن الدولة ، في بعض الظروف التاريخية ، تصبح في خدمة المصلحة العامة . وهذا شأن الاتحاد السوفياتي . وهكذا تكون الدولة تارة في خدمة المصلحة العامة وتارة لا تكون كذلك . يجب إذن أن نخلص إلى القول بأن المعيار الذي تقاس به المصلحة العامة ليس معياراً علمياً ؛ فهناك البعض الذين يجدون من مصلحتهم أن يحددوا الدولة بصورة مناقضة للعلم .

وهكذا مر زمن وقامت بلاد كانت فيها الدولة شيئاً خارقاً للطبيعة : كضرب من القوة يمكن للإنسانية أن تعيش بدونها ، تحمل إلى الناس شيئاً لا يصدر عن الإنسان ، تلك كانت دولة الحق الإلهي ، كما كان الحال أيضاً في بلاد اليابان ، في عهد الميكادو المطلق . أما هتلر فكان يقول : « الله معنا » . كما أننا نعلم ، منذ عهد ترومان وإيزنهاور ، أن البيت الأبيض يمثل العناية الإلهية على الأرض ، وهذا من شأنه أن يسيء إلى العناية الإلهية في نظر المؤمنين !

كانت الدولة ، لأمد طويل ، كما ستظل بالنسبة لكثير من الناس ، موضع « احترام خرافي » . ومن هنا نشأ الضيق عند تحديثها . إذ أن مسألة الدولة تخطط في أغلب الأحيان بالمسألة الدينية . حتى أن أوجوست كومت ، ذا النزعة الموضوعية نفسه ، الذي كان يتجبح بأنه قد نفخ يديه من كل ما هو خارق للعادة ، قد ربط « السلطة الزمنية » ، في المجتمع ، « بالسلطة الروحية » . إذ أنه حينما تعلم كنيسة من الكنائس أن السلطة هي حق إلهي ، فإن هذا يدل ، عادة ، على عبودية تامة أمام الدولة . مثال ذلك إسبانياً في عهد فرنكو . فلقد لفتت الكنائس تابعيها احترام الدولة احتراماً دينياً . ولهذا كانت الصعوبات ، التي نلقاها ، لنهزم جيداً مسألة الدولة ، ترجع أصولها إلى بقايا النزعة المثالية الدينية .

أفلس ، في فرنسا مثلاً ، منذ زمن بعيد ، نظرية الحق الإلهي . وهناك كثير

من العلمانيين الذي يعتقدون بأنهم في منجى من كل عدوى فكرية من هذه الناحية، فالدولة، بالنسبة اليهم وبالنسبة للرسميين، تجلّ المصلحة العامة . وهو تجلّ غريب ! فالدولة فوق الطبقات ، والمصالح الخاصة ، والاحزاب ، كما يقولون ؛ غير أن الدولة إذا كانت فوق النضال الطبقي ، أي إذا كانت مؤسسة للتوفيق بين الطبقات ، يتضح من ذلك أن الدولة لا يمكن ان تتولد من المجتمع نفسه ؛ بل هي تتولد من مصدر فوق المجتمع ؛ فإذا لم يكن ذلك المصدر هو الله ، فإنه سيكون الروح ! وهكذا ليست فرضية المصلحين سوى صبغ نظرية القرون الوسطى عن الحق الالهي بصبغة علمانية ؛ تلك هي النزعة المثالية الساذجة ، التي هي صورة لبقة عن الديانة .

يجد الاشتراكيون، هنا، وزعماء الحركة الجمهورية الشعبية والرجعيون من كل نوع ، مجالاً للنتقام : الا وهي سيطرة « الروح » ؛ والنزعة المثالية عن الدولة، التي «تؤتكب» باسمها الجرائم الدائمة ضد الشعب ، كما تنتهك العدالة فيطلق «راح مجرمي الحرب» . فإذا كانت الدولة حقاً فحداً « للروح » فإنها تجسد للروح البورجوازي ، والأفكار البورجوازية !

أعلن وزير خارجية الدولة الاميركية فوستردلس ، في حديثه عن مخطط الولايات المتحدة الذي ، بأنه يتسنى « ان تقوم النزعة المثالية بالاشراف على القوة الهدامة الكامنة في المادة» . غير أن موقعي نداء ستوكهولم قد زج بهم في السجون في الولايات المتحدة !

كانت مسألة الدولة ، خلال تاريخ الفلسفة ، ومسألة استغلال الطبقات ، من اكثر المسائل تعقيداً . ذلك لأنها ، كما يقول ، لينين ، تمس ، أكثر من أية مسألة أخرى ،

مصالح الطبقات السائدة . والماركسية اللينينية هي الوحيدة التي تسمح لنفسها بالموضوعية فيما يتعلق بهذه المسألة .

لهذه المسألة أهمية خاصة بالنسبة للبروليتاريا، في المرحلة التي تتحول فيها الرأسمالية الاحتكارية . إذ يصبح العمال، عندئذ، مضطهدين مباشرة على أنهم منتجون (وليس فقط كمواطنين) على يد الدولة التي ترتبط أكثر فأكثر بالفئات الرأسمالية القوية، فتصبح البلاد الرأسمالية، في الاقتصاد الحربي - منذ وقت السلم - معسكرات حربية للعمال . فتواجه البروليتاريا في نضالها - الاقتصادي - من أجل الخبز ، مسألة الدولة والمسألة السياسية . بينما تتعلل البورجوازية ، على العكس ، بالحرب للقضاء على منظمات البروليتاريا للنضال الاقتصادي الا وهي النقابات كما حدث عام ١٩٣٩ - ١٩٤٠ .

كتب لينين يقول :

يصبح لمسألة الدولة ، في الوقت الذي تنتصر فيه الثورة ، في بعض البلاد ، كما وترداد فيه ، حدة النضال ضد الرأسمال العالمي ، أهمية كبرى وتصبح أشد المسائل خطورة ، ومحط جميع المسائل وكل المناقشات السياسية المعاصرة^(١) .

٢ - الدَّولة ثمرة تعارضات الطبقات المتنازعة

دلتنا دراسة التزعزعة المادية ، ولا سيما في الدرس الثاني عشر، على أن الدولة لا يمكن أن تأتي من خارج المجتمع ، من « الروح » أو من « الله » . كما يُشير

(١) لينين : « حول الدولة » وفي « الدولة والثورة » ، ص ١٢١ المطبوعات الاجتماعية ، باريس ١٩٤٧

المنهج الجدلي ، من ناحية ثانية ، إلى انه يجب دراسة الدولة ، في نغوها ، بصورة تاريخية .

غير أن كل هذا يظل كلاماً عاماً جداً . كما يدعي علماء الاجتماع الوضعيون البورجوازيون أنهم يعالجون ، أيضاً ، مسألة الدولة بصورة علمية : فهم يعتقدون أن تعقد الحياة الاجتماعية المستمر ، وانتقال فئات صغيرة من الناس المنعزلين إلى مجتمعات أضخم ، و « تنوع الوظائف الاجتماعية » مما يجعل الدولة ضرورية . وهكذا تكون الدولة نظام المجتمع العصبي . إذ كلما تعقد الجسم كلما ازداد دور الدماغ . فتؤدي الدولة « مهمة التنظيم » في المجتمع ، وسنرى ماذا يجب أن نعتقد بهذا الصدد .

أ— أصل الدولة^(١)

أول ما يجب أن ننظر اليه هو أن الدولة لم توجد دائماً : لم يكن يوجد ، في عصر المجتمع البدائي ، حين كان الناس يعيشون أحياء وقبائل وعائلات يسيطر فيها الأب أو الأم^(٢) ، جهاز خاص لممارسة السلطة بصورة منظمة . ومثل هذا الجهاز هو ما يسمى بالدولة .

لا شك انه كانت توجد عادات وتقاليد مثل سلطة الرئيس واحترامه واحترام سلطانه ، وكذلك احترام سلطة النساء ، غير أنه لم يكن يوجد قط رجال مهمهم الوحيد حكم الآخرين ، ولهذا يسيطرون على القوة المسلحة باستمرار .

هل يجب أن نستنتج من ذلك أنه لم يكن يوجد نظام ولا تنظيم في العمل ؟

(١) يجب موازنة هذا المقطع بالدرس الثاني عشر .

(٢) راجع الدرس السابع عشر ، المسألة ١ ، ٢ .

كلا. لأن قوة العادة والتقاليد ، وسلطة القدماء أو النساء ، والاحترام الطبيعي كان يكفي.

ومع ذلك وجدت الأسلحة . إذ ما كادت توجد الادوات ، أي ما كاد الانسان يظهر، حتى وجدت ، طبعاً، امكانية استخدامها كأسلحة. لأن العمل هو «اعتداء» على الطبيعة يتضمن امكانية الاعتداء على الانسان . ولم تكن هذه الأسلحة ، مع ذلك ، تمثل أي خطر على المجتمع . إذ أن رجال القبيلة المسلحين لم يكونوا يوجهون أسلحتهم هذه بعضهم ضد البعض . وكانت الأفكار السائدة في المجتمع البدائي ، الذي تحدثنا عنه بعض الشيء في الدرس السابع عشر ، (المسألة ١) ، تكفي لتنظيم الحياة الاجتماعية ، حتى إذا ما فكر بعض الأفراد في الخروج على القاعدة المتبعة ، كانوا يعملون على العودة لاحترام النظام بتأثير عمل الرجال المسلحين الجماعي . ولم يكن هناك أي شخص مختص بهذه المهمة لعدم وجود الدولة .

فلماذا لا يمكن ، اليوم ، تأمين القيام « بوظيفة التنظيم » الغالية على نفوس علماء الاجتماع ، كما حدث في الزمن الغابر ، بواسطة تنظيم الشعب التلقائي ، فيقوم بتأمين النظام في العمل وفي الحياة الاجتماعية ، وبواسطة مركز لتخطيط النشاط الاقتصادي يشرف عليه هذا التنظيم ؟

أم هل يكون العصر الذهبي الذي تحدثت عنه الخرافة القديمة قد ولى إثر الخطيئة الأصلية ؟

نلاحظ أن الاحترام القديم ، لم يعد في وقت من أوقات التاريخ ، كافياً للمحافظة على نظام العمل . فأصبح من الضروري الاستعاضة عن قوة العادة والتقاليد وعن السلطة القائمة على التجربة بقوة خاصة طبيعية تمارس الجبر وتوحي بالخوف . ومست

الضرورة لانشاء. احتكار للأسلحة واستخدامها لمصلحة فريق من الناس رُفِعوا إلى
مركز خاص أو تميزوا عن سائر الناس . فلماذا فرضت هذه التغييرات نفسها ؟

تلك هي المسألة الحقيقية التي يهمل علماء الاجتماع معالجتها. إذ أنه إذا كان الاحترام
القديم للسلطة الطبيعية قد زال ، وإذا كان تنظيم الشعب التلقائي المسلح قد أصبح
خطراً فحرم استخدامه ، فما ذلك إلا لأن التعاون في العمل قد انتهى ، وحل محل
علاقات الانتاج القائمة على الملكية المشتركة علاقات جديدة للانتاج قائمة على
الملكية الخاصة واستغلال الانسان للانسان : فالنزعة المادية التاريخية هي الوحيدة ،
إذن ، التي تستطيع الاجابة علمياً على مسألة أصل الدولة .

وهكذا ندرك تماماً كيف أن السلطة القديمة القائمة على الاحترام الطبيعي قد
انهارت يوم أن بدأ استغلال الانسان للانسان ، وحلت محلها السلطة القائمة على الخوف .
ومنذ ذلك اليوم توقف تنظيم جميع السكان التلقائي بالأسلحة ، لأن أمرى الحرب
قد جُردوا من سلاحهم بعد أن أصبحوا ارقاء . ولم يعد يملك السلاح سوى الاسياد
الذين يملكون وسائل الانتاج . ولهذا نرى في هذه الايام ، في البلاد الخاضعة للاستعمار ،
في مدغشقر ، وتونس ، ومراكش ، والجزائر الخ.. المستعمرين يتسلحون بأنفسهم
ضد الرقيق المستعمرين^(١) .

ولم تقبل قط القبائل التي تقدر الأب أو الأم ، من تلقائهما ، الرق . ولم يرض
العبيد قط أن يُساقوا إلى أسواق النخاسة .

(١) نتحدث هنا عن قضية السلاح ، ويجب ان نشير إلى ان الاضطهاد الاستعماري يتنازع بان الشرطة ،
والجيش ، والمداة والادارة والتليم هي في خدمة المستعمر ضد المستعمر .

ولهذا يجب اكراه الرقيق للحصول على العمل المرجو منهم . يضاف إلى ذلك أنه إذا أراد الاسياد ضمان الاستقرار الضروري لكل انتاج في النظام الاجتماعي ، كان من المناسب اقناع الرقيق ان مثل هذا النظام عادل ، وأنه يمثل الاستقرار؛ كما يجب وضع القواعد التي لا تنتهك لتحديد سلوك الناس في علاقاتهم الاجتماعية ، مما يضمني الخلود على علاقات الانتاج الجديدة . وهكذا تولدت الفكرة الميتافيزيقية عن حق الاسياد المطلق على رقيقهم، تلك الفكرة التي نشأت من حق المنتصر القديم على المهزومين . وأصبح من الضروري - لتمثيل مصلحة طبقة الاسياد كطبقة مستقلة عن ارادة الافراد الذين يؤلفونها - إقامة القوانين التي تحدد واجبات المستغلين وحقوق المستغلين. وتكون هذه القوانين أساس الاضطهاد ، كما تضمن له تحقيقاً غير مشروط، بعيداً عن « أطوار » نضال الطبقات وعدم استقرار القوة المؤقت . وهكذا يمكن التمييز عن ضعف قوة الطبقة السائدة المادي العابر بالخوف من القوانين :

كما كان يجب أن 'تحترم هذه القوانين لذاتها . ولقد أشار مفكر قديم هو كريتياس (Critias) إلى أن الناس قد سنوا قوانين لنشر العدالة، لم تبلغ هدفها سوى جزئياً . وكانت هذه القوانين تمنع من ارتكاب الظلم علناً، ولكنها لم تمنع من ارتكابه بالحقبة . وهنا فكر حكيم مجرب بأن يوحى إلى الناس خشية الآلهة التي تعلم كل شيء . حتى إذا ما اقنعهم انه حتى اسوا المشايخ التي تحاك في السر تعلمها الآلهة أيضاً ، كف خرق هذه القوانين^(١).

يعكس قول كريتياس حقيقة عميقة : أصبح للآلهة التي كانت الحجة الانسانية

(١) ذكره 54 ; lx « Sextus Empiricus » في « Sisyphé »

تفسر بها قوى الطبيعة وتقلب المصير ، وظيفة جديدة بظهور الطبقات : إذ أصبحت هذه الآلهة قائمة على حفظ النظام الاجتماعي ، والضامنة للفروق الطبقية ، والقضاء الذين يحكمون المضطهدين في الآخرة ، وان كان هؤلاء القضاء شركاء الظالمين المضطهدين . ويقوم هؤلاء المضطهدين بتلقين الشعب الخوف من الآلهة ، ويؤكدون الخرافة القائلة بأنهم على اتصال غريب بهذه الآلهة .

وهكذا يتم الحقُ القوةَ ويكرسها ، كما ان الدين يتم الحق ويكرسه : فإذا ما تمت طريقة الانتاج الذي يعتمد على الرقيق وقام مجتمع الرقيق ، وحملت الخرافات والادهام الرقيق على الطاعة فأصبحت لهم ، بفضل اعتمادهم على العبودية ، كما يقول روسو ، عقلية الرقيق ، قامت شرائع خاصة من الرجال المسلحين ، فكان منها رجال الشرطة المكلفون بمعاينة الارقاء الفارين ، وحل هؤلاء الرجال المسلحون محل تسليح الملاك الدائم . ومع ذلك لم يتخلّ قط الملاك عن حقه في أن يكون له حرسه الخاص المسلح : وهكذا نرى ، اليوم ، كبار الرأسماليين الاميركان لهم شرطتهم الخاصة في اماكن الاستغلال القطنية والزراعية .

ينتج ، إذن ، من استعراض الوقائع التاريخية ، ان الدولة ، في جميع المجتمعات الطبقية المتناحرة ، تصبح جهازاً لحكم المستغلين ، خرج من المجتمع الانساني ثم تميز عنه تدريجياً . وهو يفترض وجود فئة خاصة من الناس ، وهم رجال السياسة ، همهم الوحيد الحكم ، ولهذا يستخدمون جهازاً وضع « لاختضاع ارادة الآخرين للقوة »^(١) . ويحتوي هذا الجهاز على الشرطة والجيش الدائم ، والسجون والمحاكم ؛ يضاف إلى ذلك أجهزة الضغط الفكري : وهي التعليم والصحافة والاذاعة ، الخ . .

(١) لينين : « حول الدولة » في « الدولة والثورة » ص ١١٣

وبجمل القول :

١ - لم توجد الدولة دائماً .

٢ - لا يظهر جهاز الدولة إلا في المكان والزمان اللذين يظهر فيها ، في المجتمع ، تقسيم المجتمع إلى طبقات متناحرة ، كما يظهر الاستغلال الطبقي .

كتب انجلز يقول :

ليست الدولة ، إذن ، سلطة فرضت من الخارج على المجتمع ؛ وليست هي « حقيقة الفكرة الاخلاقية » ، أو « صورة حقيقة العقل » ، كما يدعي هيجل . بل هي ثمرة المجتمع في مرحلة معينة من نموه ؛ وهي الدليل على أن هذا المجتمع يتخبط في تناقض مع نفسه يستعصي على الحل ، بعد ان انقسم إلى اضداد لا يمكن التوفيق بينها ويعجز عن السيطرة عليها ، ولهذا مست الحاجة ، كي لا تنفك الاضداد ، وهي الطبقات ذات المصالح الاقتصادية المتعارضة ، والتي هي في نضال مجذب " مع المجتمع ، إلى سلطة ، تسو في الظاهر على المجتمع ، لتغطية النزاع وحصره ضمن حدود « النظام » ؛ وهذه السلطة التي ولدت من المجتمع ، ولكنها تسو عليه وتصبح غريبة عنه ، هي الدولة^(٢) .

وقد اختصر لينين في صيغة موجزة النظرة العلمية لأصل الدولة ، قال :

(١) يدل قانون الترابط الضروري بين علاقات الانتاج وطابع قوي الانتاج ان استغلال الانسان للانسان يقوم ، في بض المصور ، بمهمة تاريخية .

(٢) انجلز : أصل العائلة ، والملكية والدولة ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ . المطبوعات الاجتماعية .

باريس ١٩٥٤

الدولة هي ثمرة التعارضات الطبقة المتناحرة ومظهرها^(١).

يجب إذن ، كي ندرك أصل الدولة ، أن ننظر في قوانين الإنتاج الموضوعية ، التي تولد ، في مرحلة من مراحل غرقوى الإنتاج ، الملكية الخاصة واستغلال الانسان للانسان ، وبالتالي ، ضرورة توطيد دعائم هذه الملكية الخاصة . الدولة ، إذن ، هي نتيجة تاريخية ضرورية لنمو المجتمع الاقتصادي ؛ وهي لا تفسر قط « بالخطيئة الأصلية » و « الإرادة الآلهية » و « الفكرة الاخلاقية » و « وظيفة التنظيم » .

وهذا ما لا يفهمه القوضيون ، أسرى النزعة المثالية على المستوى النظري . وكما أن انصار الدولة البورجوازية يدعون بأن الدولة ضرورية لحصر رداة الانسان وخبثه الاصليين ؛ وكذلك يرى القوضيون في الدولة ثمرة قوة شريرة ، « و غريزة السيطرة » . فهم يفصلون الدولة عن أساسها الطبقي ، ويعتبرونها قوة مستقلة تعمل لمصلحة الذين يتوصلون إلى السيطرة والاستيلاء عليها . فهم ينكرون أصل الدولة التاريخي وضرورة ظهورها الموضوعية في فترة معينة .

يؤدي ذلك إلى نتيجة مهمة على المستوى العملي : إذ يفضل القوضيون النضال ضد الدولة البورجوازية عن النضال الطبقي والنضال الشعبي . فهم يقيمون في وجه الدولة - في - ذاتها الفرد ، ويدعون إلى طريقة في النضال تقوم على الاعمال الفردية . فتكون النتيجة السياسية لذلك ان تصبح القوضوية مريعاً تعلقه سهلة لعملاء البورجوازية المشاغبين في الحركة العالمية . كما تؤدي ، من جهة ثانية ، المعارضة القوضوية للدولة - في - ذاتها ، أي معارضة الفرد والجمهير ، إلى معاداة السلطة

(١) لينين : الدولة والثورة ص ١٢

الاشتراكية وهي سلطة العمال والفلاحين . فتكون النتيجة السياسية لذلك ان تستخدم القوضوية كتمة للارهاب المناهض للسوفييات . وهكذا تلتي ، بالرغم من الظواهر ، « نظريات » المؤرخين البودجوازين الذين يرون ، في حرب ١٩١٤ ، مثلاً ، نتيجة « لارادة القوة في الدولة » ، والتغني بالثورة من أجل الثورة في كتاب « كامو » « الانسان الثائر » المناهض للسوفييات .

ولنشر مع ذلك ، إلى ان هذا التقديس الذي يجعل من الدولة قوة قائمة بنفسها ، وتجهيذاً « للفكرة » ، كما تقول الفكرة الخاطئة المثالية ، يعتمد على ميزة خاصة أشار اليها انجلز في النص المذكور اعلاه . ولندكر ان قوة الدولة المادية ؛ لوحدها ، لا تكفي . وهذا ما برهنت عليه جميع الثورات الكبرى . فقد أثارت ، في وضع النهار ، مشكلة العلاقات بين « شرازم الرجال المسلحين الخاصة » وبين « تنظيم الشعب بالسلاح من تلقاء نفسه » . فدلّت على أن نهاية النضال ، في مثل تلك الحال ، مريعة وليست في صالح الطبقة المستغلة . أما إذا كانت قوة الدولة ، على العكس ، يساندها قسم من الشعب ، فإن التاريخ يدلنا على الحروب الاهلية التي يحوم الشك حول نهايتها . وهذا يعني انه إذا اعتبر المستغلون الدولة كما هي ، أي اداة لاستعبادهم ، فإن هذا يزعزع سيطرة المستغلين بصورة خطيرة . لا يحتاج هؤلاء المستغلين ، إذن ، لسلطان جهاز الدولة فقط بل إلى اظهار هذا الجهاز على أنه جهاز الدولة الاسمي ، وإلى اثارة الخوف منه . يجب ان تضع الدولة نفسها ، في الظاهر ، فوق المجتمع ، وفوق الزان النضال الاجتماعي . كما يجب ان تبعد اكثر فأكثر عن المجتمع ، وان تحيط نفسها بهالة من الأضرار ، فتبدو كأنها قوة سماوية تحلق فوق جبل من الغيوم والبروق ، يركع أمامها كل الناس . وفي كل مرة يحدث فيها مثل ذلك ، تقوم الطبقات السائدة بتأليه رئيس الدولة . حتى إذا لم يعد

ذلك يمكننا تعلت « بالمصلحة العامة » الغريبة التي لا يدركها عقل عامة الناس !
ذلك هو عماد النظريات المثالية عن الدولة . ويدل الحاح الطبقات السائدة
على تصوير الدولة كأنها تجسيد قوة عليا ، على أن هذه الطبقات تعلم جيداً أن قوة
الدولة الحقيقية إنما تقوم على دعم الرأي العام لها وعلى ما لها من رصيد أمام الجماهير
وما تتمتع به من ثقة ، أي أن قوة الدولة تقوم على أفكار . ولنتسرع إلى « لانييل »
الرأسمالي ورئيس الحكومة ، كيف خاطب المضربين في آب سنة ١٩٥٣ :

« عليّ أن اخاطبكم الآن بلغة الدولة ، لأن الدولة ، والدولة وحدها ، هي التي
يجب أن تحكم في الخصومات بين المصالح الخاصة ، في الديمقراطية » .

وهكذا تصبح مصالح الرأسمالي « لانييل » الخاصة هي التي تدافع عنها الدولة .
وهو يعترف بذلك في دعوته إلى « تحكميم » الدولة . أولاً تعبر مطالب ملايين العمال
المشروعة إلا عن مصالح خاصة ؛ كما لو أن مصلحة الذين يعملون ليست أصدق تعبير
عن المصلحة العامة . يبحث « لانييل » ، في قلبه لعناصر المشكلة ، عن مساندة الجماهير
له أو قسم منها ، لأنه بدون هذه المساندة لا يمكن أن يستمر حكم الطبقة السائدة .
ولهذا كان من الضروري أن تدافع الدولة الرأسمالية عن مصالح الرأسماليين الخاصة باسم
المصلحة العامة ؛ ولكي تكف الجماهير عن مساندة الدولة البورجوازية يجب
شيثان :

١ - أن تدرك هذه الجماهير أن « المصلحة العامة » المزعومة التي تدافع عنها
الدولة ليست إلا مصلحة الرأسماليين .

٢ - أن تهم أن مصلحة الرأسماليين لم تعد ، منذ أمد طويل ، تتفق مع
مصلحة الأمة .

ب - مُهِمَّةُ الدَّوْلَةِ التَّارِيخِيَّةِ (١)

نحْدِثُنا عن مِهمَّةِ الدَّوْلَةِ في جَدِيدِنا عن أَصلِها . هذا ما تَطْلُبُهُ الجَدِيدَةُ لِأَنَّ الدَّوْلَةَ وُلِدَتْ ، على التَّحْقِيقِ ، لِمُواجِبَةِ مُشْكَلَةٍ ظَهَرَتْ في المِجْتَمَعِ ، ولكي تَقْوِيَ سِيطَرَةَ المُسْتَغْلِينَ الاجْتِمَاعِيَّةِ ، ونِظامِ المِلْكِيَّةِ الَّذِي يَضْمَنُ لَهُمُ امْتِيازاتِهِمْ . الدَّوْلَةُ هِيَ انْعِكَاسُ الأَسَاسِ الاقْتِصَادِيِّ ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ انْعِكَاساً سَلْبِيّاً ، بَلْ هُوَ انْعِكَاسُ فِعَالٍ . وَلِهَذَا كَانَ مِنَ الْمَقِيدِ ، كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي دِرَاسَةِ الأَفْكَارِ فِي الْحَيَاةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ ، أَنَّ لَا نَحْطُ بِمِهمَّةِ الدَّوْلَةِ وَأَصْلِها دُونَ أَنْ نَفْضَلَ بَيْنَها . ذَلِكَ لِأَنَّ الدَّوْلَةَ ، فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالأَصْلِ ، مُشْتَقَّةٌ بِالنِّسْبَةِ للاقْتِصَادِ ، وَلَكِنَّها فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالمِهمَّةِ ، فَإِنَّ هُنَاكَ حَالَاتٍ تَصْبِحُ فِيمَا أَمْهِمَّةِ الدَّوْلَةِ أَساسِيَّةً ، لَهَا أَثَرُ فِعَالٍ . وَلِهَذَا لَا يَجِبُ أَنْ يُؤَدِّيَ الْقَوْلُ بِأَنَّ الدَّوْلَةَ هِيَ انْعِكَاسُ للاقْتِصَادِ إِلَى التَّغْلِيلِ مِنْ قِيَمَةِ تَأْثِيرِها عَلَى الاقْتِصَادِ .

يَقُولُ النِّجَازُ أَنَّ مِهمَّةَ الدَّوْلَةِ هِيَ « تَخْفِيفُ التَّزَاوُعِ بَيْنَ الطَّبَقَاتِ » وَاتِّمَحُصِرُ هَذَا التَّزَاوُعُ ضَمْنَ « حُدُودِ النِّظامِ » وَلَا يَعْني هَذَا ، كَمَا دَلَّلَ لِينِنْ ، أَنَّ الدَّوْلَةَ هِيَ مَنظُومَةٌ لِلتَّوْفِيقِ بَيْنَ الطَّبَقَاتِ . بَلْ يَعْني هَذَا العَكْسُ !

فَلَوْ أَنَّ « التَّوْفِيقَ بَيْنَ الطَّبَقَاتِ » كَانَ مُمْكِنًا ، لَمْ تَمَسَّ الْحَاجَةُ قَطُّ إِلَى الدَّوْلَةِ .

وَيَعْني الْقَوْلُ : « تَخْفِيفُ التَّزَاوُعِ بَيْنَ الطَّبَقَاتِ » تَخْفِيفَ حِدَّةِ هَذَا التَّزَاوُعِ ، أَيِ حَرَمَانِ الطَّبَقَاتِ المُسْتَغْلَةِ مِنْ وَسَائِلِ النِّضَالِ الَّتِي تَسْمَحُ لَهَا بِالتَّخْلُصِ مِنْ مُسْتَغْلِيها . نَحْنُ هُنَا ، إِذَنْ ، أَمَامَ كَمِّ نِضَالِ الطَّبَقَاتِ المُسْتَغْلَةِ . وَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ ؟ بِتَرْكِ المِيدَانِ أَمَامَ عَمَلِ المُسْتَغْلِينَ ، وَبِتَوْسِيعِ الاضْطِّهَادِ وَتَمْتِيتِهِ وَتَقْوِيَتِهِ ، وَلَا سِوَا عِنْدَمَا

(١) يَجِبُ مَقَارَنَةُ هَذَا المَقْطَعِ بِالدَّرْسِ الثَّالِثِ عَشَرَ .

لم تعد علاقات الانتاج تتفق وحالة قوى الانتاج.

ذلك هو مازق الطبقات الرجعية : ملء السجون « لترواح » ، وتزيد من ملء السجون أيضاً حتى تقضي على الخوف الذي تثيره فيها السجون الملائى ! ذلك هو « النظام » و « السلام » في نظرها ، وهو نظام يجعل الاضطهاد شرعياً ، وقد أقيم هذا « النظام » لتوطيد الاضطهاد فإذا به يزعه . فيؤدي تخفيف النزاع إلى زيادة خطورته^(١) .

والخلاصة ان الدولة ، حسب رأي ماركس ، هي منظمة للسيطرة الطبقة ، ولاضطهاد طبقة على يد طبقة أخرى^(٢) .

تمثل الدولة القوة القائمة المنظمة الشرعية . وهي أداة لا للتوفيق بل للنضال الطبقي .

وهنا يخطر لنا سؤال وهو: من هي الطبقة التي تستطيع، في كل مرحلة من مراحل النمو التاريخي، ايجاد هذه الاداة وتغذيتها واستخدامها ؟ كل طبقة مستغلة بحاجة للدولة ولكنها لا تستطيع تغذيتها دائماً .

ويجب انجاز على ذلك بقوله انه لما كانت الدولة قد ولدت من الحاجة الى لجم تعارضات الطبقات، وكما أنها ولدت وسط نزاع الطبقات، فهي دولة الطبقة الاقوى، تلك التي تسيطر من الناحية الاقتصادية والتي تصبح بفضل هذه السيطرة الاقتصادية الطبقة المسيطرة سياسياً ، فتحصل بذلك على وسائل جديدة لكبت الطبقة المضطهدة

(١) نعم عندئذ مغزى تغذير ستالين المشهور بصدد الفاشية ، وهي دليل على ضعف الحركة العمالية النسبي، ولكنه دليل أيضاً على قوة هذه الحركة وضعف الاحتمالية العام .

(٢) لينين : الدولة والثورة ص ١٣

واستغلالها^(١).

على العلم التاريخي ، إذن ، في كل مرحلة ، ان يجيب بجواب محسوس .
مثال : الدولة الحديثة بحاجة الى مصروفات تنفق على الجيش والشرطة والموظفين.

ولا تستطيع الطبقة السائدة ان تحتفظ بهذه الأداة واستخدامها إلا بقدر ما تسح علاقات الانتاج التي تمثلها ، والتي تريد انقاذها ، بالصرف عليها ، ولهذا كانت الطبقة المسيطرة سياسياً هي الطبقات المسيطرة اقتصادياً . ومن هنا كانت بعض النتائج :

١ - حين تبلغ طبقتان متناحرتان شيئاً من الاتزان من الناحية الاقتصادية ، يمكن للدولة ان تتمتع ، بعض الوقت ، بشبه من الاستقلال نحو هاتين الطبقتين : كانت تبدو ملكية لويس الرابع عشر المطلقة انها تستطيع ان تكون الحكم بين الاقطاعيين المستقلين للرفيق وبين البورجوازيين ؛ فكان الملك يمكنه القول : « الدولة أنا » .

وكان هذا يعني ، في الواقع ، انه قد أصبح للبورجوازيين بعض التأثير في الدولة الاقطاعية لانهم كانوا يصرفون عليها ، ولانهم كانوا يقرضون الملك المال ؛ ولكنهم ، مقابل ذلك ، لم يكونوا يستطيعون ، بدون حماية الدولة ، الاقطاعية ، تنمية التجارة والصناعة اليدوية ، وهكذا حصل البورجوازيون ، مقابل دعمهم المالي للنظام الاقطاعي ، على امتيازات تجارية حملت في احشائها بذرة نهاية النظام الاقطاعي ! وقد اتخذ النضال بين الطبقتين المستقلتين ، في ذلك الوقت ، طابع حاجة

(١) المجلد : أصل العائنة . ص ١٥٧ .

كل منها للآخرى ؛ وكان الحال في سنة ١٧٨٩ ، بعد مضي قرن ، يختلف عن ذلك . فقد أصبحت البورجوازية مهيمنة اقتصادياً ، ففقدت الازدواج عن الدولة الاقتصادية ، وعملت على إسقاطها . ولا يجب أن ننسى ، مع ذلك ، أن التناغم المؤقت بين النبلاء والبورجوازيين كان دائماً يتم على ظهر الفلاحين وهم الطبقة المستغلة .

٢ - الدولة ، بين يدي الطبقة المستغلة ، هي وسيلة إضافية لاستغلال الطبقات المضطهدة . ولهذا كانت الضرائب ، والجزاوات ، ومصاريف العدالة ، الخ ... وسائل لحل المضطهدين على دفع مصاريف اضطهادهم ، في صورة مشاركة في مصاريف المجتمع العامة . ويتضح هذا أكثر في أيامنا حيث نرى ميزانية فرنسا الحربية الضخمة تعني أن الأمة تدفع مصاريف حرب (حرب الفيتنام ^(١)) وتسليح (ضمن نطاق ميثاق الأطلسنطي الاعترافي) كل ذلك لمصلحة البورجوازية المستعمرة وحدها . كما أن الشعب هو الذي يدفع أجور الشرطة التي تنهال عليه بالعصي باسم المصلحة العامة . وهكذا تضرب الدولة العمال « لمصلحتهم » ... وعلى نفقتهم ! ومع ذلك لا يمكن لهذا الاستغلال الإضافي أن يكون إلا في دولة الطبقات المستغلة وينتج عن الاستغلال نفسه .

ليس الاستغلال ، على عكس ما كان يعتقد بلمكي ، الضريبة بل هو الاستهلاك الخاص للعمل غير المدفوع أجره .

٣ - تبدأ الطبقة الحاكمة بالخوف على سيطرتها السياسية متى ما أصبحت علاقات الإنتاج التي تمثلها ، والتي أصبحت بفضلها مهيمنة اقتصادياً ، قديمة ، أي حين يظهر الخلاف بين علاقات الإنتاج وطابع قوى الإنتاج . حتى إذا ما تفاقم هذا الخلاف

(١) وحرب الجزائر مؤحراً (العرب) .

نشأت مشكلة الدولة بصورة حادة . وتظهر عندئذ الامكانية المادية على ان سلطة الدولة قد افلست من أيدي الطبقة المسيطرة .

ولهذا فنحن حين نتحدث عن الطبقة الاقوى اقتصادياً فلا يجب ان يُفهم هذا القول بصورة تخطيطية . فالطبقة « الاقوى » هي الطبقة التي تستطيع ان تدفع بنمو قوى الانتاج الى الأمام ، والتي تمثل علاقات الانتاج الجديدة . حتى إذا لم تعد البورجوازية تستطيع تنمية قوى الانتاج لم يعد بالامكان القول بأنها « قوية » اقتصادياً ، كما لم يعد بالامكان القول ان الاقتصاد الرأسمالي ، الذي يسيطر على المجتمع ، سليم . بل هو ، على العكس ، اقتصاد منحط ، وهذا يعني ان سيطرة البورجوازية الاقتصادية أو السياسية تقارب نهايتها .

غير انه يظهر عندئذ ، في وضع النهار ، تأثير الدولة على الاقتصاد . إذ لا تقف الدولة موقفاً سلبياً أمام المصير الذي تردى فيه أساسها بل هي تقف موقفاً فعالاً فتدافع عنه بشدة .

حين تكون علاقات الانتاج متفقة مع طابع قوى الانتاج تسمى سياسة الطبقة الحاكمة ، التي تمثل هذه العلاقات ، الى نحو الانتاج وتوسيع الصناعة ، مثال ذلك نضال البروليتاريا من أجل التبادل الحر .

حتى إذا لم تعد علاقات الانتاج تتفق وطابع قوى الانتاج ، فإن سياسة الطبقات المستغلة الاقتصادية تسمى الى تعطيل عمل قانون الترابط الضروري ، وذلك باتخاذ اجراءات تعيق نمو قوى الانتاج .

وهكذا حاول رأس المال ، في مرحلة المخطاط الرأسمالية ، وهو المشرف على الدولة التي لم تكن سوى اداة بين يديه ، ان يحل مشاكل الرأسمالية الاقتصادية

بصورة تتفق ومصالحه ، مضجياً من أجل ذلك بمصالح الأمة . فإذا بالدولة ، وهي التابعة للاحتكارات ، تحاول ان تسيطر على الحياة الاقتصادية ، وليس ذلك لامكانية تخطيط « الرأسمالية » بل من أجل حماية مصالح الوليغارشية المالية ، وقد استولت هذه على فوائد ضخمة . فالدولة التي تشرف عليها تضمن لها احتكار اصدار عملة الدولة ، كما ان الدولة تكلفها باعداد التسلح وتقديم العدد الحربية كما تعفيها من الضرائب ، وتحدد لمصلحتها أسعار الجملة والفرق ، وتبئها بثن بخص منتوجات الصناعة المأتممة (الكهرباء ، والفحم) ، وتتخذ الاجراءات للقضاء على منافسها ، وتمدها بالاعانات ، وتلاعب بالعملة ، وتفاوض لحسابها مع البلدان الأخرى ، وأخيراً تحدد الأجور كما تريد ؛ حتى ان كل بولييتاري يصطدم بالدولة في طريقه خلال نضاله من أجل العيش .

تهتدي الدول ، في عصر الاستعمار ، في عملها ، بضرورة انقاذ الرأسمالية ولا سيما تأخير ساعة الازمة الاقتصادية . الدولة هي الاداة الرئيسية لحراب غالبية سكان البلاد وافقارهم واستعباد البلاد المستعمرة ونهبها بصورة منظمة ، ونضال الرأسماليين المحتكرين ضد الرأسماليين الغير المحتكرين ، وهي أخيراً اداة النضال بين المستعمرين الالداء ، ووسيلة للحروب واخضاع الاقتصاد القومي للتسلح . ولكي تستطيع الدولة القيام بكل هذه الأعباء ، تظل اداة لاضهاد البرولييتاريا والطبقات العاملة .

وهكذا تصبح الدولة سداً يحمي الطبقة المستغلة ، وهي تقوم بدور فعال للدفاع عن طريقة الانتاج البالية . كما تصبح الدولة ، التي كانت اداة لسيطرة الطبقة الاقوى اقتصادياً ، وسيلة للمحافظة على هذه القوة الاقتصادية . بينما تقوضت هذه القوة في الأساس بتنخفضات طريقة الانتاج . وإذا كانت شروط تغيير طريقة

الانتاج متوفرة ، فإن عمل الطبقة المستغلة ، التي تعارض في تطبيق قانون الترابط الضروري، وعمل الدولة البورجوازية، يصبحان العائق الأساسي للتغيرات الضرورية. ولهذا وجب القضاء على هذا العائق ، غير أنه يجب ، من أجل ذلك ، توفر شروط ذاتية، وهي نضال الطبقة العاملة السياسي لتنظيم سياسياً في حزب طبقي وتنظم الجماهير الشعبية ، وتدافع عن الحريات الديمقراطية وتوسع من نطاقها ، وأخيراً كي توجد سلطتها الخاصة كدولة .

ولامتلك هذه الدولة ، في أول عهدها ، أي أساس اقتصادي خاص بها ، اشتراكي ، ولهذا يجب عليها أن توجد أساسها الخاص بها . يضاف إلى ذلك ، أنها لا تستطيع أن تقوم إلا بتأييد الجماهير العاملة الواعي . ولهذا يجب على الأفكار السياسية الجديدة، التي تتقدم بها الطبقة العاملة، أن تكون قد سيطرت على غالبية الشعب ، أي أن غالبية الأمة لم تعد تؤيد السياسة البورجوازية أو تثق بها . ولهذا تجعل الماركسية ، بحق ، مسألة الدولة من ضمن الشروط الذاتية لتغيير طريقة الانتاج .

هذا ما تعلمنا إياه الجدلية ؛ وهو ان الدولة ، مع أنها دائماً انعكاس لاساس اقتصادي معين ، فإن حل مشكلة الدولة والمشكلة السياسية يجب، في حالات معينة ، أن يسبق تاريخياً بناء الأساس الاقتصادي الذي سيكون خاصاً بالدولة الجديدة .

وهذا ما لا يمكن أن تدركه النزعة المادية الساذجة : فهي إذ تعتمد على الفكرة القائلة بأن الدولة ثمرة نمو المجتمع الاقتصادي ، فإنها تستنتج من ذلك ان التناقضات الاقتصادية يجب أن تكون ميكانيكية ، وأن تؤدي ، حتماً ، إلى تغيير طريقة الانتاج ، وان الاشتراكية ستولد تلقائياً من « تحلل الرأسمالية » . وهي

بهذا تنسى أن عمل الناس يمكنه ان يعيق تطبيق القوانين الاقتصادية ، وان
البورجوازية يمكن أن تمتد ، بتأثيرها السيامي وبما تملكه من وسائل ضخمة تضعها
الدولة الحديثة بين يديها ، فترة زوال الأساس الاقتصادي ، ولهذا فهي بهذا تستخدم
البورجوازية . ويؤدي التيار الاقتصادي ، في الحركة العالمية ، إلى نفس النتيجة
بانكاره ضرورة نضال البروليتاريا السيامي ضد الدولة البورجوازية ، وهو بهذا
يغذي النزعة الانتهازية ، ويجعل الطبقة العاملة تبعا للبورجوازية ؛ كما أنه ، في نفس
الوقت ، يقف في وجه سلطة الطبقة العاملة السياسية ويتردى في النزعة المناهضة
للسوفيات . ولهذا يشجع هذا التيار صنائع البورجوازية في الحركة العالمية ، وزعماء
الاشتراكية الديمقراطية المصلحين .

والخلاصة من كل ذلك هي ضرورة النضال السيامي الماسة . غير أنه لا ننسى ،
من ناحية ثانية ، ما رأيناه سابقاً : وهو ان الدولة لا يمكنها أن تقوم بدورها إلا
إذا قبلت الجماهير (وخدام الدولة) الفكرة القائلة بأن الدولة فوق الطبقات ،
وآمنوا بهذا الوهم . تعتمد قوة الدولة المادية في النهاية على عنصر فكري ، الا وهو
تقليل الجماهير من شأن قوتها . وقد اعترف نابوليون بأنه يمكننا أن نفعل ما نشاء
بالخراب شريطة أن يكون الرأي العام من جانبنا ، ومهما كانت وسائل الضغط التي
تملكها الدولة البورجوازية ، كالرشوة مثلاً ، فإن التجربة التاريخية قد دلت بأن
هذه الوسائل تعجز أمام جود الجماهير المسلحين فكرياً ، والشئ الذي يعتد به ،
أخيراً ، هو أن تعي الجماهير بوضوح الاعيب أعدائها ، وأن لا ينبجس هؤلاء في خداعها .
ولهذا تجعل لماركسية المؤسسات السياسية من بين ظواهر حياة المجتمع الروحية :
وليست قوة هذه المؤسسات سوى قوة الأفكار . ويمكن لهذه القوة أن تصبح
مادية شريطة أن تملك هذه الأفكار الجماهير وتسيطر عليها .

وبالنتيجة فإن النضال السياسي يتضمن بالضرورة النضال الفكري ، وهو النضال ضد الأفكار التي تؤيد سياسة العدو الطبقي ، والنضال من أجل إزالة العراقيل الفكرية التي تمنع الجماهير من الاتحاد في النضال السياسي ضد الدولة البورجوازية .

يبرهن هذا التحليل ، مرة ثانية ، على أنه يجب أن يقود نضال البروليتاريا الطبقي طليعة واعية منظمة في شكل قوة سياسية مستقلة ، هي الحزب السياسي الذي يعتمد على نظرية فكرية طبقية ، للنضال الثوري ، الذي يعكس بصورة علمية ، مصالح الطبقة العاملة الحيوية المباشرة ومصالح المجتمع بأكمله .

٣- مَحْتَوَى الدَّوْلَةِ وَصُورَتِهَا

من بين الوسائل الرئيسية ، التي يستخدمها مفكرو الطبقات المسيطرة والمستغلة لتشويش مسألة الدولة ، الخلط بين صورة الدولة ومحتواها . فهم ، حين يعرفون مختلف نماذج الدولة ، يعتمدون دائماً على عدد الناس الذين يمارسون امتيازات السلطة : فيميزون بين الدولة الملكية ، والدولة الاستقرائية ، والدولة الديمقراطية . فهم يحصرون النقاش بمسائل الصورة ، وبطبيعة المنظمات التي تمارس السلطة ، كوجود مجلس نواب ، مثلاً ، و « فصل السلطات » و « استقلال القضاء » الخ ... فيظنون بذلك انه يحرم التعرض لمحتوى الدولة .

أما بالنسبة للماركسية فإن المسألة التي تعلق على كل المسائل الأخرى هي المسألة الثانية : لمصلحة من وضد من تمارس هذه السلطة ؟ تميز الماركسية بين محتوى الدولة الاجتماعية وبين صورتها .

١ - محتوَى الدولة الإجتماعي

تكتسب الدولة طابعها بفضل محتواها الاجتماعي الحقيقي ، أي محتواها الطبقي . فالدولة إما أن تكون دولة رقيق أو دولة اقطاعية أو بورجوازية أو رأسمالية ، أو بوليتارية أو اشتراكية - وكل دولة هي دكتاتورية طبقية : ينتج ذلك من أصلها ومهمتها . ويمثل المحتوى جوهر الدولة ، وهو يسبق صورتها ويحددها . وتختار كل طبقة مبطرة الصورة التي تناسب دكتاتوريتها الطبقية .

ولنذكر هنا بعض الأمثلة التاريخية :

هل كانت الدولة القديمة دولة رقيق ؟ أجل . مهما كانت صورتها لأن الرقيق لم يكن فيها قط مواطناً .

هل كانت الدولة في القرون الوسطى دولة اقطاعية ؟ أجل . ومهما كانت صورتها لأن الرقيق فيها لم يكن له أي حق سياسي . أما البورجوازيون فقد فازوا بحريتهم بنضالهم .

هل الدولة الفرنسية ، منذ عام ١٧٨٩ ، هي دولة البورجوازية الرأسمالية ؟ أجل . ومهما كانت صورتها لأن البروليتاريا فيها لم تتمتع بأي حقوق سياسية سوى الحقوق التي انتزعتها من البورجوازية بالنضال ، وهي تفرض احترام هذه الحقوق بنضالها المستمر .

هل الدولة السوفياتية هي دولة العمال والفلاحين ؟ أجل . لأن أساس الاتحاد السوفياتي السياسي يتكون من سوفيات نواب العمال الذين ازداد عددهم وتوطدت أركانهم بعد قلب سلطة كبار الملاكين والرأسماليين ، وبفضل الاستيلاء على

دكتاتورية البروليتاريا (المادة ٢ من دستور الاتحاد السوفياتي)
كل السلطة في الاتحاد السوفياتي بين يدي عمال المدينة والقرية المثلين في شخص
سوفيات نواب العمال (المادة ٣ من دستور الاتحاد السوفياتي) .

ولهذا فالسؤال الأول الذي يجب طرحه لتقدير طابع دولة من الدول في
إيمانها هو هذا السؤال : هل نحن أمام دولة بورجوازية رأسمالية أم أمام دولة
اشتراكية للعمال والفلاحين ؟

ولا يمكن أن يطرح السؤال بصورة أخرى ، إذ لا يمكن للدولة أن تكون
دولة رجل ، أو حزب . بل هي دائماً دولة طبقة . ولقد رأينا أن الدولة لا يمكن
أن تستقر بدون أساس اقتصادي . ونعلم أن الأساس الاقتصادي يمتاز بملكية
وسائل الانتاج . والقوة الاجتماعية التي تمثل الملكية وتملكها وتستخدمها ليست
رجلاً أو حزباً بل هي دائماً ، وفي كل مكان ، طبقة ، فهي هنا طبقة البورجوازيين
الرأسماليين وهناك طبقة العمال المتحالفين مع طبقة الفلاحين العمال .

نعرف إذن محتوى الدولة الاجتماعي بالاجواب على هذا السؤال التالي : هذه
الدولة في خدمة أية علاقات انتاج ، وأية صورة للملكية (خاصة أو اجتماعية)
وأية طبقة ؟

يجب طرح هذا السؤال بصدد كل الأفكار السياسية .
سطر لينين بسرعة ، مثلاً ، بصدد الحرية ، الملاحظات التالية « الحرية » حرية
مالك السلع .

حرية العمال المأجوريين الحقيقية — حرية الفلاحين :
حرية المستغلين .

الحرية من أجل من ؟
الحرية بالنسبة لمن ؟ وبالنسبة لماذا ؟
الحرية في أي شيء ؟^(١) .
كما سطر بهدد المساواة :
« المساواة » . انجلز في « ضد دورنج » (وهم إذ أردنا بذلك أكثر من إزالة الطبقات) .

مساواة مالكي السلع .
مساواة المستغل والمستغل .
مساواة الجائع والشبعان .
مساواة العامل والفلاح .
مساواة من ؟ ومع من ؟ وبأي شيء ؟^(٢) .

وسائل حكم الدولة هي وسائل الطبقة التي تسيطر الدلة ، وهذا تكون هذه الوسائل ذات مغزى لأنها تدل على محتوى الدولة . هذه الوسائل رأسمالية بالنسبة للدولة الرأسمالية وأولى هذه الوسائل المال .

كتب انجلز هذا الصدد يقول : لم تعد الجمهورية الديمقراطية تعترف ، رسمياً ، بفوارق الثروة . إذ ان الغني يؤثر فيها بصورة غير مباشرة ولكنها أكيدة . وذلك بصورة رشوة الموظفين مباشرة ، من جهة ، ونجد في اميركا مثالا كلاسيكيا على ذلك ؛ وبصورة تحالف بين الحكومة والبورصة من جهة ثانية ؛ ويتم هذا التحالف

.....

(١) لينين : « حول دكتاتورية البروليتاريا » ، في « الدولة والثورة » ص ١٤٩

(٢) لينين : الدولة والثورة ص ١٥٠

بسهولة لأن ديون الدولة تزداد باستمرار، كما ان الشركات المساهمة لا تنحصر بين يديها وسائل القتل فقط بل الانتاج نفسه، كما تلتقي هذه الشركات في البورصة^(١).

وليست سيطرة الثروة جميعها، في الجمهورية البورجوازية، في أيامنا هذه، باقل ظهوراً. وبالرغم من أنه لا يوجد أي تشريع قانوني يحفظ لاعضاء الأوليغارشية المالية مراكز القيادة في الدولة فإن «تبعية جهاز الدولة للاحتكارات»^(٢) حقيقة واقعة. فمن جهة، تستطيع الامتيازات ان تعين بعض اعضائها في جهاز الدولة كموظفين كبار: ومهما كانت القواعد لتعيين هؤلاء الموظفين، فإننا نعلم ان «عامل المودة» هو الذي يقرر القبول في دوائر «الدولة الكبرى» كمرابة الاقتصاد وغيرها. ومن جهة ثانية تنظم الاوليغارشية المالية هجرة منظمة لكبار الموظفين نحو القطاع الخصوصي مما يسمح لها ان تؤمن تعبئة مستمرة للاكاثيا، وهي تسعى بواسطة الطموح والتلف على الربح، والرشوة لمراقبة كل نواحي الادارة. تتضح هذه الرشوة في فضائح الدولة الرأسمالية بين حين وآخر. كما أنها تتخذ طابع توزيع المراكز المباشرة في مجالس ادارة الشركات على النواب والمثليين السياسيين واللواءات الخ..

ولقد رأينا فيما سبق دور الدولة التاريخي في خدمة رأس المال. وهكذا وجدت الدولة الفرنسية نفسها، بواسطة قروض مشروع مارشال، تابعة للاحتكارات الاميركية، وأصبحت بعض دوائرها كوزارة الخارجية مثلاً تحت مراقبة عملائها.

(١) انجلز: اصل المائة، ص ١٥٨

(٢) راجع ستالين: «مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي»

كما تلك البورجوازية الكبرى أيضا «الازمة الاقتصادية» كوسيلة للتأثير على المجلس النيابي . إذ أن ازدياد ديون الدولة عملية سياسية رابحة لها : لأن التحويل المالي، الذي كان وسيلة للضغط على الملوك، يظل نافعا للتأثير على دولة البورجوازية والدولة الأجنبية التي تتخبط في الصعوبات .

ويبدو دور الثروة السياسي، في الدولة البورجوازية أيضا، في سلسلة من المسائل وهي : ليس محتوى حرية الصحافة سوى أن الرأسمالين الذين يمكنهم ماديها تأسيس جريدة وتمويلها لديهم المجال لخلق هذا المحتوى؟ - ليس محتوى حق الجميع في التعلم سوى أن امكانية التعلم الحقيقية لا توجد إلا للطبقات الاجتماعية التي تستطيع دفع مصاريف التعليم . - وما يحتوي حرية الرأي والطرق السياسية سوى أن الامكانية الحقيقية لتقديم مرشحين لا توجد إلا للفئات الرأسمالية التي يمكنها أن تقول معركة انتخابية . ولا ننسى ان وجود حزب مستقل للطبقة العاملة ليس ثمة النزعة المتحررة البورجوازية بل هو ثمة تضامن الجماهير الفعال .

وتبدو معالم الدولة الطبقيّة بوضوح في مسألة العدالة . ولنشر أولا إلى أن العدالة لا تؤدي بل هي 'تباع على يد البورجوازية : وإذا كانت العدالة نظرياً بالجمان فإن هذه العدالة لا تؤدي إلا لمن يستطيع دفع مصاريف الدعوى ؟ فكيف يمكن لمعامل أن ينال التمويض عن حادث وقع له أثناء العمل ؟ كيف يمكنه أن يستأنف أمام مجلس الدولة ضد لا شرعية الادارة ؟ وتؤدي العدالة بلغة لا تفهمها الجماهير الشعبية ، وهي ترجع إلى مطلع البورجوازية . وأخيراً فإن المبادئ التي تهتدي هذه العدالة بهداها هي مبادئ الحق البورجوازي الذي يقوم على الدفاع عن الملكية ، والدفاع عن رأس المال ؛ ومما قمع لصوص الممتلكات الشخصية سوى قمع لقمع العمال في نضالهم ضد المستغلين ؛ وتتمدد وسائل ضغط الدولة

البورجوازية ، في القضايا السياسية ، على القضاء من التلويح بالترقية حتى التهديد ؛ الذي يكاد لا يخفى ، بواسطة عملاء للاستفزاز ، حتى ان النظرية الفكرية البورجوازية تختلف في تقديرها الجرائم إذا ارتكب هذه الجرائم فقير معدم أو ابن عاتلة «محتومة» وأخيراً يجعل فساد البورجوازية المنحطة العدالة عاجزة عملياً أمام المهربين ورجال العصابات التي تلوذ بدوائر المجتمع « العالية » .

ينتج محتوى الحق عن وظيفته في تخليد نظام الملكية القائم ، والحق ليس تجسيداً لمبادئ خالدة ولا « لقوانين طبيعية » أو إرادة « الوعي الجماعي » ؛ بل هو عنصر مكون للبناء الفوقي ، وانعكاس لصورة الملكية المسيطرة التي يحاول تخليدها لجعلها مطلقة ، كما يبررها « مبدأ » مزعوم أبدي ؛ ولهذا كان التفكير التشريعي البورجوازي أفضل مثال على تطبيق المنهج الميتافيزيقي .

ومثال واحد يدل على محتوى الحق الطبقي . يحبر القانون الأولاد على القيام بأود والدهم ، عند الضرورة ، كما يحبر الوالدين بتربية أولادهما . أو ليس من الواضح ان هذه القاعدة تعمم في المجتمع واجباً لا معنى له إلا ضمن نطاق العائلة البورجوازية المالكة ، وأن هذا التعميم الجائر يعني المستغلين ، أي البورجوازية ، من واجبهم نحو عناصر البروليتاريا العاجزة عن العمل : وهم كهول العمال ، والمقعدين ، والمرضى ، وأولاد البروليتاريا ؟

وتمتاز الدولة البورجوازية « الديمقراطية » أيضاً بالميزات التالية :

- البيروقراطية : يشرف على الادارة على تعاليم البورجوازية الكبيرة الخفية ، وهكذا كانت الادارة العليا غير مسؤولة ، عملياً ، تراقبها مباشرة الاولينارشية المالية ويكون كبار الموظفين « جماعات » متخصصة مغلقة ، تحتكر « الكفاءات » أي تجرئة طبقة البورجوازية القديمة ؛ ولا تخضع هذه الادارة لمراقبة

اللجان البرلمانية عن طريق « السر المهني » وتشرف ادارة المحافظة على المجالس المحلية وتجهل قراراتها تابعة لمصالح طبقة البورجوازية الكبيرة^(١).

— النزعة العسكرية : تهدف مدة الخدمة العسكرية الطويلة ، وهي ثمة الاستعمار الذي لا يرى في السلم سوى هدنة بين اعتدابين ، إلى تنشئة الشباب على خدمة الدولة البورجوازية خدمة عمياء ؛ وقد وضع النظام كطاعة سلبية لا تقبل النقاش ؛ مفروضة من على ؛ لأن البورجوازية لا تستطيع الاعتراف مراعاة بأهدافها الطبقية إلى جنودها .

— النزعة البرلمانية : نظمت الانتخابات بشكل يجعلها تقرر فقط كل أربع أو خمس سنوات من هو الرجل الذي تتق به البورجوازية سيمثل الشعب في البرلمان ويضطهده ؛ ويمثلو الشعب لا يمكن الناخبون تنحيتهن ، كما أنهم لا يمكن

(١) استشهد موريس توريز ، في تقريره الى مؤتمر الحزب الشيوعي الفرنسي التاسع (آرل ١٩٣٧) ، على جبروت هذه البيروقراطية في ميدان السياسة الخارجية فقال ذاكرًا بحلة اسبوعية ديمقراطية : « دخل السيد ليجه الامين العام لوزارة الخارجية الى الكمي دورسيه في عام ١٩١٤ ، وفي عام ١٩١٦ كان في شنفاي ، وفي عام ١٩٢١ عاد الى باريس وبقي فيها من عام ١٩٢١ - ١٩٣٧ ، في عام ١٩٢٩ كان مديراً للشؤون السياسية التجارية . ومنذ هذا التمين حل السيد بريان محل السيد بريان ، والسيد لافال محل السيد بريان ، والسيد ترديو محل السيد لافال ، والسيد هريو محل السيد ترديو والسيد بولس بونكور محل السيد هريو ، والسيد دالاديه محل السيد بولس بونكور ، والسيد بارتو محل السيد دالاديه ، والسيد لافال محل السيد بارتو ، والسيد فلاندين محل السيد لامال ، والسيد ايفون دلبوس محل السيد فلاندين ، غير أن السيد ليجه ظل أميناً عاماً لوزارة الخارجية ، « فمن هو وزير الخارجية الحقيقي ؟ من يمثل فرنسا في نظر مثليها في الخارج ؟ السيد دلبوس ؟ كلا بل السيد ليجه هو الوزير الدائم » : م. توريز : مؤلفات ج ١٤ ، ص ٢٦٩ . المطبوعات الاحتمائية ، باريس ١٩٥٤ .

السلطة التنفيذية والادارية بفضل المثل البورجوازي حول « فصل السلطات » ؛
وتعريف النزعة البرلمانية هي أن المجالس المنتخبة لا تشرف نفسها على تنفيذ قراوتها
وتطبقها : فهي ليست مجالس فعالة .

وأخيراً نأتي لظاهرة احدث في فرنسا وهي أن رجال السياسة يغتادون
مباشرة من بين الرأسماليين أمثال « بيني » (Pinay) و « ماير » (Mayer)
و « لانيل » (Laniél) ، الذين لا يكتفون بالاشراف على السياسيين ، بل يقومون
هم انفسهم بادارة الحكومة . وهذه الظاهرة أقدم في الولايات المتحدة وأشد اتساعاً .
لإذ نرى اللوات والممثلين السياسيين والقضاة ، من بين الرأسماليين ، يقومون بأنفسهم
بهذه الوظائف .

نرى الآن ما معنى أن كل دولة هي دكتاتورية طبقة من الطبقات ؛ ويعني
هذا أن حقيقة السلطة في يد طبقة تمارسها لخدمة مصالحها ، مستخدمة في ذلك وسائلها
الخاصة . يمكن للدولة البورجوازية أن تكون ديمقراطية بالنسبة للرأسماليين ؛
ولكنها دكتاتورية بالنسبة للطبقة العاملة ؛ بينما الدولة الاشتراكية ، على العكس ؛
هي ديمقراطية بالنسبة للعمال ، ولكنها دكتاتورية بالنسبة للطبقات القديمة
المستغلة الزائلة . وكان لينين يقول : الدكتاتورية ، التي هي نقي للديمقراطية ،
من أجل من ؟^(١) .

من الخطأ ، إذن ، تعريف الفاشية بأنها « دكتاتورية حزب » لأن الفاشية هي
« دكتاتورية اشد العناصر الرجعية اوهاباً واستعماراً في رأس المال » (ديمتروف) .
وما الحزب الواحد إلا أداة هذه الدكتاتورية الطبقة .

(١) نفس المرجع ص ١٤٩ .

أما أثره الاشتراكيين الديمقراطيين حول « تسرب العناصر البروليتارية » في الدولة الحديثة ، التي تجعل لهذه الدولة شبه طابع « وسط » لأنها « ليست بروليتارية تماماً » ولا « بورجوازية تماماً » فإنها لا يمكنها أن تخفي ما يلي : وهو أنه إذا وجب على البروليتاريا أن تهدم ، بشقه ، بعض قلاع الدولة الرأسمالية الامامية ، فهل يمنع ذلك من أن تظل هذه الدولة رأسمالية أو لا يبرهن ، على العكس ، انها رأسمالية ؟

ب - صُورَةُ الدَّوْلَةِ .

صورة للدولة هي التعبير عن محتواها الاجتماعي الحقيقي ، وهي تتحدد بنسب نضال الطبقات .

يُمَيِّز لينين بين عدة صور للدولة ظهرت منذ القدم :

— الملكية لسلطة فرد واحد .

— الجمهورية كدولة ليس فيها سلطة غير منتخبة .

— الارستقراطية كسلطة أقلية محدودة نسبياً .

— الديمقراطية كسلطة الشعب .

وتمتّز هذه الصور بعضها مع بعض ، فيمكن للجمهورية ، مثلاً ، أن تكون ارستقراطية او ديمقراطية ، تضم في نفس الوقت بقايا الملكية .

ولا تستقر صورة الدولة ، غالباً ، على حال ، فهي تتأخر ، غالباً ، عن المحتوى ، وتعبّر بطريقتها عن تناقضات المجتمع الداخلية .

كانت جميع صور الدولة ، في القدم ، لها محتوى يعتمد على الرقيق . ومع ذلك فإن الانتقال من صورة الجمهورية الاستقرائية إلى الجمهورية الديمقراطية ، في روما ، مثلاً كان يعكس ، بالضرورة ، مرحلة جديدة من نضال الطبقات بين الملاكين والتجار .

وقد تنوعت صور الدولة ، في عهد الاقطاع . فوجدت جمهوريات استقرائية كان الاقطاعيون فيها ينتخبون رئيس الدولة ، وهو الامبراطور ؛ وقد تحول بعضها إلى ملكيات وراثية . فكان شارلمان يجمع ، كل سنة ، بولماناً من البلاد الكارولنجهين ، وهو بقايا للعادات « الجمهورية » عند الفرانك . كما كان الكايبيتيون الاوائل منتخبين ؛ كما انتخب الامبراطور في بعض مراحل الامبراطورية المقدسة على يد كبار الاقطاعيين . ولكن محتوى الدولة ، كان في جميع هذه الاحوال ، اقطاعياً .

وكانت « المجالس العامة » (les Etats généraux) في العهد القديم مؤسسة ذات طابع « جمهوري » لأنها كانت تتكون من مندوبين منتخبين وهم في نفس الوقت استقرائيون ، لأن الاقطاعيين كانوا يستمعون فيها بأكثرية الثلثين^(١) : كما أنها كانت بذلك مؤسسة اقطاعية تخدم مصالح الاقطاعيين !

حتى إذا ما أصبح للبورجوازية تأثير على للدولة الملكية الاقطاعية بواسطة وسائلها المالية وقت في وجه هذه المؤسسة الاقطاعية ، الا وهي مؤسسة المجالس العامة حيث كانت اقلية فيها . ولهذا لم تجتمع المجالس العامة في عهد الملكية

(١) كان لكل من النبلاء والكهنة والطبقة الثالثة صوت فكان الكهنة يضم صوته عادة الى صوت النبلاء .

« المطلقة » أيام لويس الرابع عشر وكولبير - البورجوازي .

غير أن نزعة الملكية المطلقة ، التي كانت ، إثر الفروند (Fronde) موجّهة ضد الاقطاعيين ، قد انقلبت على البورجوازية ، في القرن الثامن عشر ، بسبب تقدم البورجوازية الذي أخذ يهدد النظام الاقطاعي .

ففكرت البورجوازية ، عندئذ ، في استخدام المجالس العامة ، إذ ان الوضع كان قد تغير ، ويمكن لهذه المجالس ، بعد شيء من الاصلاحات ، ان تخدم البورجوازية ! كانت طبقة النبلاء معزولة في البلاد ؛ وكان الكهنوت منقسماً بالنضال الطبقي بين طبقة الكهنوت الاقطاعي وطبقات الكهنوت المنحدر من الشعب ؛ وكانت البورجوازية الطبقة التي تعتمد عليها ثروة الاقتصاد القومي : فقامت بمحلة بين الجماهير لمضاعفة عدد نواب الطبقة الثالثة (le tiers - état) (وكان هذا العدد عادة مساوياً لعدد نواب كل من الطبقتين الآخرين) ، كما دعت لانتخاب يجري داخل المجالس ، على أساس الفرد وليس على أساس الجماعة . وهكذا تضمن البورجوازية ، بمساعدة نواب الكهنوت الشعبي ، الاكثورية المطلقة في المجالس العامة ! حتى إذا ما اجتمع نواب الطبقة الثالثة ، دعوا نواب الكهنوت الى الانضمام اليهم واعلنوا أنفسهم مجلساً قومياً .

وهكذا نرى ان البورجوازية عرفت كيف تستخدم ، حسب تطورات النضال الطبقي ، المؤسسات الملكية في الدولة الاقطاعية (الملك) تارة ، والمؤسسات « الجمهورية » (المجالس العامة) تارة أخرى .

وقد أتاح نحو النضال الطبقي لهذه المؤسسة الاقطاعية محتوى جديداً بورجوازياً ؛ ارتدى المحتوى الجديد ، لمدة من الزمن ، صورة قديمة وحددت تحولاتها . ولنشر أخيراً إلى أن التطور النوعي ، وهو ازدياد قوة البورجوازية ، في البلاد ، قد أفضى

جدلياً إلى تغير نوعي في صورة المؤسسات، الا وهو تحول المجالس العامة إلى مجلس قومي، وإلى قلب تام للوضع السياسي العام، إلى الثورة السياسية. كل ذلك حدث على أساس نمو النضال الطبقي.

وقد استخدمت البورجوازية، بدورها، بعد أن أصبحت طبقة مهيمنة، مختلف صور الدولة.

— الملكية الدستورية التي لم تخرج عن نطاق جمهورية غير ديمقراطية، لا ينتخب فيها سوى «المواطنين العاملين» الأغنياء الذين يمكنهم دفع ضريبة معينة.

— الجمهورية المقصورة على دافعي الضرائب.

— الجمهورية الديمقراطية التي يقوم على الانتخاب العام «الشامل».

وتكون الصورة الأولى للدولة حلاً وسطاً مع النظام القديم في الاوقات التي كان ذلك فيها ضرورياً.

ولقد حظيت الصورة الثانية بتفضيل البورجوازية لأنها كانت تتفق تماماً مع الأساس الاقتصادي للعهد فكانت جمهورية أملاً؛

وقد أصبحت الصورة الثالثة ضرورية حين نما نضال البروليتاريا الطبقي، ووجب تعطية الدكتاتورية الطبقة «للتخفيف من حدة النضال الطبقي» وتهدئة اندفاع البروليتاريا الثوري.

وكان بهم البورجوازية أن تغرس في العقول الفكرة القائلة بأن الجمهورية الديمقراطية هي صورة الدولة المثالية لنهاية، وهي أسمى ما وصل اليه «تقدم الوعي»، والمدنية والزعمة الانسانية، وأنها تجسيد «الحق الطبيعي» ونهاية التاريخ

بمعنى ما . وهكذا كانت تأمل تخليد حكم رأس المال .

غير أن تناقضات الرأسمالية ، وتأزم النضال الطبقي ، والازمات الاقتصادية ، والاستعداد للقيام بالفتوحات الاستعمارية ، وبده أزمة الرأسمالية العامة ، كل ذلك لم يمكنها من ذلك . فاضطرت البورجوازية أن تلقي قناع الديمقراطية ، وأن تعتمد على شرعيتها ، لتبقي سيطرتها الطبقيّة ، وهي تتأرجح على أساسها الاقتصادي الفاسد ، وأن تستعد للحرب ، فكشفت عندئذ عن وجه الفاشية الكرية ، وعند كتابتورية رأس المال في وحشيتها المفترسة . فدلّت بذلك على أن محتوى الدولة الطبقي أهم من الصورة ، وأن الجمهورية الديمقراطية كانت صورة تاريخية للدولة ، وهي صورة وقّية تابعة لمصالحها الطبقيّة ، وهي ليست مقدسة ولا خالدة . كما يوهنت بنفسها على كذب تصريحاتها عن حبها المجرد للحرية والمدنية !

٤ - نضال الطبقات والحُرّيّة

أ - البُورجُوازيّة و« الحرّيّة »

كان لنضال البورجوازية التاريخي من أجل « الحرية » محتوى طبقي .

فإذا كانت البورجوازية ، في زمن الثورة البورجوازية ، قد جعلت من نفسها نصيراً للحرية فذلك :

أ) لأنها كانت بحاجة إلى أن تجد في السوق يدأ عاملة حرة قد انحورت من قيود الاقطاع ، لا تتعلق بسيد ، يمكنها أن تنضم إلى صناعتها أو تنبذها في البطالة حسب حاجات الانتاج الرأسمالي .

(ب) لأن نمو قوى الانتاج الجديدة يتطلب حرية التجارة ، وحرية الأعمال ، وإزالة قيود الاقتصاد القطاعي .

(ج) لأن « الحرية الفردية » هي الصورة القانونية السياسية التي تعبر أفضل تعبير عن صورة الملكية الخاصة، التي هي أساس البورجوازية ، وهي الثورة قد تمثلت بالمال الذي يزيل كل علاقة شخصية بين أعضاء المجتمع. وأساس فكرة الحرية الفردية هي الملكية الخاصة البورجوازية ، وان كانت البورجوازية تريد أن توم الناس ، على العكس ، بأن فكرة الفرد المطلقة هي التي تبرر الملكية الخاصة !

(د) لأن البورجوازية بنصرتها للحرية ، توجد أساساً فكرياً للتحالف السياسي مع طبقات الشعب الأخرى التي تناضل ضد الاقطاعية : كالفلاحين وفئات متعددة من البورجوازية الصغرى؛ فكانت الثورة الديمقراطية البورجوازية هي الطريقة الوحيدة للنجاح في النضال ضد الاقطاعية .

ونلاحظ ان هذه البورجوازية التي تعان عن نفسها بأنها « متحررة » هي نفسها التي ترفض حق الانتخاب « للمواطنين السلبيين » ، كما ترفض حق الشراكة للأعمال عام ١٧٩١ !

وهكذا تكون حدود نزعتها المتحررة هي حدود مصالحها الطبقة تماماً .
توجد البورجوازية ، المنقسمة على نفسها، بسبب خواص الرأسمالية، والمضاربة إلى فئات تختلف مصالحها ، صورياً للتنظيم السياسي خاصة : وهي تعدد الأحزاب البورجوازية ، والتزعة البرلمانية .

ولما كانت المصالح الخاصة بفئة من البورجوازية يجب أن تظل تابعة لمصالح الطبقة العامة الدائمة ، فإن البورجوازية تحدد حقوق البرلمان ، وتفصل السلطة

التنفيذية عن السلطة التشريعية ، وتحول دون اشراف البرلمان على ادارة الدولة .

ولذا كانت البورجوازية اتجهت فيما بعد نحو الانتخاب العام الشامل (في
أواسط القرن التاسع عشر) ونحو النزعة البرلمانية الديمقراطية ، فلهذا
أسباب واضحة :

فما النضال الطبقي ، وأخذت البروليتاريا تطالب بحقوقها السياسية ؛ وأخذت
أهمية الرأي العام تزداد لأنها امتدت إلى طبقات جديدة نشيطة قد نمت بتأثير
الصناعة الكبرى ؛ فإذا بالجمهورية الديمقراطية تخفي حينئذ سيطرتها الطبقية ، كما أن
الاجر المدفوع في نهاية اليوم يخفي الاستغلال الطبقي . يضاف إلى ذلك أن
الجمهورية الديمقراطية لم تصبح بعد خطراً على البورجوازية ، لان البروليتاريا لم تكن
في هذه الفترة ، مستقلة فكرياً . فمن السهل إذن الحصول على أصواتها بواسطة دعاة
البورجوازية ، فتزول نتيجة الانتخاب العام الشامل بطريقة خاصة للانتخاب .
وهكذا ألا يلزم قدر من الثقافة حتى يصبح المرء نائباً ، ولهذا تمتنع البورجوازية
« الديمقراطية » أن تأتي بأي عمل لتثقيف الجماهير ، سياسياً ، بصورة ديمقراطية !
كما أن مهمة المدرسة الابتدائية الاجبارية هي تنشئة هذه الجماهير على احترام
البورجوازية .

كما أن السياسيين البورجوازيين يجرون على قاعدة وهي التناقض بين وعودهم
للناخبين وأعمالهم في البرلمان ، ويعكس هذا التناقض تعارض المصالح بين الشعب
والبورجوازية .

وعلى كل حال فقد كانت فوائد الانتخاب العام ، في هذه الفترة ، بالنسبة
للبرجوازية أكثر من^١ مضاره . فإذا منحته وثقت علاقاتها بالجماهير وأصبحت
شعبية عندها فزادت بذلك قوتها السياسية .

ألم يعدد كافور ، البورجوازي الكبير المتحرر ، على القول : « أسوأ المجالس
افضل من أسمى المجتمعات خارج هذه المجالس » - « La pire des Chambres
vaut mieux que lameilleure des antichambres »
مشيراً بذلك إلى مصلحة البورجوازية في اقامة واجهة برلمانية لتأييد الرأي العام .
كما كان يؤكد قائلاً .

« لم أشعر قط بضعتي كما كنت أشعر أثناء عطل المجالس » ولقد كتب
لينين يقول :

تزداد ثقة قوة الثروة في الجمهورية الديمقراطية كلما كانت لا تتعلق بغطاء سياسي
مميء للرأسمالية ؛ وهكذا بعد أن يستولي رأس المال على هذا الغطاء ، وهو الافضل ،
يقم ساطته بشكل متين فلا يستطيع أي تغيير للاشخاص ، أو المؤسسات أو
الاحزاب ، في الجمهورية الديمقراطية البورجوازية ، ان يززع هذه السلطة^(١) .

ويعني هذا ان الانتخاب العام في الدولة البورجوازية ، يعجز عن أن يعبر تماماً
عن ارادة أغلبية العمال ، وأن يضمن تحقيق هذه الارادة . حتى لو أنه أصبح قادراً
على ذلك فإن البورجوازية تسرع في القضاء على تأثيره ، فتلغي ، مثلاً ، التمثيل
النسبي ، وتلقي بالانتخاب القائم على الاكثريّة أو القائم على « الولاء »
(apparentements) . وكل هذه أساليب للتزوير برع فيها دي جيسبري
(de Gasperi) في ايطاليا وايدناور (Adenauer) في ألمانيا . إذ كل شيء
حسن لمنع الانتخاب العام من التعبير عن ارادة الشعب .

يظهر ، في أكثر الدول الرأسمالية ديمقراطية ، التناقض ، باستمرار ، بين

(٢) الحقبة والثورة ، ص ١٨ .

الشرعية التي تعترف بها القوانين ، والشرعية التي تلغيا الوقائع ، بين الدساتير ، التي تمنح الشعب الحريات الديمقراطية ، وبين الفقر الذي يمنعه من استخدامها كاملة ، بين الحرية الصورية والتبعية الفعلية^(١) .

ولا يعني هذا قط ، كما سنرى ، ان على البروليتاريا ان لا تأبه بطاليع الدولة البورجوازية الديمقراطي ، كما ادعى زعماء الاشتراكية الديمقراطية الانتهازيون ، صنائع الفاشية .

ب - البروليتاريا والجمهورية

يشدد اهتمام البورجوازية للقيام بحروب الاعتداء ، في فترة ازمة الرأسمالية العامة ، حين تزداد تناقضات الاستعمار عمقا . يضاف إلى الاستعداد للحرب ، بين الدول الرأسمالية ، تهينة الحرب ضد الاتحاد السوفياتي ، وضد البلاد التي قامت فيها سلطة الطبقة العامة . ولا يمكن للرأسماليين إلا أن يريدوا الحرب ، على أن لا تتعرض فيها الرأسمالية الا لأقل الاخطار ، طبعاً ، وذلك كوسيلة لانقاذ الرأسمالية ، وكحل للازمة ولتناقضات النظام الرأسمالي . ولكن إذا كان صعباً أن الاستعمار هو السبب الموضوعي للحروب ، فإن القيام باعتداء يتطلب شروطاً ذاتية : ولهذا كان على البورجوازية أن تهيء جنود المستقبل للاعتداء ، وأن تستميل ، إلى جانب قضية الاستعمار ، أغلبية الامة . فكان من الضروري أن تسكت القسم الواعي ، في الطبقة العاملة ، التي تناضل من أجل السلم ، وتقف في وجه الاستعمار ، وتدافع عن

(١) موريس نوريز : كرامات البلشفية ، أول تشرين أول سنة ١٩٣٦ . « تعريخ لصحافي في جريدة « الزمن » للكتاب الثالث ، الجزء الثالث عشر ، ص ١٠١

بلد الاشتراكية . ولا يمكن لاية بورجوازية، في تلك المرحلة، أن تندفع في الحرب بدون أن تضمن مؤخرتها، وأن تلجم طبقتها العاملة والشعوب المستعمرة التي تضطهدها وتعتمد عليها كمين لها . وما الفاشية إلا نتيجة لهذه الضرورة .

فهي ، بالإضافة إلى ذلك ، توفر وسائل سياسة اقتصادية تقوم على محاولة انقاذ الرأسمالية بالتعجيل في التجمع الرأسمالي ، فتقع على كاهل البورجوازية المتوسطة نتائج الازمة الاقتصادية وتمنعها بقسوة من استخدام أية وسيلة للتعبير السياسي يفذي القضاء على البورجوازية المتوسطة دعاية اجتهادية غوغائية ، إذ تدعى الفاشية ، أمام الطبقة العاملة ، انها ثورية تتاهض الرأسمالية ؛ ولكنها تقدم للطبقات المتوسطة التي هدمتها ، تمويضاً، بواسطة الحرب ، والتوسع الاستعماري و « المجال الحيوي » ، كما تقدم الدعاية القومية الغوغائية .

ولهذا تدعي الفاشية ، في جمعها لهاتين الدعايتين ، انها قومية اشتراكية ، وما النزعة المناهضة للسامية سوى رحيق هاتين الدعايتين ، لانها تمزج الدعاية الغوغائية المناهضة للرأسمالية بالكرهية القومية والعنصرية .

تمثل الفاشية حكم الاوليفارشية المالية غير المنازع . و « دكتاتورية أشد » عناصرها رجعية وتعصباً واستعماراً ، وهي « دكتاتورية ارمائية واضحة » . ولا يفرض هؤلاء أوامرهم على الطبقة العاملة فقط ، بل على كل الاقتصاد الرأسمالي . والبورجوازية ، حين تفتتح هذه الصورة للدولة ، إنما تسعى لتمديد أجل الرأسمالية في نزعها الأخير ، وذلك بفضل تأثير الدولة على الاقتصاد . ويبدو هذا التأثير ، بصورة أساسية ، في الحرب الوحشية التي تهدم قوى الانتاج . الفاشية هي تهيئة

الحرب، وهي الحرب ذاتها^(١). الفاشية هي تصفية الديمقراطية البورجوازية منذ فترة الاستعداد للحرب. والدولة الفاشية هي الحاجز «الذي لا يقهر» الذي تود البورجوازية إقامته في وجه قوى المجتمع الصاعدة، حتى تفرض عليها قبول الحرب، أمام أمرين لا بد منها في آخر مراحل الرأسمالية: أما الانتقال إلى الاشتراكية أو معاناة الحرب الاستعمارية الدورية.

ولقد قال موريس توريز: «ان الفاشية هي الارهاب الدامي ضد الطبقة العاملة، والقضاء على المنظمات العمالية، وحل النقابات الطبقية، ومنع الاحزاب الشيوعية، وتوقيف المناضلين العمال الثوريين، وتعذيب أفضل أبناء الطبقة العاملة واغتيالهم. الفاشية هي اندفاع الحيوانية، والعودة إلى مظاهرات القرون الوسطى المعادية لليهود، والقضاء على كل ثقافة، وسيطرة الجبل والمهجيّة، هي الحرب الكريمة^(٢)».

والاستعانة بالفاشية دليل على ان البورجوازية تشعر أنها ستفقد الاكثريّة بين الجماهير، وهي شرط لا تستطيع بدونه اعلان الحرب. ولهذا كانت الاستعانة بالفاشية دليلا على ضعف البورجوازية، وأنها بدلا من أن تعتمد على رصيد معتصب، أصبحت لا تملك سوى الارهاب. غير أن انتصار الفاشية يعني أن البورجوازية قد توصلت إلى عزل الطبقة العاملة، وأنها نجحت في مناوئتها السياسية،

(١) اعلنت البورجوازية، منذ عام ١٩١٤، حل للنشاط البرلماني المادي كي تكون حرة في ادارتها للحرب الاستعمارية.

(٢) موريس توريز «خطاب في المؤتمر السابع للعالية الشيوعية» ٣ آب ١٩٣٥. مؤلفات كتاب ٢، ج ٩، ص ١٢١

وأنها نظمت ارهاها الطبقي ، وأنها سوف تستطيع اعلان الحرب ، وتأخير ساعة سقوطها المحتم سنوات طويلة .

للدولة الديمقراطية البورجوازية والدولة الفاشية نفس المحتوى الطبقي ، غير أنها يرتبطان بمراحل مختلفة من غوتناقضات الرأسمالية ونضال الطبقات . ولهذا تحاول الفاشية ، كي تستميل إليها الجماهير ، أن تتقنع بقتناع الثورة القومية الاجتماعية . فكان موسوليني يقول : « الاشتراكية البروليتاوية اسطورة قديمة ، والفاشية اسطورة جديدة » وإذا كانت البورجوازية تلجأ إلى الفاشية ، فلأنها في ضعفها تجد في الفاشية أفضل وسيلة لانقاذ نظامها . ولهذا كان لدور الدولة الفاشية أهمية رئيسية بالنسبة لها . وكلما كان على الطبقة العاملة أن لا تتمكن من اصطناع هذه الأداة لاستعبادها . ولهذا لا يمكن للطبقة العاملة أن لا تهتم بصورة الدولة البورجوازية . ويحاول زعماء الاشتراكية الديمقراطية ، معتمدين على نزعة مادية ساذجة ، أن يذيعوا الفكرة القائلة بأن صورة سيطرة الطبقة لاتهم الطبقة العاملة إلالقلا ، لأنها « على كل حال » مسيطر عليها . غير أن الطبقة العاملة يسمها أن تنتهي من هذه السيطرة في أسرع وقت . ويحاول زعماء الاشتراكية الديمقراطية بحججهم الواهية ، أن يضعفوا الطبقة العاملة ، أمام الفاشية المعتدية ؛ فهم يعملون لحساب البورجوازية .

كان موريس تورينز هو الذي وقف ، في فرنسا ، في وجه التقليل من أهمية الصور التي ترتديها دكتاتورية البورجوازية . فلقد أظهر ، في الخطاب الذي القاه في المؤتمر السابع للعالمية الشيوعية ، أهمية الديمقراطية البورجوازية ، بالنسبة للطبقة العاملة ، بالرغم من طابعها الضيق :

الديمقراطية البورجوازية هي أقل ما يمكن من الحريات التي لا تنفك

البورجوازية الحاكمة من تضييقها، ولكن هذه الحريات تمكن، مع ذلك ، الطبقة العاملة والفئات الكادحة من أن تعي نفسها وتنظمها ضد الرأسمالية^(١) .

ولعل من الخطأ الاعتقاد بأن النضال من أجل الديمقراطية يمكنه أن يميل بالبروليتاريا عن رسالتها التاريخية . ولقد أشار لينين إلى أن الجمهورية الديمقراطية بالرغم من أنها لا تقضي قط على سيطرة الرأسمالي ولا على اضطهاد الجماهير ونضال الطبقات ، فإنها تؤدي حتماً إلى امتداد النضال واندفاعه وغوه وتازمه فتتضح عندئذ امكانية تحقيق مصالح الطبقات المحرومة الاساسية؛ ولا بد من أن تتحقق هذه الامكانية في دكتاتورية البروليتاريا حتماً^(٢) .

وهذا مثال رائع على الجدلية ، يدل على حالة « تحول فيها الكمية إلى كيفية » وقد تحققت تماماً وبصورة منهجية فأصبحت الديمقراطية بروتيتارية بعد أن كانت بورجوازية^(٣) .

ولهذا كانت « الرسالة حول الوضع السياسي ومهام الحزب الشيوعي الفرنسي » التي أقرها المؤتمر الثالث عشر للحزب تذكر في المسألة ١٥ تعاليم لينين :

لا يمكن للبروليتاريا أن تستعد لقهر البورجوازية ، دون أن تقوم بالنضال في جميع الميادين ، نضال ثوري من أجل الديمقراطية^(٤) .

ويجب أن تنتبه ، في أيامنا هذه ، لجميع الصور التي ترتدحها تصفية شرعية البورجوازية . ولما كانت البورجوازية مضطرة ، بتأثير الجماهير ، إلى الابقاء على

(١) م . ثوريز : مؤلفات ، الكتاب ٢ الجزء ٩ الصفحة ١٢١

(٢) لينين : مؤلفات غنارة ج ٢ ص ٢١٨

(٣) لينين : مؤلفات غنارة ج ٢ ص ١٩٤

(٤) لينين : مؤلفات كامه ، الطبعة الروسية الرابعة ج ٢٢ ص ١٢٣ - ١٣٤

الصورة الديمقراطية فإنها تهتم بمحرفاتها من نتائجها . وهذا مايسى بصنع الدولة بالفاشية .

هذا السهم موجه ضد الطبقة العاملة . ولما كانت البورجوازية ترغب في أن تتجنب حكم الرأي العام فإنها تتآمر . حتى إذا حلت الانتخابات قامت بتنظيم حكم لكبح الطبقة العاملة . وتتعدد صور هذا الكبح التاريخية من مثل : فرض الضريبة ، أو اعتماد انتخاب الدورتين ، أو انتخاب اللائحة بالأكثرية ، أو انتخاب الفرد بالأكثرية ، أو البالوتاج ، أو التنازل ، أو الانتخاب بالولاء ، أو تعديل المناطق الانتخابية ، أو تزوير اللوائح الانتخابية ، أو زيادة مصنعة للأصوات ، أو تدخل المحافظ ، أو منع الجرائد الديمقراطية ، أو اتهام المرشحين ، الخ ...

ونحن لا نزال نذكر الحجب الواهبة لتأجيل دعوة المجلس الوطني عام ١٩٥٣ حين طلب العمال المناضلون ذلك . وقد أصبحت دعوته واجبة دستوريا بعد طلب ثلثي نواب المجلس :

أ (قرر رئيس المجلس ، منذ تلقى طلب الفريق الشيوعي ، بأن هذا الطلب لا قيمة له وأنه يجب التقدم بطلبات فردية .

ب) قررت أغلبية مكتب المجلس ، في ٢١ آب بعد أن وصلها ٢٢٩ طلباً ، بأن الطلبات المرسلة باللاسكلي ملغاة (لم يكن المحافظون يعتبرون أوامر القمع المرسلة لاسكلياً من الوزارة ملغاة) .

ج) وصل في ٢٤ آب ٢١١ طلباً فرفضت أغلبية المكتب اعتبار أربعة امضاءات مما جعل عدد الطلبات أقل من ٢٠٩ وهو العدد المطلوب .

د) جمع في ٥ أيلول ٢١٩ طلباً جديداً ، فاكتشف المكتب عندئذ فجأة أن

أعمال الترميم في المجلس تضطره إلى تأجيل دعوة المجلس شهراً، أي إلى صبيحة عودة المجلس العادية .

وهناك أمثلة أخرى : منع الطلبة من التقدم لامتحان دخول مدرسة الإدارة الوطنية بسبب ميولهم أو أصلهم الجزائري . بينما تقرر مقدمة الدستور قائله : « لا يمكن لأي شخص أن يرزى في عمله أو خدمته بسبب أصله أو آرائه أو معتقده » .

وهذا ما يدل على فكرة « التسرب » المشهورة في الدولة البورجوازية ، تلك الفكرة العريضة على قلب القادة الاشتراكيين الذين يدعون بأن الطبقة العاملة يمكنها أن « تتسرب » إلى الدولة البورجوازية .

يضرب العمال مستخدمين حقاً دستوريا لهم ! فتُرسَل الحكومة لهم في زمن السلم أوامر غير شرعية بمصادرتهم ، بموجب قانون وضع لزمن الحرب ، ولكن الشرع يختلف فيما يتعلق بمصادرة المساكن !

فإذا كانت القوانين تمس مصالح البورجوازية امتنعت حكومة البورجوازية عن تطبيقها ، كما أنها تقف إلى جانب أصحاب العمل الذين لا يطبقونها : وكذلك شأن الاجور والمعاشات وقانون المصلحة العامة ، وقوانين التأمين الاجتماعي .

تستخدم البورجوازية ، في صلبها للدولة بالصيغة الفاشية ، جميع الوسائل فهي تنظم تزوير الانتخابات ، كما تؤجل ، لأجل غير محدد ، المناقشات البرلمانية ، وتحاول وضع جميع الموظفين تحت حماية محافظيها ، وتقوم برشوة الشرطة ، وتطالب بتعديل الدستور ، بصورة رجعية ، تحمي نشاط المغامرين ، انصار أعمال القمع العسكرية ، وتفتح نظام مراسيم القوانين .

وأخيراً تنتقل للتآمر ضد الطبقة العاملة ومنطلقاتها ؛ فتحاول أن تعيق عملها الشرعي ، معتمدة على « المبدأ » القائل بأن الضمانات الشرعية لا تطبق على الطبقة العاملة ؛ وهي تلغي تأمين أشخاص المواطنين، وتقوم بالتوقيف الاحتياطي، بدون اتهام ، وبدون ملف للقضية ؛ كما تقوم بالتفتيش في غياب من يعينهم الأمر ، كما تسرق أوراق الاشخاص الموقوفين ؛ وتختزع التهم أثناء التحقيق ؛ وفي نفس الوقت تحيط منتخبي الطبقة العاملة بجو من التهديد برفع الحصانة النيابية ، وتدعى جر المدنيين أمام المحاكم العسكرية ؛ وتقوم بالتهويل على القضاء ، ونحني مرتكبي الاغتيالات ضد القضاء ؛ وكما كان باربوس يقول : « لقد سقطت من يديها وثيقة حقوق الانسان منذ أمد طويل (١) » .

نرى إذن أن نضال الطبقة العاملة ، في مثل هذه الظروف ، ضد الدولة البورجوازية ، ومحاولاتها الفاشية ، يتفق مع النضال من أجل الدفاع عن الحريات الديمقراطية البورجوازية ، تلك الحريات التي داستها البورجوازية باقدامها ، بينما تملك الطبقة العاملة القوة للعلل على احترامها إذا ما اتحدت. مثال ذلك أنه كان يستحيل في ٢١ آب سنة ١٩٥٣ ، على مكتب المجلس أن يعارض في دعوة البرلمان ، لو أن القادة الاشتراكيين الديمقراطيين للتقابات المنشقة لم يوجهوا ، قبل بضع ساعات ، ضربة قاضية للاضراب فأعلنوا استئناف العمل . حتى إذا ما اتحدت الطبقة العاملة أصبحت لديها القوة لتنمية نشاطها في جميع الميادين ، بفضل الشرعية الديمقراطية البورجوازية .

للطبقة العاملة أسباب طبقية مبدئية للدفاع عن الحريات الديمقراطية البورجوازية ، ضد الدولة البورجوازية . كحرية انشاء النقابات التي فازت بها

(١) . هـ . باربوس : احاديث مناظر ، ص ٢٤

والتي لها أهميتها الرئيسية في نضالها الاقتصادي ، وحرية تنظيم نفسها في قوة سياسية مستقلة ، تستطيع أن تستمر في سياسة تلاحم رسالة البروليتاريا التاريخية .

المشكلة التي تشغل ، اليوم ، ملايين العمال الذين يعيشون في ظروف الرأسمالية ، هي تحديد موقفهم من الصور التي ترتديها سيطرة البورجوازية في مختلف البلدان : نحن لسنا فوضويين ، كما أننا لسنا غير مباليين بمشكلة معرفة نوعية النظام السياسي القائم في بلد ما . هل هي دكتاتورية بورجوازية في صورة ديمقراطية بورجوازية ولو كانت تتمتع بأضيق الحقوق والحريات الديمقراطية ، أم هي الدكتاتورية البورجوازية في صورتها الفاشية المفضوحة ؟ ولما كنا انصار الديمقراطية السوفياتية^(١) فإننا ندافع عن كل شبر من أرباحنا الديمقراطية التي انتزعتها الطبقة العاملة ، خلال سنوات طويلة من النضال العنيد ، كما أننا نناضل بعزم لتوسيع هذه الأرباح .

كم من تضحيات تجرمتها الطبقة العاملة في إنجلترا قبل أن تنال حق الاضراب ، والاعتراف بوجود النقابات شرعياً ، وحرية الاجتماع ، وحرية الصحافة ، وتوسيع حق الانتخاب النح .. كم من عشرات آلاف العمال بذلوا أرواحهم في المعارك الثورية التي نشبت ، في فرنسا في القرن التاسع عشر ، لينالوا الحقوق الأولية وامكانية تنظيم قواهم للنضال ضد المستغلين ! لقد بذلت البروليتاريا ، في جميع البلدان ، الكثير من الدماء لتفوز بالحريات الديمقراطية للبورجوازية . ولهذا

(١) أو أية صورة من صور الديمقراطية التي تقوم على انتصار البروليتاريا وانتقال غالبية الشعب الساحة على طريق الاشتراكية .

ندرك عزمها على النضال بكل قواها للمحافظة عليها^(١).

لقد ضمنت البروليتاريا نغوها السيامي بفوزها بالحريات الديمقراطية البورجوازية، مع أن البورجوازية قد تصورت هذه الحريات لاستعمالها الخاص. كتب لينين يقول :

أحرزت الجمهورية الديمقراطية، كما أحرز الانتخاب العام ، تقدماً ضخماً بالنسبة للوق : فلقد مكنا البروليتاريا من الوصول إلى هذا الاتحاد ، وهذا التكتاف اللذين تتمتع بهما الآن ، وأن تكون صفوفها المنظمة التي تقوم بنضال منظم ضد رأس المال... ولولا النزعة البرلمانية والانتخاب لاستحال نحو الطبقة العاملة بهذا الشكل^(٢)

لهذا كان قول الزعماء الاشتراكيين الديمقراطيين ، بأن الماركسيين اللينينيين ينجحون سياسة الأسوأ ، ويفضلون الفاشية على الجمهورية ، غيبة وغيبة. لقد رأينا ، عدة مرات ، الأهمية التي تعلقها الماركسية على دور الأفكار التي تتسرب إلى الجماهير ، وتصبح قوة مادية ، تهيء عاملاً فعالاً في التغيرات السياسية الضرورية للتحويل الاجتماعي ، متى تحققت الشروط الموضوعية. ولكن هل يمكن إذاعة هذه الأفكار الماركسية بين الجماهير إلا بواسطة الدعاية الصريحة لهذه الأفكار ، تلك الدعاية التي تسمح بتعبئة الجماهير وتنظيمها من أجل العمل السيامي ؟ أفضل الشروط إذن بالنسبة للبروليتاريين الثوريين هي ، في المجتمع الرأسمالي ، شروط الجمهورية الديمقراطية ، التي يستطيع بفضلها حزبهم أن يشرح صراحة للجماهير الفكرة سياسته :

(١) ديتروف : « المؤتمر السابع لعالية الشيوعية (١٣ آب ١٩٣٥) » مؤلفات مختارة ،

ص ١٣٦ - ١٣٧ ، المطبوعات الاجتماعية ، باريس ١٩٥٢

(٢) لينين : « حول الدولة » في « الدولة والثورة » ص ١٢٦

والماديون الساخجون ، الذين يجهنون الجدلية ، ولا يعرفون دور الأفكار وأهميتها ،
يمكنهم أن لا يعبأوا ، مع الفوضويين ، بصورة الدولة البورجوازية .

كتب لينين يقول ، معلقاً على ملاحظة لانجلز في نقده لمشروع البرنامج الاشتراكي
الديمقراطي لعام ١٨٩١ :

يكبر لانجلز هنا ، مع توضيحها ، الفكرة الأساسية التي تضع خطأ أحمر على
جميع مؤلفات ماركس ، وهي ان الجمهورية الديمقراطية هي اقصر الطرق المؤدية إلى
دكتاتورية البروليتاريا^(١) .

يلاحظ ديتروف ، في تنمة النص المذكور آنفاً ، ان موقف الطبقة العاملة من
الديمقراطية البورجوازية تفرضه أسباب طبقية ، وأن هذا الموقف يحدده موقف
القوى المناهضة للثورة من الديمقراطية البورجوازية . وهو يلاحظ أن الثورة الفاشية
المنافسة هي التي تهاجم ، اليوم ، الديمقراطية البورجوازية ، محاولة اخضاع العمال
لنظام الاستغلال والارهاق البروي .

وعلى الجماهير العاملة أن تختار ، اليوم ، في عدد من البلاد الرأسمالية ، ليس بين
دكتاتورية البروليتاريا والديمقراطية البورجوازية ، بل بين الديمقراطية
البورجوازية والفاشية^(٢) .

ولقد اختصر موديس توريث تعاليم الجدلية الماركسية حول هذه المسألة في
عام ١٩٣٤ في المؤتمر القومي للحزب الشيوعي الفرنسي في الكلمات التالية :

(١) لينين : الدولة والثورة ص ٦٦

(٢) ديتروف : المرجع المذكور ص ١٣٧

يناضل الشيوعيون ضد جميع صور الدكتاتورية البورجوازية حتى ولو ارتدت هذه الدكتاتورية صورة الديمقراطية البورجوازية . غير أن الشيوعيين لن يهملوا قط الصورة التي يرتد بها النظام السيامي للبورجوازية . فهم يكشفون القناع عن عملية انحطاط الديمقراطية البورجوازية الرجعي ، مهدة الطريق أمام الفاشية . لقد دافعوا ، ويدافعون ، وسوف يدافعون ، عن جميع الحريات الديمقراطية التي فازت بها الجماهير نفسها ، وأولها جميع حقوق الطبقة العاملة^(١) .

توجد الطبقة العاملة ، في نضالها ضد الفاشية للدفاع عن الحريات الديمقراطية البورجوازية ، أساساً للتحالف مع الطبقات المتوسطة وطبقة الفلاحين العاملين ، تلك الطبقات التي ترتبط بالحريات الديمقراطية وتذهب ضحية دكتاتورية رأس المال الكبير . فهي تعمل على فصل هذه الطبقات عن البورجوازية الكبرى ، وعزل البورجوازية ، وحرمانها من انصارها بين البورجوازية الصغرى . يدعم النضال ضد الفاشية ، إذن ، قوة تحالف البروليتاريا ، والفلاحين والطبقات المتوسطة ، تلك القوة التي بدونها لا يمكن الخلاص من ذلك السد الذي تقيمه القوى الرجعية في وجه التقدم الاجتماعي .

ولا تنسى الطبقة العاملة ، في نضالها من أجل الدفاع عن الحريات الديمقراطية ، أنها تناضل أيضاً من أجل حرية اسبي ، هي حرية العمال ، وقد تحروا من استغلال الانسان لأخيه الانسان ، أن يمارسوا سلطة دولة من نوع جديد ، فهي التمييز عن ارادة غالبية الأمة العظمى ، وأن يمحوا الدولة تقوم بتطبيق واعٍ لقوانين الطبيعة والمجتمع لمصلحة المجتمع .

(١) م . توريد ، مؤلفات ، كتاب ٢ ، ج ٦ ص ١٧٠ - ١٧١

تناضل الطبقة العاملة من أجل الدفاع عن الحريات الديمقراطية
البورجوازية وتوسيعها . لهذا النضال ، إذن ، محتوى اجتماعي يختلف نوعياً عن
نضال البورجوازية من أجل « الحرية » .

ولا يمكن إيجاد علاقات انتاج جديدة اشتراكية ، تعني انتقال الانسانية إلى
الحرية الفعلية ، إلا بازدهار الديمقراطية باوسع معناها .

ندرك الآن الصلة بين المسألة السياسية لنضال طبقة العمال ، من أجل الحريات
الديمقراطية ، وبين المسألة النظرية لتطبيق قانون الترابط الضروري بين علاقات.
الانتاج وقوى الانتاج ، كما ندرك الصلة بين آخر مؤلف نظري لستالين (مشاكل
الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي) وبين هذا المقطع من خطابه ، في
المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي ، في الاتحاد السوفياتي :

كان للبورجوازية ، في الماضي ، ان تتظاهر بالنزعة المتحررة ، فكانت تدافع
عن الحريات الديمقراطية البورجوازية ، فتوجد هكذا شعبية لها . أما الآن فلم يبق.
أي أثر للنزعة المتحررة . ولم تعد توجد « الحريات الفردية » المزعومة ، ولا يعترف
اليوم بحقوق الفرد إلا لأولئك الذين يملكون رأس مال ، بينما سائر المواطنين
يعتبرون مواد انسانية خام صالحة فقط للاستغلال . لقد ديس بالاقدام مبدأ
المساواة في الحقوق بين الناس والأمم ، وحل محله المبدأ الذي يعطى كل الحقوق
للأقلية المستغلة ، ويحرم غالبية المواطنين المستغلين من حقوقهم .

لقد أُلقي براية الحريات الديمقراطية البورجوازية . وأعتقد أن عليكم ، يا ممثلي
الاحزاب الشيوعية والديمقراطية ، ان ترفعوا هذه الراية وتحملوها وتتقدموا بها إلى
الأمم ، إذا أردتم ان تجميعوا حولكم غالبية الشعب . وليس أحد غيركم يستطيع
رفع هذه الراية^(١) .

(١) ستالين : آخر مؤلفات ، ص ١٨٧ ، ١٨٨ . المطبوعات الاجتماعية ، باريس ٢٩٥٣

الْأُمَمُ (١)

١ — الأُمة والطبقة الاجتماعية .

٢ — النظرة العالمية للأمة .

أ) ماهي الأمة ؟

ب) بعض أخطاء يجب تجنبها .

٣ — البورجوازية والأمة .

أ) تكوين الأمم البورجوازية .

ب) البورجوازية على رأس الأمة .

ج) البورجوازية خاتمة للأمة .

٤ — الطبقة العاملة والأمة .

أ) النزعة العالمية البروليتارية .

ب) النزعة الوطنية البروليتارية .

١ - الأُمَّة والطَبَقَةُ الاجتماعيَّة

ليس هناك من مشكلة تشغل الناس ، في الوقت الحاضر ، أكثر من المشكلة القومية . ويمكن القول ، سواء كان ذلك بصدد نضال الشعب الفرنسي من أجل استقلاله ، ووجوده ، أم بصدد نضال شعوب الفيتنام المظفر ، أم نضال شعب مراكش أم شعوب الشرق الأوسط ، الخ ، إن المشكلة القومية ازدادت أهميتها مع الأيام . غير أنها مشكلة صعبة جداً ؛ ولا يمكن التعرض لها وحلها إلا على أساس المادية التاريخية .

كان لينين يقول ، وهو يتجول عام ١٩٠٢ في شوارع لندن ، تلك المدينة التي يرجع الفضل في قوتها إلى الرأسماليين : « هنا تعيش أمتان » مشيراً إلى الفرق بين شوارع الأحياء البورجوازية الفخمة وبين الأزقة الضيقة البائسة التي تتكدس فيها الطبقة العاملة . وكانت البورجوازية تريد أن توهم الناس أن التاريخ قائم فقط على النضال بين الأمم ؛ محاولة بذلك إخفاء اضطهادها الطبقي ، وأن تقنع العمال أن مصالحها هي مصالح جميع الأمة . غير أن المادية التاريخية ، باكتشافها أن التاريخ يحركه نضال الطبقات ، قد دلت على أن انقسام الناس إلى طبقات متعارضة أشد عمقاً من انقسامهم إلى أمم ؛ ويمكن تفسير الوان النضال بين الأمم بواسطة نضال الطبقات ، وبمحتوى الأمم الطبقي .

ولا يعني تفضيل الماركسيين للطبقة الاجتماعية قط أنهم لا يعبأون بالأمة ، فالأمة حقيقة تاريخية ظهرت وتنمو على أساس طبقي ، كما سنرى ، وسوف تزول في المجتمع الحالي من الطبقات ، غير أنها ، خلال الفترة الطويلة التي توجد فيها ، تقوم بدور كبير يفسر أهمية الحركات القومية في نظر الماركسيين . ولهذا كانت النظرية

القائلة بنفي حقيقة القومية مضادة للمادية . ويقول بهذه النظرية اعداء الحركة العمالية ، وأولهم زعماء الاشتراكية اليمينيون الذين يدعون العمال إلى التخلي عن السيادة القومية لحساب الاستعمار الاميركي ، بينما يؤيد الماركسيون الحقيقيون ، على العكس ، وهم المخلصون للمادية التاريخية ، بقوة ، حركات التحرر القومي في الشعوب المضطهدة التابعة . ولكنهم لا ينظرون إلى المشكلة القومية في ذاتها : بل هم يربطونها بنضال البروليتاريا الثوري ، وبمسألة تحرير البروليتاريا من النير الطبقي .

٢ - النظرية العلمية للأمة .

١ - ماهي الأمة ؟

الأمة هي حقيقة موضوعية . ولقد دفع هتلريون غن عقيدتهم بأنهم يمكنهم إزالة الأمم عن سطح الكرة غالباً ، وادركوا ان هذه الحقيقة موجودة ، وانها تتمتع بقوة عظيمة للمقاومة .

فما هي صفاتها ؟

أ) وحدة اللغة .

يتكلم اعضاء الأمة الواحدة لغة واحدة ، هي اللغة القومية . ولهذا حاول الغزاة الفاتحون الذين ارادوا ، عبر التاريخ ، القضاء على قومية ما ، ان يفرضوا عليها لغة الدولة المنتصرة . فالتمثل اللغوي ، إذن ، هو صورة من الاضطهاد القومي . وقد استعمل قياصرة روسيا القديمة هذا التمثل في الشعوب الصغيرة المستعمرة .

وكذلك يفعل الاستعماريون الفرنسيون في افريقيا الشمالية : غير انه لا يمكننا فرض لغة على شعب ما : لأن اللغة الوحيدة التي يعترف بها هي لغته الأم .

حيث يرشف ويرشف الحروف

التي يتلألأ فيها الوطن ويحقق^(١)

نضال الأمم المضطهدة من أجل استقلالها ، هو ، إذن ، أيضاً نضال من أجل لغتها . ذلك هو شأن الشعوب الناطقة باللغة العربية التي استعمرها الاستعماريون الفرنسيون .

اللغة اداة قوية للثقافة القومية : ولهذا شجعت الحرية التامة التي أعطيت لمختلف اللغات القومية ، في الاتحاد السوفياتي ، منذ عام ١٩١٧ ، التفتح الثقافي للشعوب التي اضطهدتها الاستعمار أيام روسيا القيصرية .

اللغة هي ملك الأمة في مجموعها وليست ملك طبقة معينة . ولأ فكيف يستطيع التفاهم أعضاء الطبقات فيما بينهم ؟ يحارب ستالين في كتابه الرائع : حول الماركسية في علم اللغة^(٢) النظرية المضادة للماركسية التي يقول بها الذين يعتقدون على تعدد الطبقات فينتهون إلى تعدد اللغات في أمة معينة ، لا شك أنه يمكن أن يوجد لهجات تستعملها فئات من الطبقة المحظوظة ، تلك الفئات التي تريد ، بأي ثمن ، التميز عن غيرها : (وهكذا كانت « الشبيبة الذهبية » أيام ردة الفعل التوميدوية ، تتظاهر بأنها لا تتكلم كالشعب) غير ان بعض النعاير ، والاستعمالات الغريبة لا تكفي لتكوين لغة . فاللغة هي ثرة تاريخ شعب ؛ فهي لا تتغير إلا ببطء شديد ،

(١) أراجون « جندي القرى الملة » في « ديانا الفرنسية » .

(٢) ستالين : « حول الماركسية في علم اللغة » في آخر مؤلفات .

ويظل تركيبها ذاته ، خلال النظم الاجتماعية المختلفة ، وان كانت الفاظها تزداد غنى شيئاً فشيئاً (بفضل تقدم التقنيات خاصة) . ويستعمل كل أعضاء الأمة ، مهما كانت طبقتهم ، نفس اللغة ، وان كانت كل طبقة تحاول استعمال اللغة لصالحها . مثال : ضمنت البورجوازية ، بإيجادها للمدرسة الاجبارية ، في مطلع الجمهورية الثالثة ، انتشاراً واسعاً للغة الفرنسية ، لاسيما بين الفلاحين ، وكانت تلك مصلحتها الطبقية ، لأنه كان على دافع الضرائب أن يعرف قراءة أوراق الضرائب التي فرضتها الدولة البورجوازية ؛ كما كان على الفلاح ، إذا ما دعي لحمل السلاح ، ان يفهم أوامر رئيسه . غير أن البروليتاريا ، التي كانت تتكلم أيضاً باللغة الفرنسية ، لغة جميع الأمة ، عرفت كيف تستفيد من هذا الانتشار للغة ؛ وليس فقط لأن دراسة اللغة الفرنسية قوت نضالها الطبقي الخاص ؛ بل لأن انتشار اللغة الفرنسية سهل التحالف الثوري مع طبقة الفلاحين العاملة : فهذا الفلاح الفتي الذي كان يتعلم في الصف قراءة اللغة الفرنسية كان يستطيع أن يقرأ أمام العائلة والأصدقاء الجريدة الثورية المطبوعة في المدينة^(١) .

ولا تغنى أهمية اللغة ، كعنصر مكون للأمة في مجموعها ، ان اللغة تكفي لتكوين الأمة : إذ يمكن لأمم مختلفة أن تتكلم نفس اللغة : وهكذا يتكلم الانجليز والاميركيون الشماليون نفس اللغة ، ومع ذلك يكوّنون امتين مختلفتين ؛ وقد غت هاتان الأمتان على أساس بلدين مختلفين^(٢) .

(١) راجع الصفحات الراضة التي كتبها موريس توريز في « ابن الشعب » ص ٢٣ ، ٢٧ ، حول أهمية دراسة اللغة القومية في تكوين المناضل الثوري .

(٢) أما سويسرا فهي تجمع ، على أرض واحدة ، قوميات مختلفة ، تتكلم كل منها لغتها الخاصة ، ولقد أتاح نحو هذا البلد التاريخي ، والتقاليد الديمقراطية القروية ، وكما يقول ستالين في « الماركسية والمهالة القومية والاستعمارية » (ص ٤٩ . المطبوعات الاجتماعية ، باريس ١٩٥٠) . « اللزفة الديمقراطية العالمية » ، كل هذا أتاح للقوميات التي تكون سويسرا ان تعيش بحرية جنبا إلى جنب .

ب) وحدة الأرض

إذا كانت الأمة وحدة لغوية فإنها أيضاً وحدة أرض، إذ أن كل أمة هي ثمرة التآليف ؛ فهي تستحيل بدون حياة طويلة مشتركة : ولهذا تعتبر الشعوب كل ضم لجزء من أرض الوطن اعتداءً على الأمة .

ونلاحظ أن حرب كوريا لا يمكن تقديرها بصورة صحيحة إلا إذا أدركنا أهمية الأرض كمعصر من العناصر المكونة للأمة ، تكون كوريا الجنوبية و كوريا الشمالية دولتين، ولكنها أمة واحدة. ولهذا كانت النظرية، التي دافعت عنها الدبلوماسية الروسية في الأمم المتحدة ... داعية إلى عدم التدخل لأن حرب كوريا قضية داخلية، وحرب أهلية - عادية. فقد كانت هذه الحرب داخل أمة واحدة. كما كان إرسال الجيوش الاميركية عملاً عدائياً ضد الأمة الكورية في مجموعها .

ويمكننا أن نلاحظ أن وحدة الأرض تجعل مشكلة القومية مسألة حساسة جداً بالنسبة للفلاحين : ففي بعض الحالات تصبح مسألة الفلاحين في مقدمة المشكلة القومية ، لأن الفلاحين قد 'حرموا من أرض الأجداد (مثال ذلك الشعوب المستعمرة) .

غير أن وحدة الأرض ، مهما كانت أهميتها ، لا تكفي لتكوين الأمة . فلقد وجدت ، في القرون الوسطى، الظروف الاقتصادية لتكوين أرض قومية؛ ولكنها كان ينقصها وحدة الحياة الاقتصادية التي تربط مختلف الأجزاء . إذ يجب ، لتكوين الأمة ، هذه الرابطة الاقتصادية الداخلية بين مختلف أجزاء أرض الوطن .

ج) وحدة الحياة الاقتصادية

الأمة سوق

كانت فرنسا الاقتصادية مجموعة من المقاطعات ، لكل منها حياتها الاقتصادية الخاصة ، وعملتها ، ومقاييسها ، وأوزانها ، تنصلها سلسلة من الجمارك التي تعيق التبادل بينها . ولم يكن ليتم توحيد الأمة الفرنسية عام ١٧٨٩ إلا بإزالة هذه العوائق في وجه الوحدة (ولا سيما الجمارك الداخلية) .

وكذلك هيا توحيد المانيا الاقتصادي توحيدها السياسي .

ذلك لأن السوق يضمن التبادل بين المنتوجات القادمة من مختلف أنحاء أرض . وتزداد قوة الحياة الاقتصادية المشتركة (مع توحيد العملة) بنو طرق الاتصال ووسائله .

تلك هي الأسس المادية التي بدونها لا يمكن وجود أية أمة . ولهذا جهد المهترئون ، عام ١٩٤٠ ، والبورجوازية الفرنسية الكبرى لاستعباد بلادنا ، وتخطيم وحدة حياتها القومية : فقسوا أرض الوطن إلى «منطقتين» ، وتألبوا على صناعتنا القومية محاولين تحويل فرنسا إلى بلد زراعي فقط ، تابع لالمانيا الصناعية .

ويسمى ، اليوم ، أصحاب مشروع شومان (للفحم والفولاذ) لتحقيق نفس الهدف : فهم يريدون تصفية الصناعة القومية الفرنسية ، التي هي أساس استقلال بلادنا ، وذلك لمصلحة الاستثمار الاميركي وكبار الصناعيين في الرور .

ولنلاحظ أن ازدهار الديمقراطيات الشعبية القومي ، كرومانيا ، وبلغاريا ، مشروط ، على العكس ، بتقديم صناعتها القومية الهائل .

ملاحظة :

لا يناقض التضال بين الطبقات ، داخل أمة من الأمم ، قط وحدة الحياة الاقتصادية ، لان وجود الطبقات يعتمد على واقع اقتصادي ممتاز هو الانتاج .

فطالما وجدت الرأسمالية طالما ظلت البورجوازية والبروليتاريا مرتبطتين معاً بجميع روابط الحياة الاقتصادية ، كجزئين مكوّنين لمجتمع رأسمالي واحد . فلا يستطيع البورجوازيون العيش والازدهار إذا لم يتوفر لهم العمال المأجورون ؛ كما لا يستطيع البروليتاريون العيش إذا لم يعملوا عند الرأسماليين . ويعني قطع الروابط الاقتصادية بينها توقف كل انتاج ؛ وتوقف كل انتاج يؤدي إلى موت المجتمع ، وموت الطبقات نفسها . ولهذا ندرك أن ليس هناك من طبقة تريد الملاك . لا يمكن للنضال الطبقي ، مهما اشتد ، أن يؤدي إلى انحلال المجتمع ^(١) .

د) وحدة التكوين النفسي والثقافي

تتيح لنا المادية الجدلية أن ندرك أن وحدة الظروف الحياتية الدائمة تؤدي إلى خواص نفسية مشتركة بين أعضاء أمة من الأمم .

فالأمة هي وحدة تكوين نفسي . فهناك خلق قومي يميز كل أمة عن الأمم الأخرى ، وأصل هذا الاختلاف أن كل شعب يحيا ، منذ أمد طويل ، في ظروف خاصة . كما يجب أن نشير إلى أن وحدة اللغة تولد بالضرورة ، مع مرور الزمن ، خواص نفسية مشتركة .

(١) الماركسية والمساءلة القومية والاستعمارية ، ص ١٣ . المطبوعات الاجتماعية .

ويجب أن لا نخلط بين الأمور الفكرية والأمور النفسية . إذ أن للطبقات ، التي تناضل فيما بينها ، نظريات فكرية متعارضة ، ولكنه يوجد ، مع ذلك ، معالم خلقية خاصة بالفرنسيين ، في مجموعهم . كحدة الذهن ، مثلاً ، والميل للأفكار الواضحة . كما أن حب الحرية قوي بين الشعب الفرنسي . ويفسر هذا بتقاليدهم الثورية القديمة .

تجد وحدة التكوين النفسي أسمى تعبير عنها في وحدة الثقافة . إذ لكل أمة تراث ثقافي يعكس صورتها . وتوجد هذه الوحدة الثقافية رابطة قوية بين أعضاء الأمة .

تعترف الشعوب بقية التراث الثقافي كمعصر من عناصر الوحدة القومية : فانجلترا هي شيكسبير ، ونيوتن ، وكبار الرسامين . وفرنسا هي فولتير ، وباستور ، والكتانديثايات ، وقصور اللوار . والمانيا هي جوته ، ومفونيات بتهوفن . وروسيا هي بوشكين ، وتولستوي ، وبافلوف ، وغوركي .

وتدافع كل أمة ، في محافظتها على ثقافتها ، عن وجودها المادي كأمة بصورة غير مباشرة . وهكذا يقف اشعاع باريس وروما الثقافي حجر عثرة في وجه « الحرب في أوروبا » التي يحلم بها زعماء واشنطن . لأنهم لا يعرفون ولا يحبون سوى الدولار ؛ بينما يتفق ملايين الناس ، من مختلف المعتقدات ، في جميع أنحاء العالم ، لمحاربة حرب تقضي على روائع روما وباريس .

ومن هنا ندرك كيف أن البورجوازية الكبرى الرجعية ، في ايجادها لظروف مادية تناقض غو الثقافة الفرنسية ، تناضل ، موضوعياً ، ضد وجود الأمة نفسها . يجعلنا هذا نرى أنه لا يمكننا التكلم عن وحدة ثقافية مطلقة ، خارج العلاقات الطبقية ، حتى إذا ما بلغ النضال الطبقي درجة عالية يضطر الطبقة المستغلة إلى

التنكر للمصلحة القومية، نجد أن هذه الطبقة 'تخرج'، عندئذ، وحدة الثقافة. ذلك هو الحال في فرنسا. فلقد خاصمت البورجوازية الرجعية أفضل تقاليد بلادها الثقافية وتنكرت للمصالح القومية. وأينما ذلك بمناسبة الاحتفال بذكرى الشاعر القومي الكبير فكتور هوجو: فلقد سمعت إلى حصر نطاق الاحتفالات بهذه الذكرى، لأن آثار فكتور هوجو الضخمة الشعبية، في خدمة الحرية والأخاء والسلم، تظهر مخازيها. فلقد رأينا في باريس، عند ساحة فكتور هوجو، سيارة فوردهل محل تمثال الشاعر. والطبقة الثورية، أي طبقة العمال، هي التي تحافظ على التراث الثقافي.

هـ) وحدة مستقوة، تكونت تاريخياً

هذه العناصر المتعددة (وحدة اللغة، وحدة الأرض، وحدة الحياة الاقتصادية، وحدة التكوين النفسي والثقافي) لم توجد دائماً. بل تكونت على مدى التاريخ. لأن الوحدة القومية هي ثمرة تاريخية. ولهذا كان أعوان هتلر بين سنتي ١٩٤٠ - ١٩٤٤ يشوهون تاريخ شعبنا لضعاف وعبه القومي. فكانوا يدعون، مثلاً، إلى كراهية ثورة ١٧٨٩، التي لا يمكن فهم التاريخ القومي بدونها، كما أن ذكرها رابط قوي بين الفرنسيين.

وسوف نعود، في القسم الثالث من هذا الدرس، للحديث عن تكوين الأمة التاريخية.

يجب، مع ذلك، كي توجد الأمة، أن تكون الوحدة، التي تكونت تاريخياً مستقرة. ولهذا لم تكن امبراطورية نابليون الأولى أمة، بل كانت مجموعة من التجمعات العابرة التي ترتبط فيما بينها بروابط واهية (ستالين). وكانت هذه الامبراطورية تمتد خارج حدود فرنسا فتشمل ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا، الخ...

هذه الامبراطورية التي قامت بالسيف زالت بالسيف . غير أن الكوارث الحربية التي قضت عليها لم تقض على الأمة الفرنسية ، ولم يكن بإمكانها ان تقضي عليها . وكذلك شأن الأمة الالمانية ؛ إذا أن انهيار هتلر لم يكن يعني نهاية هذه الأمة ، كما أن مطالبتها بالوحدة شرعية . نستطيع الآن أن ندوك تعريف ستالين المشهورة للأمة :

الأمة وحدة مستقرة ، تكونت تاريخياً ، في اللغة ، والأرض ، والحياة الاقتصادية والتكوين النفسي ، تظهر في وحدة الثقافة ^(١) .

ب - بعض أخطاء يجب تجنبها

(أ) تتفاعل العناصر المكوّنة للأمة . وليس هناك من عنصر ، يكفي وحده ، لتكوين الأمة : ولهذا فإن قصر الأمة على أحد جوانبها موقف ميثافيزيقي . كموقف ارنست وينان ، مثلاً ، الذي كان يقول : « الأمة - نفس » ^(٢) . فكان يجهل الأسس المادية التي بدونها تخلو الأمة من الحياة الروحية . وهذا أيضاً موقف النظرين الاشتراكيين الديمقراطيين أوتو بور (otto Bauer) و سبرنجر (Springer) الذي حاربه ستالين ، فهما يدعيان بأن الأمة تنحصر في وحدة الثقافة . فينكران وحدة الأرض واللغة . ولو أن هذه النظرة المثالية سيطرت لأدت إلى إبعاد الناس عن النضال من أجل الأسس المادية لوجودهم .

(١) الماركسية والمساءة القومية والاستعمارية ص ١٥

(٢) رينان : « ما هي الأمة ؟ » خطب ومحاضرات .

ب) بعض العناصر في تحديد الأمة المادي : الجنس والدولة . ليس الجنس عنصراً مكوناً للوحدة القومية . الجنس هو جماعة مهمة من الناس لهم أخلاق جسدية مشتركة متوارثة (كلون الجلد والعينين وشكل الوجه) فهو إذن عنصر بيولوجي غير انه ليس هناك من عنصر بيولوجي يستطيع القيام بدور فعال في تطور المجتمعات لا يمكن فهمه إلا بالوقائع الاجتماعية (كالانتاج ونضال الطبقات ، الخ .) ولهذا نرى أن شعوباً مختلفة بيولوجياً (الروس والصينيون) لهم نحو تاريخي مماثل منذ المجتمع البدائي حتى الرأسمالية والاشتراكية .

يكون اليهود جماعة جنسية ، ولكنهم مع ذلك ليسوا أمة . إذ يعيش اليهود الفرنسيون ، واليهود الألمان ، واليهود الأميركيون ، الخ .. فوق أراضٍ مختلفة ، ويتكلمون لغات مختلفة ، ويشاركون في وحدات اقتصادية وثقافية مختلفة . فهم إذن أعضاء في أمم مختلفة . أما دولة إسرائيل ، فهي ليست « دولة يهودية » لأنها تضم عدداً كبيراً من العرب .

الأمة الفرنسية مزيج من أجناس متعددة ، وقد مثل هذا المزيج عيد « الاتحاد » (Fédération) في ١٤ تموز سنة ١٧٩٠ ، فقد اعترفت العناصر الجنسية المختلفة (النورمان ، الباسك ، التريتون ، البروفنسيون) بأنها أعضاء من وحدة قومية هي ثمرة للتاريخ . ولقد قام الاقطاعيون ، أعداء الأمة ، بالحديث عن الدم ضد الوطن ، للمحافظة على امتيازاتهم . ولم يكن لهذه الامتيازات ما يبررها سوى الوراثة . ويمكن القول أن ثورة ١٧٨٩ ، في فرنسا ، كانت انتصاراً للحقيقة القومية على المبدأ المنصري .

المنصرية هي عدوة الامم : ولقد دلل على ذلك المناريون ، الذين كانوا يدعون انهم « شعب مختار » ويدوسون بأرجلهم استقلال الشعوب ، بصورة قهوية .

وسار على غرارهم الامير كيون في كوريا. وتنمي البوجوازية الكبرى الاستعمارية، في البلاد الرأسمالية، الافكار العنصرية، محاولة تبوير سياستها العدائية، ولكي تؤلب الشعوب كل منها ضد الآخر. وهذا هو شأن الدعايات الاستعمارية : فهي تريد أن توهم العمال الفرنسيين، كي تبور استقلال الشعوب المضطهدة، ان الافريقيين الشماليين وسكان مدغشقر والفيتناميين، الخ .. هم من اقل جنس. غير أن العمال الفرنسيين يلاحظون ان أولئك الذين يأبون على المركشين^١ والجزائريين والفيتناميين استقلالهم القومي هم أنفسهم الذين يضحون باستقلال الامة الفرنسية من أجل الاميركان الاستعماريين .

وليست الدولة عنصراً مكوناً للامة، فقد قلنا سابقاً إن امبراطورية نابوليون (أي دولة نابوليون في الواقع) كانت مجموعة غير مستقرة، عابرة - كما أن وحدة الدولة المستقرة لا تكون الحقيقة القومية، فقد كانت دولة القياصرة قوية مستقرة خلال قرون عدة؛ ولكن الامم التي كانت تحكمها كانت متعددة، وكانت أكثر استقراراً منها، لان الدولة القيصرية قد زالت، بينما ظلت هذه الامم، داخل دولة جديدة، متعددة القوميات، وهي الدولة السوفياتية. يمكن إذن إن توجد دولة مكونة من عدة أمم.

كما يمكن أن توجد دولتان لامة واحدة: فقد وجد في فرنسا، عام ١٨٧١، وجها لوجه، سلطتان للدولة : الكومون، وهي سلطة العمال؛ ومجلس فرساي، وهو سلطة البورجوازية (يرجع القاري^٢ إلى الدرس الثاني والعشرين، بصدد محتوى الدولة الطبقي). تدافع الدولة، في مجتمع منقسم إلى طبقات متعارضة، عن مصالح الطبقة السائدة، وان ادعت انها تتكلم باسم « المصلحة العامة » .

إن إدخال الدولة في تحديد الامة، يعني حرمان الأمم المضطهدة (أي التي

تفتقر إلى دولة مستقلة (من لقب الامة .) ويفضي بنا هذا إلى تبرير الاضطهاد الذي تذهب ضحته البلدان التابعة والمستعمرة) . كما أن إدخال الدولة في تعريف الأمة يعني رفض لقب الأمة لختلف الأمم التي تكون الاتحاد السوفياتي : فقد أقامت هذه الأمم لنفسها دولة مشتركة دون أن تسيء بشيء إلى أصلاتها القومية :

من المهم جداً إذن ان لا نخلط بين الدولة والأمة . فإيجاد « وحدة سياسية أوروبية » لن يستطيع توليد « أمة أوروبية » !

ولإذا كانت الدولة ليست عنصراً مكوناً للأمة ، فإنها مساعد قوي على نحو الأمة ، ولهذا تطالب الأمم التي يضطهدونها المستعمرون بدولة قومية مستقلة ضد الدولة الاستعمارية الأجنبية .

٣ - البُورجُوازية والأمة

تتخذ المسألة القومية عدة أوجه حسب الطبقات التي تثيرها والوقت الذي تثيرها فيه . فيجب ، كي تفهم هذه الالوجه المتعددة ، أن ندرس الأمة كحقيقة تاريخية .

١ - تكوين الأمم البُورجُوازية

لم تهبط عناصر الأمة - وهي اللغة ، والأرض ، ووحدة الثقافة - من السماء ، بل تكونت شيئاً فشيئاً منذ العصر السابق على الرأسمالية . وقد وجدت هذه

العناصر بصورة بدائية ؟ وكانت تكون، في أفضل الأحوال ، عوامل فعالة كاملة لتكوين الأمة المستقبلية ، مع توفر بعض الظروف الملائمة . ولم تتحول هذه القوة الكامنة إلى حقيقة إلا في عصر الرأسمالية الصاعدة ، بأسواقها القومية ، ومراكزها الاقتصادية والثقافية^(١)

قامت السوق إذن بدور فعال في نشوء الأمة ، وهكذا نجد ، عند أصل الأمة ، نحو طريقة الانتاج الرأسمالية ، ووفرة المنتجات المعدة للتبادل ، وازديادها ؛ فكان لا بد من توفير الظروف الملائمة للتبادل المستمر ، أي كان لا بد من ايجاد السوق . كان بهم البورجوازية التاجرة تكوين الوحدة القومية . وهكذا ندرك الرابطة الموضوعية بين الطبقة والأمة . كتب لينين يقول :

لم يكن ايجاد هذه الروابط القومية سوى ايجاد الروابط البورجوازية^(٢) .

نسمي ايماً ببورجوازية الأمم التي ولدت في عصر الرأسمالية الصاعدة ؛ ونعنيها عن الأمم الاشتراكية التي سوف نتحدث عنها في الدرس الرابع والعشرين .

ترفض المادية التاريخية القول بنظرية علماء الاجتماع البورجوازين الذين يصورون الروابط القومية على أنها استمرار لعلاقات القبيلة وتعيم لها . إذ ليست القبيلة سوى مجموعة عائلات ، وهي تتعلق بمستوى منخفض جداً لقوى الانتاج . غير انه وجب ازدياد هائل للانتاج ، لخلق سوق قومي ، وقد تطلب ذلك نحو متزايداً منظمًا للتبادل بين المناطق المنعزلة بعضها عن الآخر ، والتي كانت تستهلك انتاجها الضعيف لوحدها . ولا يمكن ان يكون هذا السوق إلا من عمل طبقة تعيش من

(١) ستالين : الماركسية والمساءة القومية والاستعمارية ص ٣٦١

(٢) لينين : من م « أصدقاء الشعب » مؤلفات مختارة ، ج ١ ، ص ١٠٦ ، مطبوعات باقعات الأجنبية ، موسكو ١٩٤٦

التبادل ، وهي البورجوازية التاجرة ، تلك الطبقة الجديدة التي ظهرت داخل النظام الاقطاعي القديم .

ولقد دلت كل من كارل ماركس وفردريك انجلز ، في القسم الاول من بيان الحزب الشيوعي ، كيف ان غو الانتاج التجاري (الانتاج المخصص للسوق) وعلاقات الانتاج الجديدة داخل المجتمع الاقطاعي القديم ، هما اصل الأمم . تجمعت في أمة واحدة مقاطعات مستقلة ، متحالفة فيما بينها ، لها مصالح ، وقوانين وحكومات ، وتعريفات جمركية مختلفة ، فأصبحت لها مصلحة قومية طبقية واحدة كما أصبحت لها جمارك واحدة^(١) .

ب- البورجوازية على رأس الأمة

إن تكون الأساس الاقتصادي للأمم البورجوازية هو ، في الأساس ، عملية تلقائية ؛ غير ان تكون هذه الأمم نفسها ليس تلقائياً . ذلك لان الطبقة الصاعدة ، وهي البورجوازية ، هي التي قادت ، عن معرفة وعلم ، تكون الوحدة القومية ، ولم تكن جماهير الفلاحين الواسعة ، التي لم تتضامن مع طريقة الانتاج الجديدة ، تستطيع ان تقوم بدور الرائدة غير انها ، لما كانت مرتبطة بالارض ، عصب الأمة ، فقد ساندت البورجوازية . لماذا ؟ لان تكون الوحدة القومية لمصلحة البورجوازية كان يضعف الطبقة الاقطاعية التي كانت تستغل الفلاحين .

قامت البورجوازية ، التي تنظمت طليعتها في احزاب سياسية ، بنضال طبقي

(١) كارل ماركس وفردريك انجلز : بيان الحزب الشيوعي ، القسم الاول ، ص ٣٣ .
المطبوعات الاجتماعية ، باريس ١٩٠٤

ضد الاقطاعيين ، الذين كانوا يدعون للتجزئة ؛ وكان هذا النضال يهدف إلى قلب الحواجز الجبركية الداخلية في البلاد ، واقامة التبادل الحر بين مختلف مناطق البلاد ، وتوحيد ارض الوطن وتوسيعها . ولقد وضعت احزاب البورجوازية كما وضع فلاسقتها ، من اجل ذلك ، نظرية فكرية تطالب « بوحدة الأمة » واضعين « الأمة فوق الملك » مستبدين « بحب الوطن » . ولهذا قامت الثورة البورجوازية في فرنسا ، ضد علاقات الانتاج القطاعية ، وعلا الهتاف « تحيا الامة » . ولما كان النظام القطاعي قد أصبح لا يطابق بالنسبة لغالبية الشعب العظيم – من فلاحين ، وصغار البورجوازيين الصناع اليدويين ، والمثقفين ، الخ ... – فقد عزلت القطاعية وهزمتها ، بعد أن عبأت جميع قواها ، واشرفت على توجيهها ، فاستطاعت ، بعد ذلك ، ان توسع بدون عائق ، صور الملكية البورجوازية (فتشمل الارض مثلا) كما بعثت في الاقتصاد البورجوازي انتفاضة كبرى (الانتاج والتجارة) .

كانت البورجوازية الثورية الفرنسية تجسد ، في هذا العصر ، ضد الاقطاعيين الرجعيين ، مصالح اغلبية الامة . ولهذا كانت البورجوازية مخاضة للوطن امام خيانة الاقطاعيين الذين اعلنوا الحرب على الامة ، يملين باسترجاع سيطرتهم المفقودة (مثال ذلك مهاجرو كوبلانس ، والمؤامرة التي حاكها ضد الشعب الفرنسي لويس السادس عشر وما دي انطوانيت بالتحالف مع كبار اقطاعي اوربا) . ولهذا ندرك ان نشيد المارسييز (ولد سنة ١٧٩٣) بمجموعه هو نشيد الثورة (ضد الاقطاعيين في الداخل) كما هو نشيد الاستقلال القومي (ضد استعباد الاقطاعيين البروسيين والنمساويين) . كما ندرك أيضاً اعلان البورجوازية الثورية لحق الامم في ان تستقل بأمورها . وكان هذا دعوة إلى جميع البورجوازيين ، في مختلف البلدان ، إلى تحليم نير القطاع في كل مكان .

غير أنه يجب ان لا ننسى - وهذا هو الشيء الأساسي - ان نضال البورجوازية القومي كان له دائماً أسباب طبقية . بيد ان الطبقة البورجوازية هي بالضرورة طبقة مستغلة . ينتج عن ذلك أنه إذا كانت البورجوازية الثورية قد استطاعت ان تجسد مجموع مصالح الأمة فإن وطنية البورجوازية لا يمكن ان تكون إلا جانباً مؤقتاً من نضالها . إذ أن الجانب الرئيسي الدائم لنضال البورجوازية القومي هي التزعة القومية .

وقد أخذت تزداد أهمية هذا الجانب كلما غطت ، في وجه البورجوازية المستغلة ، الطبقة المستغلة ، الا وهي البروليتاريا . التزعة القومية البورجوازية تتفق ومصالح الطبقة البورجوازية ، إذ أن هذه التزعة لا تهتم بالفروق الطبقية داخل الأمة ، وهي تدعو « للاتحاد المقدس » أي ربط مصالح جميع الطبقات بمصالح الطبقة المسيطرة وهي البورجوازية . تهدف إذن إلى فصل البروليتاريا عن نضالها الثوري ضد البورجوازية ؛ ولهذا لا تستطيع البروليتاريا ان تتحرر من الاضطهاد الطبقي إذا لم تحارب التزعة القومية ، وإذا تركت الافكار القومية تنخر صفوفها . لأن البورجوازية ، كي تحتل سيطرتها ، تفرض على جميع الأمة افكارها . وعندما يجب القول : « المصلحة البورجوازية » تقول : « المصلحة القومية » . ولكن التحليل المادي يكشف عن الحقيقة وراء المظهر .

ج - البُورْجُوازيَّة حَائِثَةُ لِلأُمَّة

يؤدي نحو نضال البروليتاريا الطبقي ، داخل الامة ، بالبورجوازية إلى تحقيق جبهة واحدة مع البورجوازية الاجنبية ، ضد البروليتاريا ، وهو تحالف جديد مقدس يذكرنا بالتحالف الذي عقدته سابقاً الدول الاقطاعية ضد الثورة البورجوازية .

نجد مثالا نموذجياً على ذلك في سنة ١٨٧١ عند البورجوازية الفرنسية . فقد قضت على كومون باديس بالتحالف مع بسمارك ، ولكن التزعة القومية البورجوازية تظهر بظهورها الحقيقي في مرحلة الرأسمالية النهائية ، المرحلة الاستعمارية .

بضاعة الأمم البورجوازية الحديثة ، فيما يتعلق بالآفكار الاجتماعية السياسية ، هي السلم الطبقي ، داخل الأمة ، بامم « الاتحاد القومي » ، وتوسيع أرض قوميتها بواسطة غزو أراضي الأمم الأجنبية ، الشك والكراهية نحو الأمم الأخرى ، القضاء على الأقليات القومية ، وتأليف جبهة موحدة مع الاستعمار .

وتستخدم البورجوازية قوة فكرة الوحدة القومية على التعبئة للقيام بحروب السلب والنهب . وهذا ما حدث عام ١٩١٤ ، مثلاً ، للبورجوازية الفرنسية والبورجوازية الألمانية ، ومن هنا نشأ قول افاتول فرنس المشهور : « يعتقد الجندي انه يموت من اجل الوطن بينما هو يموت من اجل الصناعيين » تستعين البورجوازية الاستعمارية بكل شيء لاثارة عواطف الكره نحو العمال الاجانب والمستعمرين في قلب البروليتاريا التي تستغلها : وهي تحاول بذلك ان تعيق تجمع البروليتاريا كطبقة واحدة .

وكما اشدت الاستعمار كلما ازداد البون بين مصلحة بورجوازية الاحتكار الكبرى ، وبين فئات الشعب ، بذلك لأن الاستعمار هو إعلان الحرب على الشعوب .

بعد ان كانت الرأسمالية ، في نضالها ضد الاقطاعية ، محررة للشعوب ، أصبحت الرأسمالية الاستعمارية اكبر مضطهد للشعوب . وتحولت الرأسمالية من رأسمالية تقدمية إلى رأسمالية رجعية ، فقد تمت قوى الانتاج بشكل لم يبق معه ، أمام الانسانية ، إلا ان تنتقل إلى الاشتراكية او ان تقوم ، خلال سنوات او عشرات السنوات ، بتجربة

نضال « الدول الكبرى » المسلح للحفاظ على الرأسمالية ، بصورة اصطناعية ، بواسطة المستعمرات والاحتكارات والامتيازات واضطهاد القوميات في جميع أشكاله^(١) .

بلغت أزمة الرأسمالية العامة ، التي بدأت عام ١٩١٧ ، بظهور أول دولة اشتراكية ، مناهضة البورجوازية الاستعمارية للقومية ، الفدوة ، إذ أن دفاعها اليائس عن مصالحها الطبقية أدى بها إلى خيانة مصالح الأمة بصورة مفضوحة مستعرة .

ترزح البورجوازية الفرنسية الكبرى تحت عبء ملف مفعم بالاتهام ، فهي ، بعد أن ساعدت بنشاط ، في ألمانيا ، على القضاء على القوى الشعبية ونهضة النزعة الحرية من كبوتها ، فإنها ، في فرنسا ، تعارض نضال العمال من أجل الخبز ، والحرية ، والسلم بشعارها الهزلي : « هنار ولا الجبهة الشعبية ١ » . كما أنها تقوم بتمثيل دور الوطنية وتعمل على خداع الطبقات المتوسطة بدعاية « قومية » (« فرنسا للفرنسيين ») . وهي تسلم ألمانيا الهتلرية الحديد الفرنسي ، والالمنيوم الذي تحرم منه طيراننا . وقد تأكد ، في مونخ عام ١٩٣٨ ، تحالفها مع النازيين ، ضد الشعب الفرنسي والبلد الاشتراكي ، حليف فرنسا . وبينما كانت تروج في السجون ، بمأونة الزعماء الاشتراكيين بلوم ، سورال ، الخ .. المناضلين الشيوعيين ، الذين فضحوا الخيانة الطبقية ، ساءت فرنسا إلى الطيران الألماني . وحل رعب الاحتلال وخزي نظام فيشي الفاشي . وقد قضى هذا النظام ، الموالي للرأسماليين الألمان والشركات الفرنسية ،

(١) لينين : مؤلفات (بالروسية) ج ٢١ ، ص ٢٧٣ ذكره ج : كونيو حيفة الأمة .

ص ٤٦ ، المطبوعات الاجتماعية باريس ١٩٥٠ .

على الاقتصاد الفرنسي وسخره لخدمة الحرب المتأخرة، واجبر العمال على العمل، وأعدم المواطنين بالرصاص، وجوع السكان .

حتى إذا ما أقبل التحرير، وانتصر الشعب، عملت نفس البورجوازية الكبرى على تخريب نهضة البلاد. ولما كان هتار قد اندحر، فقد وضعت نفسها في خدمة الحماة الجدد وهم الاقتصاديون الاميركان. وقتت ضد العمال الفرنسيين: بمحاول الاستعمار الاميركي، طبقاً لقانون الرأسمالية المعاصرة الأسامي، ان يضمن لنفسه أقصى الارباح بنهب البلاد المقيدة بمشروع مارشال وبواسطة حرب الغزو والاعتداء. وغد البورجوازية الكبرى « الفرنسية » يد العون لنجاح هذه السياسة .

أما نتائج ذلك، بالنسبة للأمة الفرنسية، فهي خطيرة، وإذا كنا نعرض للعناصر المكونة للحقيقة القومية واحداً واحداً فلنلاحظ ان البورجوازية تسعى للقضاء عليها .

الارض ؟ أصبحت بين يدي الجيش الاميركي؛ وقد اقيمت مناطق حرة للعزل. وسلبت ملكية الارض من الفلاحين، وتتطلب الستراتيجية الاطلنتية تهديم فرنسا في حالة الحرب (فرنسا « ابن العم الذي ») .

الاقتصاد ؟ خرب الاقتصاد القومي لمصلحة صناعات الحرب، وحل الفقر المنظم بالزراعة الفرنسية (مليون مزرعة عائلية مهددة بالزوال) ؛ وضرب السوق الفرنسي خضية مصالح الشركات الاميركية (مشروع مارشال) والالمانية (مشروع شومان) واغلق عدد من آبار المناجم في الشمال والوسط، كما تسير اعادة البناء ببطء خاضع، النع .. ولا ننس ما اصاب البحث العلمي والاعداد المهني .

اللغة ؟ ظهرت مشاريع ازدهاجية اللغة الاميركية الفرنسية، لسد حاجات

المحتل الاميركي ، واختصار اللغة الفرنسية (basic - French) . ولقد لاحظ
السيد الفريد سوفي بحسرة في جريدة الموند (٥ آب سنة ١٩٥٣) قائلاً :

من المؤلم ان نسمع من يقول بأننا لا ندافع بصورة صحيحة عن تراثنا واننا
مستعدون للتخلي عنه .

لماذا أن كل شيء منظم بشكل يجعل الاجانب المقيمين في فرنسا لا يتعلمون
اللغة الفرنسية .

والدليل على ذلك انه لم تعد تذكر الولايات المتحدة ، ولا تختصر اسمها
بالفرنسية (E , U) بل يذكر المختصر باللغة الانجليزية (U . S , A) . سوف
تقول ان هذا شيء بسيط . غير أن الاستعاضة بالمختصر الانجليزي بدلا من المختصر
الفرنسي ليس نتيجة لاغراء الدائن للمدين ، والولي للمولى ؟

ويشعر السيد سوفي بالخوف أمام « اتساع » هذا التسرب الواسع . ثم يضيف ،
بعد ذكر عدد من الامثلة ، قائلاً :

لا تؤدي هذه الامثلة من الضعف^(١) إلى افساد اللغة الفرنسية ، بل تساعد بقوة
على زوالها لان التبعية اللغوية تؤدي إلى التبعية الثقافية .
الثقافة ؟ تخريب الجامعة بصورة منتظمة ، والمدرسة العمومية . والسينما
الفرنسية ، الخ .. ؛ والتخلي عن قصر فرساي . واحتقار التقاليد الانسانية الكبرى
التي تغنت بفضل البورجوازية الصاعدة . وكذلك انتشرت اسوأ المجلات القادمة

(١) نحن في الحقيقة بصدد مشروع مخطط اكثر منا أمام « ضعف » (ج . ب . م . ك)

من اميركا او المستوحاة منها ، وعمّ التسجيد « لطريقة الحياة الاميركية » الخ . وكانت البورجوازية ، إلى جانب ذلك ، تنفذ حملة تهدف إلى اقناع الفرنسيين بأن بلادهم قد وُلت ، وأن عهد التاريخ القومي قد انقضى ، وأنه قد ذهب الأمل بوجود فرنسا مستقلة :

يتم هذا التنقص من الحقيقة القومية بتعبية ' الدولة الفرنسية لمطالب ضروب الاستثمار الاجنبية .

فكيف تبور البورجوازية ، في نظر الجماهير ، مثل هذه السياسة المناهضة للمصلحة العامة ؟ رأينا ، في مناسبات عدة ، كيف ان الطبقة الرجعية تضطر ، كي تمد في أجل حكمها ، لان تقيم من الكذب عقيدة لها ومذهباً . وهذا هو الحال هنا : فلكي تبور استعباد الشعوب ، تنشر البورجوازية الكبرى العالمية نظرية فكرية خاصة هي التزعة العالمية (Cosmopolitisme) :

وتتكون هذه الكلمة من كلمتين يونانيتين تعنيان : « مواطن العالم » . في الوقت الذي كانت البورجوازية فيه - ولا سيما في القرن الثامن عشر - تدافع ، ضد الاقطاعيين ، عن حقوق المستقبل الانساني ، حمل بفخر لقب « مواطن العالم » بعض المفكرين . وكان هذا يعبر عن رغبة في تحطيم الأسس الواهية لمجتمع قديم وابعاد علاقات اجتماعية جديدة في كل مكان . هذا المعنى يتحدث جان جاك روسو ، في نص يرجع لعام ١٧٥٥ ، عن هذه النفوس الكبيرة العالمية التي تخطت المحاجز الخيالية التي تفصل الشعوب والتي ... تشمل النوع البشري كافة برعايتها^(١) .

(١) ذكره ب . هآزار : الفكر الاوروي في القرن الثامن عشر ، ج ١ ، ص ٣٣٩ ، مطبوعات بوفان . باريس .

حتى إذا ما زالت علاقات الإنتاج القطاعية، عادت البورجوازية إلى موضوعات
النزعة العالمية ، وليس ذلك لخدمة الآمال الكريمة بل لحساب مصالحها الطبقيّة
المستغلة . وقد فضح كل من ماركس وإنجلز ، منذ عام ١٨٤٥ ، ذلك ، وفسرا
كيف أن النزعة العالمية إنما تتبع من المضاربة بين البورجوازية في مختلف البلاد
وإنها لا تهدف لتفتح جميع الناس بل لاستغلال العمال العالمي ، ولهذا كتب
ماركس يقول:

ان تسمية الاستغلال في صورته العالمية باسم الاخوة الشاملة فكرة لا يمكن أن
تولد إلا في قلب البورجوازية^(١) .

ومع ذلك فقد اتسع نضال البروليتاريا الثوري منذ ذلك المهد بشكل هائل .
وأحرك العمال، شيئا فشيئا ، بفضل انتشار الاشتراكية العلمية ، بأن مصالحهم ، في
مختلف البلدان، متحدة ضد عدو طبقي مشترك . ولما كانت البورجوازية الاستعمارية
لا تستطيع القضاء على هذه المعتقدات ، فإنها لا يمكنها إلا أن تحاول التنبص منها ؛
وهذه هي مهمة الأفكار العالمية : اقناع العمال ان حكم الاحتكارات العالمي
سيحقق آمالهم العالمية ! وهكذا تستعير نزعة الشركات العالمية وجه النزعة العالمية
البروليتارية كآخر كذبة تدعيها .

ما هو الطابع الرئيسي، في الظروف الحاضرة، لهذه الأفكار العالمية التي هي تشويه
للنزعة العالمية البروليتارية؟ التأكيد الكاذب بأن سبب الحروب الحديثة هو وجود
الأمم . ثم نخلص إلى القول بأنه يجب القضاء بسرعة على الأمم وتحطيم سيادتها ،
لان هذه السيادة « وجمية » « بالية » . وهكذا يأملون في اقناع العمال بأنهم ، إذا

(١) ماركس: خطاب حول مسألة التبادل الحر (١٨٤٨) ، ذكره جورج كونيو: حقيقة الأمة ،

ارادوا السلم ، فيجب عليهم القضاء ، بأيديهم ، على حقيقة الأمة والتتكسر لاطوانهم .

غير أن التحليل المادي للمجتمع المعاصر^(١) يدل على ان سبب الحروب العالمية ليس وجود الأمم ، بل وجود طبقة ، هي البورجوازية الاستعمارية ، التي لا تستنكف ، في سبيل انقاذ حكمها المهدد ، عن استعباد الأمم والقضاء على الشعوب .

وهكذا تبدوا التزعة العالمية في وضح النهار : فهي بدلا من ان تسعى لتحرير الناس في جميع البلدان ، تهدف - في ادائها جعل كل عامل « مواطنا للعالم » - إلى استغلال تلك الاشباح الانسانية الناتئة المجهولة^(٢) على نطاق « عالمي » بشكل وحشي معيب .

ندرك الغزى التاريخي للمحاولات الحالية لايحاد « اوروبا موحدة » إذا اعتمدنا على هذه المخططات المبدئية ، فهي تسعى لتوطيد استغلال مختلف شعوب أوروبا الرأسمالية ، برعاية الرأسماليين الاميركان ، وأول هذه الشعوب شعبنا :

وسوف يكون من نتيجة توحيد السوق الاوروبي ، على أنه الخطوة الأولى نحو اقتصاد اشتراكي ، تخفيض مستوى معيشة الفرنسيين . كما سيكون من نتيجة إزالة السيادة القومية ، على أنها تقدم للديمقراطية ، وضع فرنسا تحت رحمة الطيران الالمانى ، الذي اعيد بناؤه تحت شعار « أوروبى » : إذ أن إعادة تسليح النازيين سيجعل منهم أدوات طليعة للأضطهاد المناهض للعمال .

(١) راجع لينين : الاحتصار اسمى مراحل الرأسمالية .

(٢) جورج كوليوب : حقيقة الأمة ، ص ٨٨ - ٨٩

ولقد كتب لينين منذ عام ١٩١٥ ان الولايات المتحدة الاوروبية ، في النظام الرأسمالي ، إما مستحيلة واما رجعية^(١) .

لما كانت النزعة العالمية تروبراً للنزعة العالمية البروليتارية ، فهي ، إذن ، في خدمة الرأسمال العالمي . ولهذا كانت ، اليوم ، نظرية زعماء الاشتراكية الديمقراطية الفكرية ، الذين يأخذون على عاتقهم ، أمثال جي موليه ، أ ، فيليب ، لوبال ، خداع العمال . فهم إذن ، متضامنون مع قادة الحركة الجمهورية الشعبية ، (روبير شومان ، جورج بيدو) الذين كانوا دعاة الـ (C . E D) لانهم خدام الفاتيكان الموالي للسيطرة الاميركية ، وهم يرتدون رداء « الروحية » المسيحية لتجهيز ألد اعداء الجنس البشري^(٢) بالسلاح ، فيما وراء الرين .

ومع ذلك ، لا يمكن للاستعمار أن يخلو من التناقضات ، بالرغم مما يبذل من جهود . ولهذا كان للنزعة البورجوازية الخ توأم هو النزعة القومية الاوروبية .

وهاك مثالين على ذلك :

تبالغ الشركات الاحتكارية ، التي تدعو إلى النزعة العالمية في أوروبا ، أمام

(١) لينين : « حول شعار الولايات المتحدة الاوروبية » في مؤلفات مختارة ، ج ١ ، ص ٧٥٣ ، موسكو ، مطبوعات بالغات الاجنبية ١٩٤٦ ،

(٢) وهكذا نرى أن موضوع « أوروبا المتحدة » ، ليس الا خدعة ترددها أفواه الزعماء الاشتراكيين الديمقراطيين والحركة الجمهورية الشعبية . اذ هم يعملون على دوام انقسام أوروبا والمالبا بدلا من أن يسعوا لتفانم الفعلي بين جميع بلاد أوروبا مما كان نظاما الاجتماعي . وهذا يخدم اغراض التنازين في الدعوة إلى الحرب الذين يخشون المفاوضات المالية ونتائجها الطيبة . الا وهي توحيد ألمانيا السلمي ، والامن الجماعي لجميع البلاد الاوروبية .

الشعوب التي تريد استعبادها ، بالنزعة القومية في الولايات المتحدة ، وتستخدم جميع الوسائل لتردد على مسامع الشعب الاميركي انه «الشعب المختار» الذي ارسلته « العناية الالهية » لقيادة العالم .

تتبع البورجوازية الكبرى الفرنسية ، التي تعدل 'من « طبخة » النزعة العالمية لتلائم الاذواق في أوروبا ، سياسة نزعة قومية دامية على حساب الشعوب المستعمرة . فهي تأبى باسم « المصلحة الفرنسية » لقب الأمة على المراكشيين ، والفيتناميين الذين يناضلون من أجل استقلالهم .

فكيف لا نلاحظ الفارق النظري بين « النزعة العالمية » التي يتزها بها البورجوازيون الرجبليون وبين نزعتهم القومية الوحشية نحو شعوب الاتحاد السوفياتي التي يحملون باعادتها ، عن طريق الحرب ، إلى السوق الرأسمالي .

هذه التناقضات هي أحد مظاهر الضعف في المعسكر الاستعماري .

٤ - الطبقة العاملة والأمة

١ - النزعة العالمية البروليتارية

لا يمكن حل المسألة القومية حلاً صحيحاً إلا كجزء من مجموع ألا وهو النضال الطبقي والثورة البروليتارية .

فلقد رأينا أن الحقيقة القومية لم تكن لتتكون بدون نحو البورجوازية ، كما أن القومية البورجوازية تقوم ، في المرحلة الاستعمارية ، على اضطهاد الأمم . فكيف لا تعرض المسألة القومية ، من ثم ، للطبقة المعارضة للبورجوازية وهي

طبقة البروليتاريا ؟

يرتبط موقف البروليتاريا من المسألة القومية ، بمصلحتها وما يجب عليها كطبقة
ثورية ، فهو إذن موقف مبدئي ؛ وقد حدده ماركس وإنجلز في بيان الحزب
الشيوعي (١٨٤٨) الذي ينتهي بالشعار المشهور :

اتحدوا يا بروليتاري جميع البلاد !

هذه هي النزعة العالمية البروليتارية .

ولقد رأينا في الدرس الثالث (د) ان للنزعة القومية البورجوازية أساساً
موضوعياً هو مصلحة الطبقة المستغلة . إذ أن البورجوازية الرأسمالية لا تقنع
باستغلال بروليتاريها وشعبها الخاص بل هي تجددهم (وتضحي بهم) لاستبعاد
البروليتاريا وشعوب البلدان الأخرى ... بأنهم « المصلحة القومية » . وهذه خدعة
تخفي المصلحة البورجوازية . إذ أن مهمة النظرية الفكرية القومية أن تؤلب عمال
مختلف بلدان العالم بعضهم على بعض .

غير أن للنزعة العالمية البروليتارية ، هي أيضاً ، أساساً موضوعياً ، كما اشرنا إلى
ذلك (في الدرس الثامن عشر) - وهو أساس طبقي . إذ أن البروليتاريين ، في
جميع بلاد العالم ، نفس المصالح التي تجعلهم يتألبون على الطبقة المستغلة . لأنهم أعضاء في
نفس الطبقة المستغلة . وليست النزعة العالمية صفة عابرة للنضال البروليتاري
الطبقي . بل هي صفة أساسية . ولهذا كان مبدعاً الاشتراكية العالمية ، وهما
ماركس وإنجلز ، أيضاً مؤسسي الجمعية العالمية للعمال . (أيلول ١٨٦٤) . كما أن
بيان الحزب الشيوعي ، الذي يدعو البروليتاريين إلى النضال المنظم ضد المستغلين
في كل مكان ، وسيظل ، المشعل الهادي للثورة العالمية .

لاحظنا أن النزعة القومية والنزعة العالمية هما المظهران الفكريان للحرب الطبقة التي تقودها الرأسمالية . وتتبع لنا النزعة العالمية البروليتارية أن نبينها في كل وقت ، كما أنها تحاربهما .

تحارب النزعة القومية البورجوازية لان العمال ، بواسطة النزعة العالمية البروليتارية ، يعترفون بتضامنهم الطبقي ، ويأبون مد يد المساعدة للمعتدين من بورجوازياتهم على البلاد الأخرى . وهذا هو الحال ولا سيما حينما يناضل بروليتاريو البلاد المستعمرة لتحرير البلاد المستعمرة القومي .

وتحارب النزعة العالمية البورجوازية لان عمال جميع البلاد ، نظراً لاختلافهم للنزعة العالمية البروليتارية، يؤلفون جبهة قوية طبقية ضد الاحتكارات، كما أنهم يناضلون ، في نفس الوقت ، لتحرير وطنهم ووطن اخوانهم المضطهدين . مثال : يساعد العمال الفرنسيون ، في نضالهم ضد مشروع مارشال في فرنسا على يد الاستعمار الاميركي ، اخوانهم الاميركيين في نضالهم الطبقي ضد الرأسمال الكبير الاميركي الذي يؤدي بهم إلى البؤس ، والفاشية، والحرب.

ونرى أن مصالح العمال ، في كل بلد ، تتطلب تضامنهم العالمي الطبقي ، فكل ما يسيء للنزعة العالمية البروليتارية يسيء في نفس الوقت إلى العمال في كل بلد ، كما ان كل تقدم للنزعة العالمية البروليتارية مفيد للبروليتاريين في أي بلد .

ويلبي البروليتاريون الثوريون ، نداء بيان الحزب الشيوعي ، فيعلنون مساواة العمال في كل البلاد في الحقوق ضد النزعة القومية والنزعة العالمية ، ويقومون ، من بلد لآخر ، بالتضامن الطبقي الأخوي .

نستنتج عدة نتائج من النزعة العالمية البروليتارية كموقف مبدئي لا يتزعزع:

١ - إذا وجد ، في دولة ، أقلية من العمال لها خواصها القومية (مثال : الأنازيون في فرنسا) فلا يجب أن يوجد الاحزاب البروليتاري يضم جميع العمال ؛ وهكذا يُضمن ، بالتعاقد الطبقي ، الدفاع عن حقوق الأقليات القومية .

٢ - لا تستطيع الدولة الاشتراكية ضمان استقلال القوميات التي تضمها إلا إذا وفرت لها المساواة . وكذلك شأن الدولة السوفياتية :

٣ - حجر الزاوية في النزعة العالمية البروليتارية هو تعلق جميع البروليتاريين غير المشروط بالدولة الاشتراكية ، وقد وجدت مثل هذا الدولة ، وهي الاتحاد السوفياتي ، منذ سبع وثلاثين سنة .

فلماذا هذا التعلق غير المشروط بالاتحاد السوفياتي ؟

ان البروليتاريين ، في تحقيقهم لحلم رجال الكومون الباريسيين عام ١٨٧١ ، الذين أوجدوا ، في تشرين الأول ١٩١٧ ، أول جمهورية اشتراكية ، قد بدأوا عهداً جديداً . إذ أن الدولة السوفياتية تكون منذ تشرين الأول ١٩١٧ بالنسبة لجميع البروليتاريين في جميع البلدان الندي العام للتعبير عن مطامح الطبقات المضطهدة وارادتها وتجسيم هذه الارادة وتلك المطامح (١) .

ذلك لان الدولة الاشتراكية ، لما كانت تختلف كل الاختلاف عن جميع الدول الرأسمالية لأنها تقوم على إزالة الاستغلال الطبقي ، تكون الحصن الأمامي لجميع الطبقة البروليتارية العالمية ، وهي مرمى البورجوازية العالمية الدائم .

(١) مسائل الينية ، ج ١ ص ١٩١ . المطبوعات الاجتماعية ، باريس ١٩٤٧

فإذا دافع عنها البروليتاريون فإنهم يدافعون عن طليعتهم ؛ فهم يناضلون ،
إذن ، من أجل أنفسهم ، ومن أجل مستقبلهم ، « من أجل بناء مجتمع مشابه
للمجتمع السوفياتي ، يديهم سواء السبيل في عقروطنهم » .

فالتبجح بخدمة البروليتاريا ، مع القيام بحاربة أول دولة أقامت البروليتاريا
لنفسها ، هو حمل البروليتاريا العالمية على تضحية أفضل مناضليها وضرب عرض
الحائط بالمثل الرائع الذي يقدمونه لها منذ تشرين الأول ١٩١٧ ، ولهذا كانت
المطالبة « باستقلال الطبقة العاملة » ضد الاتحاد السوفياتي هي ربط هذه الطبقة
بعمرة الرأسمالية .

لا يمكن أن نحمل اسم الماركسي ، في الظروف الحاضرة ، إذا لم نؤيد ، علانية
وبدون أي تحفظ ، أول دكتاتورية بروليتارية في العالم^(١) .

ويكفي ، كي نقدر أهمية الدولة السوفياتية ، كأساس للزعة العالمية البروليتارية ،
أن نلاحظ ما يلي :

(أ) لم تكف البورجوازية ، في جميع البلدان الرأسمالية ، منذ تشرين الأول
١٩١٧ ، عن القول ببرنامج مشترك هو الزعة المناهضة للسوفيات^(٢) .

(١) ستاين : مسائل المينينة ، ج ١ ، ص ١٩٢

(٢) من المديد ان نلاحظ ان الزعماء الاستعماريين العالميين ، في عصرنا ، مها كانت التناقضات
التي تؤب بعضهم على البعض الآخر ، يشيرون الى الاتحاد السوفياتي على أنه العدو الأول ، ويتفقون
موقفاً يشبه جداً موقف الاطماعين الاوروبيين الذين كانوا ، في عام ١٧٨٩ ، جبهة مشتركة ضد
الثورة الفرنسية ، الثورة الديمقراطية البورجوازية ، بينا رجال أوروبا المتحرون أيدوا فرنسا
الديمقراطية ضد اقطاعي بلادهم . فإذا ما دافع العمال الثوريون ؛ اليوم ؛ في كل مكان ، عن بلد
الاشتراكية المنتصرة ، ضد الرجعية البورجوازية ، فانهم يعلنون بذلك اوامر تقاليد قديمة .

ب) ان قادة يوغوسلافيا المغامرين ، برفضهم لمبدأ الدفاع غير المشروط عن الاتحاد السوفياتي ، قد جروا بلادهم على طريق الفاشية ؛ وجعلوا منها دولة تابعة للاستعمار الاميركي ، وجلبوا الشقاء للعمال اليوغوسلافيين .

ج) ان الزعماء الاشتراكيين ، صنائع البورجوازية في الحركة العمالية ، كانوا ، في كل وقت ، أبطال النزعة المناهضة للسوفيات . كما كانوا دعاة النزعة القومية البورجوازية . ولهذا دعا قادة العمالية الثانية عام ١٩١٤ برويتارني المانيا وفرنسا للقتال من أجل « الدفاع عن الوطن » البورجوازي . فلا يمكن ، إذن ، تقدير النزعة العمالية البروليتارية حق قدرها إذا لم نقتلع النظرية الاشتراكية الديمقراطية (القومية والاستعمارية) .

د) يضاف إلى الملاحظات السابقة الملاحظة التالية :

ان الناس الذين يجاريون ، في كل وقت ، الاتحاد السوفياتي ، خدمة لمصلحتهم الطبقية ، يقومون ، في كل وقت ، بتصفية المصلحة القومية التي تدافع عنها الطبقة العاملة . بينما كانت السياسة الخارجية التي اتبعتها الاتحاد السوفياتي دائماً ، لأنه دولة اشتراكية ، مطابقة لمصالح العمال في مختلف البلدان ، ولا سيما عمال فرنسا . نرى ذلك في الوقت الحاضر بصدد المسألة الالمانية ، التي من مصلحة فرنسا الحياتية حلها حلا سلمياً . والمقترحات السوفياتية مواتية لمثل هذا الحل ، بينما السياسة التي تتبعها البورجوازية الفرنسية تحاول ابعاد مثل هذا الحل^(١) .

(١) أما فيما يتعلق بميثاق عدم الاعتداء الذي عقده الاتحاد السوفياتي مع المانيا الهتلرية في آب سنة ١٩٣٩ ، فانه يخدم مصالح السلم العالمي ، ولهذا تتناهب البورجوازية جداً ، تلك البورجوازية التي كانت ، لعل خلا ، قد حطمت الأمن الجماعي الاوروني لمصلحة الهتلري الهتلري ولم تنبأ بالتحالف الفرنسي السوفياتي . ولو أن البورجوازية الفرنسية والانجليزية ، بعد آب ١٩٣٩ ، لم ترفض

ب - النزعة الوطنية البروليتارية

النزعة العالمية البرولتارية هي التعبير عن المصالح الطبقية المشتركة بين بروليتاري جميع البلدان .

ولهذا كانت ، بالنسبة لجميع بروليتاري جميع البلاد ، النجم الهادي الذي يوجههم في المسألة القومية .

وليس للثورة الاجتماعية ، وهي هدف البروليتاريا ، طابع قومي في الأساس ؛ فمحتواها تحتوي طبقي . غير أننا رأينا أن الرأسمالية قدغت في الاطار القومي ؛ ولهذا يرتدي نضال البروليتاريا الثوري ضد البوجوازية طابعاً قومياً . إذ لا يمكن للبروليتاريا ، في بلد معين ، ان تنصر على بوجوازيها إلا إذا حاربته في عمر دارها ، وانتزعت منها القيادة السياسية . ولهذا يجب عليها ، حسب قول ماركس ، « ان تجمل من نفسها طبقة قائدة للأمة ، وان تصبح هي نفسها الأمة ^(١) » .

تعني الوطنية البروليتارية ان البروليتاريين في بلاد مختلفة يناضلون لانتزاع قيادة الأمة من يد البوجوازية في بلادهم وبناء أمة « حرة ، قوية ، سعيدة » فهو إذن نفس النضال الطبقي ضد نفس العدو العالمي الطبقي . تتخذ النزعة العالمية البروليتارية ، إذن ، طابع الوطنية البروليتارية . ويرجع هذا لوجود الحقيقة

المفاوضات التي عرضها الاتحاد السوفياتي عليها ، لتحقق الشروط التي تثل ألمانيا الهزلية في الحرب (بالتحالف الفرنسي السوفياتي) كما كانت مثولة في الشرق بواسطة ميثاق عدم الاعتداء الألماني السوفياتي . ولأدى هذا الحصار هتار الى السج . اقرأ حول المفز التاريخي لحوادث آب ١٩٣٩ ج . بوفيه وج جاكسون : الحقيقة حول ١٩٣٩ . المطبوعات الاجتماعية . باريس ١٩٥١ .

(١) ماركس وانجلز : بيان الحزب الشيوعي ، القسم الثاني ، ص ٤٦ .

القومية الموضوعي ، حيث يجري النضال العالمي الطبقي . وإذا لم يمر مثل هذا النضال على المستوى القومي ، أصبحت النزعة العالمية البروليتارية صفة فارغة ، ولم يعد للبورجوازيات المختلفة ما تحشاه من البروليتاريا في بلادها ، من عدوها المباشر .

هل تستطيع البروليتاريا ان تقوم بهذا النضال وتنتصر ؟ نجيبنا الوقائع على ذلك .

رأينا (في الدرس الثامن عشر) ان البورجوازية الرأسمالية تقيم رخاها على بؤس الجميع . وبهذا تتوفر الشروط لتقوم البروليتاريا الثورية بتنظيم تجمع واسع يغم مختلف طبقات الشعب الكادح : من فلاحين عمال ، وطبقات متوسطة ، وصناع ، وحائوتية ، الخ... ضدالبورجوازية الكبرى المستغنة ، وتقوم البروليتاريا بقيادة هذه الحركة الشعبية ، لأنها ، لما كانت طبقة ثورية ، المدافع الأكيد من بين جميع ضحايا الرأسمالية . والشروط الضروري لتجمع البروليتاريا الأمة حولها هو ان تحقق هي وحدتها الطبقة الخاصة . ندرك هكذا الأهمية التاريخية للنضال المستمر الذي يقوم به ، في فرنسا ، موديس توريز والشيوعيون ضد الاشتراكية الديمقراطية التي تهدف لمنع الوحدة بين العمال .

وليس اتمام هذه المهمة القومية موافقاً لمهمة البروليتارية الثورية فقط ، بل هو شرط أساسي لنجاح الثورة في وطنها . وجميع الذين يخلطون بين النزعة القومية البورجوازية والنزعة الوطنية البروليتارية - أمثال الفوضويين النقابيين - كما أن الذين يقولون للعمال : « قضية الأمة ليست قضيتكم ؛ بل قضيتكم هي الثورة » كل هؤلاء يعملون ضد مصلحة البروليتاريا الثورية ، وهم ينكرون واقع الأمة المادي ، لأنهم مثاليون ؛ بينما الطبقة العاملة لا يمكنها أن لا تعباً بالشروط الموضوعية

التي ينمو فيها نضالها الثوري ، لأنها تحفظ تعاليم لينين ، ومن بين هذه الشروط الحقيقة القومية ، وهي وحدة أرض ، ولغة ، واقتصاد ، وثقافة ؛ ولهذا لا تسلم قيادة الجماهير الشعبية لمن يحبل هذه الحقيقة التاريخية . كما أنهم ، لما كانوا ماديين سذجاً ، يجهلون قوة الشعور القومي على التنظيم والتعبئة ، وإلا فلماذا ظهرت الطبقة العاملة الفرنسية ، بالرغم مما نالها من الاضطهاد النازي ، في عام ١٩٤٤ ، أشد قوة وأكثر احتراماً من ذي قبل ؟ لأنها عرفت كيف تقود الأمة بأجمعها ضد الفاشية المتلوية وانصارها من البورجوازية الكبرى المناهضة للقومية .

إذا كانت النزعة العالمية تقوم على أساس من احترام سائر الشعوب ، فإننا لن نكون عالمين إذا لم نحترم شعبنا ونحبه^(١) .

وأينا في هذا الدرس (٣ ، ج) ان البورجوازية الرجعية لا يمكنها المحافظة على امتيازاتها الطبقية إلا باستعباد الأمة على يد الاستعمار الاميركي ، بينما تدافع البروليتاريا الثورية ، على العكس ، عن مصلحة الأمة في مجموعها (والطبقة الحائنة تطرد منها) حين تقبض سياسة فرنسية مستقلة . الطبقة العاملة هي الطبقة الوطنية لأنها طبقة صاعدة ، فهي مسؤولة عن حياة الأمة وعن مستقبلها .

دلل موريس توريز^(٢) ، في استنتاجه لخلاصة مؤتمر الحزب الشيوعي الفرنسي الثالث عشر (حزيران ١٩٥٤) ، كيف ان نضال الطبقة العاملة ، في كل وقت ، ضد البورجوازية ، بقيادة الشيوعيين ، يتفق والمصلحة القومية .. وكذلك شأن

(١) جدانوف : حول الادب ، والفلسفة ، والموسيقى ، ص ٧٨ . مطبوعات النقد الجديد ، باريس ١٩٥٠

(٢) كراسات الشيوعية ، حزيران - تموز ١٩٥٤ ، رقم ٦ - ٧ ، ص ١٢٤ - ١٢٥

النضال ضد معاهدة فرساي « التي تحتوي على جميع البذور لازدياد التزعة العسكرية وروح الثأر في المانيا » وكذلك كان شأن النضال ضد القمع والحرب الاستعمارية (في مراكش ، والمند الصينية) ، والنضال ضد الاستسلام في مونيخ والحرب السخيفة ، والاحتلال الهتلري وانصاره ، وتخريب النهضة الفرنسية . وكذلك الشأن ، اليوم ، حين تقود الطبقة العاملة المعارضة القومية لاعادة تسليح سفاكي دمنا شعبنا ، و « تقوم بحراسة السلم لمصلحة فرنسا الكبرى » . كيف يمكن للطبقة العاملة ، وقد ناداهما التاريخ لتحرير بلادنا من الاستغلال الرأسمالي ، ان تؤدي بنجاح هذه المهمة الثورية إذا لم تقم بدور القائد في النضال الحالي للحفاظ على وجود الأمة ضد البورجوازية المناهضة للقومية ؟

وبينا تتنكر البورجوازية الكبرى ، التي تجعل شبح الموت ينجم على مستقبل فرنسا ، لماضي شعبنا ، تنفى الطبقة العاملة ، على العكس ، بغفر بكل تقدم ، في تاريخ بلادنا ، نحو رفع مستوى الحياة والحرية .

حيننا لبلادنا ، هو حيننا لأجد تقاليدنا ، وعزمنا على اعادتها لهذه التقاليد كعاملة للمشل . حيننا لبلادنا ، هو حيننا لشعبنا الذي نريده حراً سعيداً ، وان تكون فرنسا للفرنسيين ، وليست لأولئك الذين خرجوا من الوحدة القومية بكبرياتهم وشرهم وخسة نفوسهم .

وطنية المساكن ، وطنية جان دارك الفلاحية الفرنسية التي ودّعها ملكها واحرقها الانجليز ، تحتاز كل تاريخنا كشهاب ساطع .

كتب لايروبير ، حول مصير الارقاء البائس ، يقول : « لا وطن مع الاستبداد » .

ولقد جهد ديمقراطيو الثورة الفرنسية الكبرى ، لنيل وطنهم ، وكان يلهب نفوس جماعات « صانعي القباقيب والحياطين » الذين ربحوا معركة فالمي ، وهم يرددون « نحميا الأمة » ، نفس من الوطنية الثائرة^(١) .

فصل الحزب الشيوعي ، الذي يقوده موديس توريز ، إذن ، هو أنه أعاد « ألوان فرنسا » إلى شعبنا ، الذي خائنه البورجوازية المنحلة^(٢) . فهو الداعي إلى اتحاد الأمة الفرنسية من أجل الحزب والحريات الديمقراطية ، والاستقلال والسلام . وهكذا يتفق مع نضالهم أكبر ماركسي في عصرنا ، وهوستالين ، الذي صرح في المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي (تشرين الاول ١٩٥٢) بقوله :

كانت تعتبر البورجوازية ، في الماضي ، رأس الأمة ، فكانت تدافع عن حقوق الأمة واستقلالها ، وتضع هذا الاستقلال وتلك الحقوق « فوق كل شيء » . وأما الآن فلم يبق شيء من « المبدأ القومي » تقايض ، الآن ، البورجوازية حقوق الأمة واستقلالها بالدولارات ، وتلقى جانباً بولاية الاستقلال القومي والسيادة القومية . لا شك انه عليكم ، يا ممثلي الاحزاب الشيوعية والديمقراطية ، ان ترفعوا الراية وتقدموها إذا أردتم ان تكونوا وطنيين ، وان تصبحوا القوة التي تقود الأمة ؛ إذ ليس من شخص آخر يستطيع رفع هذه الراية^(٣) .

انعام هذه المهمة على يد الطبقة العاملة مرحلة ضرورية على طريق الاشتراكية التي سوف تصفي الاستغلال البورجوازي .

(١) موديس توريز : ابن الشعب ، ص ١٨ .

(٢) تساعد قراءة قصة أراجون : « الشيوعيون » من يريد ان يفهم دور الشيوعيين القومي ، في تلم مفزاه التاريخي . وهذا ما يتقني به اراجون في بعض قصائده الجبلية ، اقرأ مثلاً « من الشاعر الى حزبه » في « ديانا الفرنسية » (الناشر : صبيبه) و « الميون والداكرة » (الناشر : جالبار) (٣) ستالين : آخر مؤلفات ، ص ١٨٨ .

الأمم (٢١)

١ - مسألة الاستعمار. حق الأمم في أن تكون سيادة نفسها.

٢ - الأمم الاشتراكية .

أ) المسألة القومية والثورة الاشتراكية .

ب) ميزات الأمم الاشتراكية .

٣ - مستقبل الأمم .

ملاحظة حول الألزاس والموزيل .

رأينا (في الدرس السابق ، ٣ ج) أن الاضطهاد البورجوازي الطبقي ، في ظروف الاستعمار ، يرتدي شكل الاضطهاد القومي .

بعد ان كانت الرأسمالية محررة للأمم ، في النضال ضد الاقطاعية ، أصبحت اكبر مضطهد للأمم^(١) .

ولهذا يتخذ النضال ضد الاستعمار شكل نضال من أجل الاستقلال القومي .

(١) لينين : ذكره جورج كونيو : حقيقة الأمة ، ص ٤٦

وتتضم هذه الحركة الاستقلالية ، في بلد معين ، جميع الطبقات الاجتماعية المستغربة أو المهدة بالاستعمار الأجنبي. وهكذا نفهم ، مثلاً ، ان فئات مهمة من البورجوازية شاركت ، في الصين ، إلى جنب البروليتاريا والفلاحين ، في النضال من أجل التحرير القومي ، كما أن قسماً من البورجوازية (التي يمثلها تشان كاي شك) كانت قد ربطت مصالحها بمصالح الاستعمار الاجنبي المضطهد المعتدي ، غير أن هذا الاستعمار قد اعتدى على مصالح عناصر أخرى من البورجوازية (كالصناعيين ، مثلاً) فاشترك هؤلاء في حركة الاستقلال .

وكذلك نجد أن الاستعمار الأميركي إذا كان يحيد ، في الوقت الحاضر ، في فرنسا ، تأمر البورجوازية الكبرى الرجعية ، والمحتكرين ، وتجار المدافع إلى جانبه ، فإنه يسيء لمصالح فئات أخرى من البورجوازية : وهكذا يشل مشروع مارشال ، الذي فرضه الاستعمار الأميركي على الاقتصاد الفرنسي ، ازدهار فروع بأكملها من الصناعة القومية ، ويحررها من أسواقها في بلاد الشرق. ومن هنا ازداد الاستياء عند كثير من الصناعيين .

وتشير سياسة إعادة تسليح المانيا ، الذي يؤدي إلى التقليل من شأن فرنسا ، وسيء إلى سيادتها القومية ، معارضة مختلف الطبقات ، في البورجوازية نفسها ، تلك الطبقات التي تخشى السيطرة الألمانية . وتشير الفكرة ، التي تبناها المؤتمر الثالث عشر للحزب الشيوعي الفرنسي (حزيران ١٩٥٤^(١)) ، إلى أن مصالح فئات اجتماعية عديدة بعيدة جداً عن الطبقة العاملة ومعادية مبدئياً للحزب الشيوعي

(١) كراعات الشيوعية ، حزيران - تموز ١٩٥٤ عدد ٦ - ٧ ص ٩٢٢ - ٩٢٣ ،

قد أضيفت نتيجة للسياسة الاطلنطية . ولهذا تقف بعض الدوائر السياسية
للبرجوازية ، مها كان تعلقها بالرأسمالية ، إلى جانب الشيوعيين ضد استبعاد
فرنسا .

وهكذا قامت جبهة قومية متحدة ضد الاستعمار الاميركي والبرجوازية
الكبرى الرجعية التي تسانده ، للدفاع عن استقلال فرنسا ؛ وهي تضم - عدا
الفلاحين الكادحين والبرجوازية الصغرى والطبقات المتوسطة - فئات
البرجوازية التي تخشى نتائج السياسة التي يفرضها الاستعمار الاميركي على فرنسا .
وهذا لا يقضي قط على النضال الطبقي في داخل البلاد بين البروليتاريا والبرجوازية ؛
ولهذا سالت البرجوازية الرجعية البلاد للاستعمار الاجنبي خدمة لمصلحتها الطبقة
لا تستطيع ، إذن ، البروليتاريا الفرنسية ان تفصل نضالها من أجل الاستقلال
القومي عن نضالها الطبقي .

وسنرى ، اعتماداً على الطابع المناهض للقومية الذي اتخذته الرأسمالة الاستعمارية ،
كيف يطرح الماركسيون اخطر مسائل عصرنا وكيف يحلونها الا وهي مسألة
الاستعمار .

١ - مسألة الاستعمار : بحق الأمم في أن تكون سيّدة نفسها

انهت أقوى الدول ، في عصر الاستعمار ، تقسيم الكرة الارضية في أفريقيا
وآسيا فيما بينها . واستغلت الشركات الاحتكارية المستعمرات والمحميات التي
نشأت عن هذا التقسيم . ويشمل الاضطهاد الاستعماري جميع نواحي الأمة : فيحتل

الأرض ، ويفرض اللغة الأجنبية على حساب اللغة القومية ؛ وينهب الثروات الاقتصادية ؛ ويستعبد الثقافة القومية . ولا شك أن النزعة الإمبراطورية الاستعمارية تقوم بقمع لا يعرف الشفقة كي تحفظ « حقوقها » المزعومة كقوة محنة ؛ ويأبى على الشعوب المستعمرة حقها في أن تنشيء لنفسها دولاً خاصة بها . نعرف قول ماركس المشهور : « لا يمكن للشعب الذي يضطهد شعباً آخرى أن يكون حراً »^(١).

واستقلال شعب من الشعوب هو من صنع البورجوازية الكبرى الرجعية والاحتكارات التي تستولي على الشعوب الضعيفة ، بحثاً وراء الربح الأقصى ، فتسلبها خيراتنا . ومن الواضح أن هذا العمل مناقض لمصالح البروليتاريين في البلد المستعمر . فلماذا ؟

أولاً : لأن عدوهم الطبقي ، أي البورجوازية الرجعية ، هو الذي يقوى باستعمار شعوباً أخرى . حتى ولو أن استقلال الشعوب المستعمرة (كما حدث في إنجلترا) يتيح للبورجوازية الاستعمارية أن تتكرم ببعض الخيرات على البروليتاريا في بلدها من تلك الأرباح التي تنتزعها من العمال في المستعمرات . وتستعيض عن ذلك بأزدياد قوتها التي تستمدّها من الاستقلال الاستعماري . ولا تستخدم البورجوازية هذه القوة ضد العمال في المستعمرات فقط بل ضد البروليتاريا في الدولة المستغلة . لأن الاضطهاد الطبقي في الخارج يقوي الاضطهاد الطبقي في الداخل .

ثم أن البورجوازية تدفع بالبروليتاريا في بلدها ضد العمال الأجانب لضمان نجاح مشاريعها الاستعمارية . وهي تبتز أرباحها الهائلة من دم هؤلاء وأولئك . فتعمل ، لبلوغ هذه الغاية ، على إقناع العمال في البلد المستعمر أن الاضطهاد

(١) راجع بهذا الصدد لينين : « الثورة الاشتراكية وحق الأمم في أن تكون سيدة نفسها » في « ماركس ، إنجلز ، والماركسية ، مطبوعات باللغات الأجنبية ، موسكو ، ١٩٤٧ ، ص ٢٨٣ . « كان ماركس يحل في المقام الأول ، دون أن ينسى مصالح نضال طبقة البروليتاريا في البلاد المتقدمة ، المبدأ الأساسي للنزعة العالمية والاشتراكية وهو : « لا يمكن للشعب الذي يضطهد شعباً آخرى أن يكون حراً »

الاستعماري يتفق ومصلحهم . ثم تعلم اطفال الشعب ، في الكتب البورجوازية ، ان حرب النهب « دفاع عن المدنية » ؛ فتحتفي مصالح الشركات الاحتكارية (التي تستغل الشعب الفرنسي ، كما تستغل الشعوب المستعمرة) وراء « المصالح الفرنسية » . وكلما نُدع العمال الفرنسيون والانجليز هذه الأكاذيب ، جلبوا على أنفسهم أكبر الضرر ، وخدموا اغراض الطبقة التي تضطهدهم ، وأضعفوا نضالهم كطبقة مستغلة ، فأضعفوا بذلك وحدة البروليتاريا العالمية .

تعودنا هذه الملاحظة الاخيرة إلى حل مسألة الاستعمار . ذلك لأن النزعة العالمية البروليتارية تضع بيدنا مفتاح حل هذه المسألة .

فصالح عمال البلد المستعمر ومصالح عمال البلد المستعمر متضامنة ضد البورجوازية الاستعمارية عدوم المشترك .

فما رأي النزعة العالمية البروليتارية بهذا الصدد ؟

أ) يؤكد عمال البلد المضطهد حق الأمم في أن تكون سيدها نفسها . يعني هذا ، عملياً ، انهم يعترفون للأمم المضطهدة بحقها في أن تنفصل عن الدولة المستعمرة لتنشئ دولتها الخاصة ، المستقلة . فالحديث عن « حرية تقرير المصير » ورفض الحق في الانفصال هراء كاذب ، لأن ذلك يعني ان تمتنع بيد ما تعطيه باليد الاخرى^(١) .

ولهذا وجب على عمال البلد المستعمر ان يطالبوا بحق الانفصال للبلاد المستعمرة . والتخلي عن ذلك (بحجة ان الشعوب المستعمرة ليست « فاضحة للاستقلال »)

(١) أليس هذا ما يفعله دينول ويقول في الجزائر ؟ (المغرب)

موقف رجعي ، لا تقيد منه إلا البورجوازية المستعمرة التي تريد بذلك من سيطرتها .

مثال ذلك : الهند الصينية . الموقف الوحيد العادل من النضال القومي ضد الاستعمار الفرنسي بقيادة شعوب الفيتنام واللاوس والكمبودج هو التأكيد على حق هذه الشعوب المطلق في الانفصال والاستقلال كدولة ؛ ومساندة هذه الشعوب الفعلية في فرنسا نفسها .

ب) كما يؤكد ، من ناحية ثانية ، عمال البلد المضطهد وحدتهم العالمية الطبقية مع البروليتاريا في البلد المستعمر . ولهذا تحارب الأحزاب الثورية ، في البلاد المستعمرة ، في نفس الوقت الذي تحارب فيه النزعة الامبراطورية المضطهدة ، نزعة البورجوازية القومية في بلادهم . يقول القوميون البورجوازيون ، في البلد المستعمر لعمال هذا البلد : « كل الفرنسيين أعداؤكم » ، فيجيب العمال الذين نشأوا على روح النزعة العالمية البروليتارية : « كلا ! شركات الاحتكار الاستعمارية الفرنسية هي عدوة لنا ، بينما العمال الفرنسيون أصدقاء لنا » .

وهكذا يناضل بروليتاريو البلد المستعمر ، باسم النزعة العالمية ، النزعة القومية البورجوازية الاستعمارية ؛ كما يحارب بروليتاريو البلد المستعمر ، باسم النزعة العالمية ، النزعة القومية البورجوازية في بلادهم^(١) .

(١) ومع ذلك لا يرفض بروليتاريو البلد المستعمر ، في نضالهم من أجل الاستقلال القومي ، التحالف مع البورجوازية القومية ، غير أنهم لا يربطون عملهم بمصالح البورجوازية القومية لأن هذه البورجوازية ، وإن كانت تمارس البورجوازية الأجنبية الاستعمارية ، تمثل عدوة لطبقة العمال ، « طالما أن بورجوازية الأمة المضطهدة تناضل ضد الأمة التي تضطهد ، طالما نحن دائما معها ، لأننا أكثر أعداء الانطهاد جرأة ، وطالما أن بورجوازية الأمة المضطهدة تنفق إلى جانب نزعها

يجد بنا ، هنا ، ان نذكر أقوال لينين القبة :

يجب أن يقوم مركز الثقل في تربية العمال العالمية في البلاد المضطّدة، على الدعاية والدفاع عن حرية البلاد المضطّدة في الانفصال : إذ بدون ذلك لا توجد النّزعة العالمية . لنا الحق ان نصف بالاستعماري الحقير كل " اشتراكي ديمقراطي ، في أمة تضطّده ، لا يقوم بهذه الدعاية . وهذا مطلب مطلق ، وان كان مثل هذا الانفصال لا يمكن « تحقيقه » ، قبل حلول الاشتراكية ، إلا " بنسبة واحد بالألف .

بينما يجب ، على الاشتراكي الديمقراطي ، في أمة صغيرة ، على العكس ، أن يجعل محور الثقل في نشاطه حول القسم الأول من شعارنا « اتحاد الأمم اتحاداً حراً » ، فهو يستطيع أن يقف إلى جانب استقلال أمته السيامي وأنضمامها إلى دولة مجاورة ، دون أن ينتكر لواجباته كصاحب نّزعة عالمية. ولكنه يجب عليه ، في كل حالات ، أن يناضل ضد النّزعة القومية الضيقة التي تميل للاتلاق والعزلة لينظر إلى هذه الحركة العالمية في مجموعها وشملها فيربط بذلك المصلحة الخاصة بالمصلحة العامة .

ويجد الذين لم يتعمقوا هذه المسألة أنه من « التناقض » ان يلح الاشتراكيون

القومية البورجوازية طالما نحن ضدّها . نناضل ضد امتيازات الامّة التي تضطّده وجبروتها ، ولن نسبح ببيل أي امتياز على ظهر الامّة المضطّدة ... يوجد ، في كل نّزعة قومية بورجوازية في أمة مضطّدة ، محتوى ديمقراطي عام ضد الاضطهاد ، ونحن نؤيد هذا المحتوى بدون تحفظ ، وان كنا نضع حائلاً للنّزعة إلى التنصب القومي :

لينين : حول حق الامم في ان تكون سيّدة نفسها ، ص ٥٣ - ٥٤ . المطبوعات الاحتماعية ،

باريس ١٩٥٢

الديمقراطيون^(١) في الأمم المضطّدة على « حرية الانفصال » ، كما يلع الاشتراكيون الديمقراطيون ، في الأمم المضطّدة على « حرية الاتحاد » . غير أنه يكفينا قليل من التفكير لنرى أنه ، في هذا الوضع ، لا يوجد ، ولا يمكن أن يوجد ، طريق آخر نحو صلب الأمم بالصيغة العالمية ودعجها بعضها ببعض^(٢) .

وأكد موقف لينين هذا ، موريس توريز ، في فرنسا ، عدة مرات :

كان علينا ، نحن البروليتاريين ، في بلد استعماري يضطد عشرات الملايين من العبيد في المستعمرات ، ان نرفع الصوت عالياً مطالبين بحق هذه الشعوب بتقرير مصيرها ، ومن ذلك حق الانفصال عن فرنسا . وكان علينا أن نحارب في بلادنا كل نزعة استعمارية ، تاركين لرفاقنا الشيوعيين في البلد المستعمرة أمر مقاومة كل نزعة قومية ضيقة في بلادهم ، وأن يعلنوا الفائدة التي يجنيها شعبهم إذا تضامن في النضال مع البروليتاريا الفرنسية ضد نفس المضطّدين الاستعماريين . قال لينين : « الحق في الطلاق لا يعني وجوب الطلاق^(٣) » .

يبدو هنا جانب مهم من الحق في تقرير المصير . يفسره البعض بصورة ساذجة فيقولون بأن « الحق » يماثل « الواجب » فإذا كان البروليتاريون في البلد المستعمر يعلنون ، بالاتفاق مع البروليتاريين في البلد المستعمر ، حقهم في الانفصال فلا يعني ذلك أنهم ينادون بالانفصال في كل وقت ، وأنهم يجدونه مفيداً في كل حين :

(١) تعنى هنا كلمة « الاشتراكي الديمقراطي » معناها القديم وهو الاشتراكي الماركسي - وليس المعنى الذي يعنيه قادة العالمية الثانية بملصكهم وهو : الانتهازي .

(٢) لينين : مؤلفات (باللغة الروسية) ج ١٩ ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ ذكره ستالين في « الماركسية والسألة القومية والاستعمارية » ، ص ٢٢٥

(٣) م . توريز : كراسات الشيوعية كانون الثاني ١٩٥٠ ، ص ٢٩ .

ولنضرب لذلك مثلاً : كانت روسيا القيصرية تقضد عدة شعوب في آسيا (آهالي جورجيا ، الأرمن) وكانت تأبى عليهم حقهم في انشاء دول مستقلة . وكان الماركسيون الروس والجورجيون والأرمن ينادون بالحق في الانفصال ضد النزعة القيصريّة . ثم وقعت ثورة تشرين الأول ١٩١٧ . فماذا حدث ؟

لقد حرر قيام الاشتراكية الجورجيين والأرمن من نير الاستعمار . ومع ذلك لم ينفصلوا عن الأمة الروسية ؛ بل تكونت دولة متعددة الأمم ، على أساس المساواة بين جميع الأمم التي تكوّن هذه الدولة .

فلماذا لم يمارس الجورجيون والأرمن حقهم في الانفصال ؟ لماذا ، بعد أن قالوا الحق في الطلاق ، لم يمارسوا هذا الحق ؟ لسبب بسيط وهو أنهم لو فعلوا ذلك لاصبحوا فريسة سهلة للبلاد الرأسمالية ، عدوة الاشتراكية والاتحاد السوفياتي . فقد كانت مصلحة عمال المستعمرات القيصريّة القديمة الطبقيّة في عدم الانفصال عن الشعب الروسي ، وأن تتحد معه ومع الأمم السوفياتيّة ، داخل الدولة الاشتراكية المتعددة القوميات على أساس طبقي .

نرى ، إذن ، أن المصلحة الطبقيّة هي التي تقرر في النهاية فيما يتعلق بالانفصال أو الاتحاد^(١) .

(١) يمكن أن يحدث أن لا يكون الانفصال مرغوباً فيه . وقد رأينا مثلاً على ذلك . وهاك مثلاً آخر في وضع يختلف عن الوضع السابق . « كان ماركس في من ١٨٤٠ - ١٨٥٠ مع حركة التنك السلاف الجنوبيين القومية . فلماذا ؟ لان التنك والسلاف الجنوبيين كانوا ، عندئذ ، « شعوباً رجعية » وكانوا « مراكز روسية أممية » ، في أوروبا ؛ فكانوا بذلك مراكز أممية للاستبداد ، بينما كان البولونيون والمغاربيون « شعوباً ثورية » تناضل الاستبداد . وكان تأييد حركة التنك والسلاف الجنوبيين القومية يعني ، وتنتد ، تأييد القيصريّة بصورة غير مباشرة ، وهي

غير أن الاختيار يرجع للشعب المعني بالامر (الشعب المستعمر أو الاقلية القومية) .

وهكذا يجب على الشعب الفرنسي أن يحترم طموح الشعوب المستعمرة إلى الاستقلال ، ولا سيما شعب الفيتنام . إذ أن لهذا الشعب الحق المطلق في أن ينفصل عن فرنسا ، وهذا ما تأباه عليه البورجوازية الاستعمارية ، لأنها تريد الاستمرار في استغلال الهند الصينية ، بينما يساند العمال الفرنسيون حق الفيتنام ، في نضالهم ضد الحرب الجارية ، في إرجاع الجيش إلى فرنسا . هذه الحرب حرب ظالمة لأنها تهدف لاستمرار اضطهاد شعب . بينما الحرب التي تشنها الامة الفيتنامية ضد

إند أعداء الحركة الثورية في أوروبا » ، (ستالين : الماركسية والمساءلة القومية والاستعمارية ، ص ١١٩ - ٢٢٠) يظهر هذا المثل أنه لا يجب قط النظر الى المسألة القومية في ذاتها ، بل في علاقتها بعمليات النزعة العالمية البروليتارية الاساسية . وقد استغل هتلر ، في نفس الوقت ، قبل الحرب العالمية الثانية ، نضال السوديت (وم أقلية المانية في تشيكو سلوفاكيا) ضد الدولة التشيكو سلوفاكية وضد السلام العالمي ، وضد مصالح البروليتاريا العالمية : « ليست مختلف مطالب الديمقراطية ، ومنها حق الامة في ان تكون سيدها نفسها ، مطلقة ، بل هي جزء من مجموع الحركة الديمقراطية (وهي اليوم اشتراكية) العالمية . ويمكن ، في بعض الحالات ، ان يناقش الجزء الكلي » ، فيجب عندئذ رفض الجزء » (لينين : مؤلفات (باللغة الروسية) ، ج ١٩ ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ ، ذكره ستالين ص ٢٢٠) . وهذا الرضا لا يعني نضاله بل وضعه في المحل الثاني لفترة من الزمن . نجد هنا مثالا على الميزة الاولى للجدلية . وهي ان كل شيء مرتبط بالآخر .

لهم بذلك انه يمكن للبروليتاريا العالمية أن تساند حركة قومية مهادية للاحتصار في بلد معين ، وان كانت هذه الحركة لا تنقدها عناصر بروليتارية . فقد ساند البروليتاريون ، قبل الحرب العالمية الثانية ، في جميع البلاد ، نضال الحبشة ضد جيش موسوليني وان كان الشعب الحبشي يهوه اقطاعيون . لان مثل ذلك النضال كان يحضف العنصرية العالمية ، العدو الرئيس للبروليتاريا ، وكذلك شأن الحركة القومية التي تنقدها البورجوازية البنيانية .

الاستعمار المضطهد حرب عادلة ككل حرب تحرير قومي .

حتى إذا ما تحررت الامة الفيتنامية من نير الاستعمار ، كان من حقها أن تقرر بشأن علاقاتها مع فرنسا .

ويعتبر العمال في فرنسا وعمال الفيتنام ، منذ الآن ، أنه يستحسن ، لمصلحة البلدين ، قيام سياسة تبادل اقتصادي وثقافي . غير أن هذه السياسة تتطلب الفصل بين الامتين والمساواة المطلقة بين الدولتين .

نرى إذن ان مبدأ النزعة العالمية البروليتارية يسمح لنا نظرياً وعملياً ، المسألة القومية والاستعمارية ، ونجد انفسنا ، إذن ، مرة أخرى ، أمام النضال الطبقي .

تتطلب مصالح الحركة البروليتارية في البلاد المتقدمة ، وحركة التحرير القومي في المستعمرات ، ان يتحد هذان الجانبان للحركة الثورية في جبهة مشتركة للنضال ضد العدو المشترك وهو الاستعمار^(١) .

٢ - الأمم الاشتراكية

١ - المسألة القومية والثورة الاشتراكية

ساعد على نجاح الثورة الاشتراكية في تشرين الأول سنة ١٩١٧ تأليف هذه الجبهة المشتركة . ولما امكن انتصار البروليتاريا الروسية على البورجوازية

(١) تقرر إيفاف اطلاق النار في المهند الصينية بعد كتابة هذه السطور . فكان ذلك انتصاراً لعامل المشترك بين الصينيين الفيتنامي والفرنسي وانتصاراً لنزعة العالمية البروليتارية .

الاستعمارية لولا اتحاد الشعوب التي تستغلها هذه البورجوازية نفسها في إمبراطورية القياصرة الواسعة . وهكذا تكون ثورة تشرين الاول قد ضربت الاستعمار في قلبه وفي مؤخرته .

حطمت ثورة تشرين الأول ، بقلبيها لكبار الملاكين والرأسماليين ، قيود الاضطهاد القومي والاستعماري التي نجت منها جميع الشعوب المضطهدة ، بدون استثناء ، في دولة شاسعة ، إذ لا يمكن للبروليتاريا أن تتحرر بدون أن تحرر الشعوب المضطهدة . وبقدر ثورة تشرين الاول بأنها لم تقم بهذه الثورات القومية والاستعمارية ، في الاتحاد السوفياتي ، تحت لواء الحقد القومي والمنازعات بين الأمم ، بل تحت لواء ثقة متبادلة وتقارب أخوي بين العمال والفلاحين في القوميات التي تقم في الاتحاد السوفياتي ، ولم تقم بها بأمر النزعة القومية بل بأمر النزعة العالمية^(١) .

ولم يكن قادة العالمية الثانية ، بالرغم من خطيهم عن المساواة بين الأمم ، ليهتفون بالشعوب المستعمرة : بل كانوا يأبون عليها أي امكانية للعمل الثوري . وكل ما كانوا يعترفون لها به هو حقها « في الاستقلال الثقافي » ، وان يكون لها مؤسساتها الثقافية ، وذلك داخل الدولة المستعمرة .

بينما يعني الماركسيون اللينينيون مجرية تقرير المصير الحق في الانفصال ، وفي إنشاء دولة مستقلة . ولما كان نضال الأمم المضطهدة من أجل استقلالها موجهاً ضد البورجوازية الاستعمارية ، العدو المباشر للبروليتاريا « الأم » (Métropolitain) ، كان لهذا النضال طابع ثوري .

(١) ستالين : « طابع ثورة تشرين الاول العالمي » في « مسائل اللينية » ، ج ١ ، ص ١٨٨

المسألة القومية جزء من مسألة الثورة البروليتارية العامة ، وهي جزء من مسألة
«كتاتورية البروليتاريا»^(١) .

تضخم حركة التحرير القومي المائل في البلاد المضطهدة كإفريقيا وآسيا منذ
عام ١٩١٧ ، وانتصار الشعب الصيني على الاستعمار وسيره نحو الاشتراكية ، كل
تلك وقائع لها أهمية كبرى بالنسبة للنضال الثوري العالمي .

لقد اقبل زمن ثورات التحرير في المستعمرات وفي البلاد التابعة ، زمن يقظة
البروليتاريا في هذه البلاد ، زمن سيطرتها في الثورة^(٢) .

ب - مميزات الاسم الاشتراكية

ابتدأت الثورة الاشتراكية ، بتحريرها للشعوب المضطهدة ، مرحلة جديدة في
تطور الامم . وظهر نموذج جديد من الأمم ، بفضل انتصار البروليتاريا ، الا وهي
الامة الاشتراكية .

وأينا في الدرس السابق انه يجب أن نفهم من « الأمم البورجوازية » الامم
التي نشأت بقيادة البورجوازية في نضالها ضد الاقطاعية . وكان انتصار البورجوازية
انتصاراً للعلاقات الانتاج الرأسمالية . ومن هنا نشأت ميزات الأمة
البورجوازية .

تقوم الأمة البورجوازية بالضرورة على عدم المساواة بين أفرادها ، لان

(١) صالين : « حول مبادئ الهينية » نفس المرجع ، ص ٥٥

(٢) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ١٨٩

الطبقة المسيطرة تستغل البروليتاريا :

الأمة البورجوازية عدوة لساير الأمم البورجوازية لان بورجوازيات مختلف البلدان الرأسمالية تتنافس فيما بينها سعياً وراء الربح . ومن هنا كانت النزعة القومية .

وأخيراً ، 'تخضع الأمة البورجوازية' ، في مرحلة الاستعمار ، لما الشعوب المتأخرة في نموها الاقتصادي . وهكذا يتم الاستغلال في الداخل بواسطة الاستغلال في الخارج . نذكر مرة أخرى بقول لينين : « أصبحت الرأسمالية الاستعمارية أكبر مضطهدة للأمم ».

وتختلف عن ذلك ميزات الأمة الاشتراكية :

يقول ماركس وإنجلز في بيان الحزب الشيوعي : « القوا استغلال الانسان للانسان تلغوا استغلال أمة لأمة أخرى . فتى زال تعارض الطبقات داخل الأمة ، زالت العداوة بين الأمم ^(١) .

فقد أوجدت الثورة الاشتراكية ، بقلبها للبورجوازية المستغلة ، وإزالتها للأضطهاد الطبقي ، علاقات جديدة داخل الأمة الواحدة وبين الامم المتعددة .

وقد برهن قيام الاتحاد السوفياتي وازدهاره ، على صحة ذلك .

فروال الطبقات المستغلة ، السبب الرئيسي للاضطهاد بين الاعم ، وزوال الاستغلال الذي يغذي الريبة المتبادلة ويؤجج الاهواء القومية ؛ ووجود الطبقة العاملة ، في الحكم ، وهي عدوة كل استعباد ، تدافع باخلاص عن أفكار النزعة

(١) ماركس وإنجلز : بيان الحزب الشيوعي ص ٤٦

العالمية ، وتحقيق التعاون المتبادل ، بصورة عملية ، بين الشعوب في جميع ميادين الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، وأخيراً ازدهار الثقافة القومية لشعوب الاتحاد السوفياتي ، وهي ثقافة قومية في الصورة ، اشتراكية في المحتوى : كل هذه العوامل وما يشبهها غيرت طابع شعوب الاتحاد السوفياتي بصورة جذرية وعملت على زوال شعور الريبة بينها ، ونمت عاطفة صداقة متبادلة ، فنشأ ، بذلك ، تعاون أخوي حق بين الشعوب داخل الدولة الاتحادية الواحدة^(١) .

تلك هي نتيجة انتصار الطبقة العاملة . كانت البورجوازية ، بتعطيلها للاضطهاد الاقطاعي ، قد صنعت أغللاً جديدة . وأما الطبقة العاملة ، فإنها بتحررها قد حررت جميع الناس . فزال النير الطبقي كما زال النير القومي .

كانت أمبراطورية القيصرية « سجناً للشعوب » حتى إذا ما تحررت القوميات المختلفة من الاضطهاد نالت حقها في تقرير مصيرها . وقد رأينا ان ممارسة هذا الحق لها وجهان : إما الانفصال وإما الاتحاد الحر^(٢) .

ولقد اختارت القوميات المذكورة ، آنفاً ، الاتحاد مع الشعب الروسي .

وهكذا نشأت دولة اشتراكية متعددة القوميات . وتحتفظ القوميات ، التي تتكون منها هذه الدولة ، بحقها في تقرير مصيرها : فهي تستطيع ، إذن ، إذا شأنت أن تنفصل عن الاتحاد .

ما هو طابع العلاقات الاساسي بين الامم الاشتراكية ، التي يقارب عددها الستين ؟ المساواة في الحقوق . وقد قال لينين : « لا امتياز لأمة على أخرى ... »

(١) مسائل اليقظة ، ج ٢ ، ص ٢١٤ .

(٢) هذان الوجهان المتعارضان يكونان حق تقرير المصير . وهذا مثل لوحدة الاتحاد

(راجع الدرس الخامس) .

ولا أقل اضطهاد أو ظلم للأقليات القومية . ليس هناك ، إذن ، أمة مهيمنة في الاتحاد السوفياتي ، بل جمهوريات متعددة بجمهورية روسيا ، جمهورية أوكرانيا ، جمهورية كازاني ، جمهورية استونيا ، الخ ...) فإذا ما وجد ، داخل الجمهورية المتحدة ، أقليات قومية ، كوَّنت جمهوريات مستقلة (مثال : يوجد داخل الجمهورية المتحدة الروسية جمهورية تارتاري وجمهورية بشكير ، وجمهورية داغستان . الخ) كما يوجد شعوب صغيرة ، ومناطق مستقلة ، وأقاليم قومية .

تقوم الدولة الروسية المتعددة القوميات بالدفاع عن المصالح المشتركة بين جميع القوميات التي تكوَّنتها . كما أنها تشرف على تخطيط الاقتصاد الاشتراكي وإدارة السياسة الخارجية ، والجيش ، والتنشئة الثقافية .

غير أنها تخضع من أسفل إلى أعلى ، بواسطة السوفيات ، لأشراف جميع المواطنين المتساوين في الحقوق ، مهما كانت قوميتهم أو جنسهم . فيستطيع ، مثلا ، جميع المواطنين ، تولي جميع وظائف الدولة السوفياتية من أصغر وظيفة إلى أعلى وظيفة ، ويتولى الحكومة أقاليم من قوميات وأجناس مختلفة .

أما المصالح الخاصة بكل قومية ، فإنها من اختصاص الجمهورية المتحدة أو المستقلة التي تتمتع ، ضمن الدستور السوفياتي ، بدستورها الخاص ، وقوانينها الخاصة . ويعكس هذا الدستور ، كما تعكس هذه القوانين ، الخواص القومية (الاقتصادية ، والثقافية ، والتاريخية) لكل شعب .

وهكذا يتحقق ازدهار القوميات في كل الميادين ، على عكس ما يجري في النظام الاستعماري القيصري .

ولنضرب على ذلك مثلا : انشأ الشعب الاوزبكي ، الذي استغل قبل الثورة ، جمهورية اشتراكية لها دستورها ، وسوفيئاتها ، ومجلس وزراؤها ، داخل

اتحاد الجمهوريات السوفياتية ، وازدهر اقتصادها القومي (الصناعة ، الزراعة ، تربية الماشية) ازدهاراً هائلاً ، بفضل مشاريع الخمس سنوات . فلقد تضاعفت الصناعة الثقيلة خمسة عشر مرة منذ عام ١٩١٣ . فهناك مركز حراوي ومائي ، وتنتج الزراعة الآلية بكثرة الاقطان المتنوعة . وتقوم مراكز تربية أغنام استراكان الرئيسية في أوزبكي . أما تحسين مستوى المعيشة والتقدم الثقافي فيها يناقضان مناقضة شديدة البؤس والضغط الثقافي الذين تفرضها البورجوازية الرأسمالية على مستعمراتها ، فبينما يوجد في منطقة « القبيلي » في الجزائر طبيب لكل ٣٠ ألف شخص (حسب الاحصاء الرسمي) يوجد في أوزبكي طبيب لكل ٨٩٥ شخصاً وكذلك أقل من ١٠٪ من الاطفال المسلمين ، في مراكز ، يدخلون المدارس . بينما ، زالت الامية ، في أوزبكي ، بعد أن كانت عامة في عهد القيصرية (٩٨ ٪ اميون) وكذلك يتردد ٨٪ على معهد ثانوي عالٍ (في فرنسا ٣٩ / ١٠٠٠ فقط) .

ولغة التعليم هي اللغة الام ، التي هي رسمية . وهذا شأن جميع القوميات التي تكون الاتحاد السوفياتي .

كما ان جرائدها ومطبوعاتها باللغة القومية . وبذلك سهلت نهضة التقاليد الادبية والفنية لكل شعب^(١) .

فقد انشيء ، عام ١٩٤٣ ، والحرب دائرة الرحي ضد هتلر ، مجمع العلوم الاوزبكي ؛ فلم يمض عليه عشر سنوات حتى أصبح يضم ٢٥ مؤسسة علمية ؛ يعمل

(١) أما اللغة الروسية فقد جعلت منها الظروف التاريخية لغة مشتركة لجميع شعوب الاتحاد السوفياتي ، ولغة مساعدة في الميدان العلمي . فهي تستعمل اذن بهاتين الصفتين .

خبيا . و ٥٥٥ باحث . وهكذا لكل جمهورية سوفياتية ملاكاتها الخاصة (من علماء ، ومهندسين ، ومهندسين زراعيين ، وأطباء ، ومربين ، الخ) .

ونستطيع ضرب الامثلة الكثيرة على ذلك . غير أن أصدق الامثلة هي تلك نجدها عند شعوب بعض المناطق المستقلة التي أودت بها النزعة الامبراطورية إلى موت مؤكد ، فإذا بالاشتراكية تتقدها من هذا المصير .

يسكن في سيبريا ، على ضفاف نهر (Haut - jénissei) ورافده (Abakam) شعب الماكاس (hakasse) وقد قام الموقول ، منذ أكثر من عشرة قرون ، بفرض هذا الشعب الذي كان من أقوى شعوب آسيا وأكثرها ثقافة ، فكانت مصيره الخراب . حتى انه فقد احرفه الكتابية ، وزادت النزعة الامبراطورية في خطورة الحال فأخذ شعب الماكاس بالافول رويداً رويداً . كان إذن في وضع يشبه وضع المنود على يد المستعمرين الاميركان . بيد أن الثورة الاشتراكية أعادت الحياة لهذا الشعب . فأصبح يعد أكثر من ٥٠ ألف مواطن ، يقيمون في منطقة مستقلة ، ويتمتع هذا الشعب باقتصاد مزدهر (فحم حجري ، ذهب ، معدن الحديد ، غابات ، اقية) وفيه ٣٥٠ مدرسة ، و ٣ مدارس تقنية ، ومعهد تقني . كما له صحفته وإذبه ومسرحه .

وكان شعب « الننت » (Nénets) ، في شمالي سيبريا ، يخضع لاضطهاد حوطني القيصير الوحشي ، والتجار الروس الذين كانوا يستولون على ثرواته (من فراء ، واسماك) وكبار مربّي الوعول (rennes) . كان هذا الشعب في طريق الانحلال فبلغ عدده ١٦ ألف نسمة عام ١٨٩٩ ؛ و ٢٠٠٠ نسمة عام ١٩١٣ .

وقد غيرت الثورة الاشتراكية هذه الحال . فكوّن هذا الشعب مقاطعة قومية وعادت اليه القوة والحياة ، فبلغ عدده عام ١٩٣٩ ، ١٢ ألف نسمة . وازدهرت

حينئذ من صيد مجري وبيري ؛ وظهرت زراعة صيديق الزجاج (gerre) وأصبح عدد المدارس ٥٦ ، منها سبع مدارس ثانوية ؛ ومدرسة تقنية لتربية الجوزول ؛ وثلاثة مراكز للبحث العلمي... كل ذلك في هذه المنطقة التي كان يحيم عليه الجبل والحراقات .

وهكذا يضمن الاتحاد السوفييتي ازدهار مختلف الشعوب التي يتكون منها . فاستعادت قوميات قديمة مضطهدة استقلالها واستطاعت شعوب غاملة ، بفضل الاشتراكية ، أن تكون أمماً . كما استطاعت شعوب ذات اقتصاد بدائي وعقيلية قديمة « كالنيت » أن تنتقل في بضعة سنوات إلى طريقة الحياة الاشتراكية .

وهكذا ندرك كيف أن العلاقات بين الأمم ، (كبيرة وصغيرة) قد تغيرت تغيراً كلياً في مثل هذه الظروف .

فحل محل الريبة والمداوة للغة المتبادلة والتعلون الاخوي . ولهذا فعبت جهود الفخاة المتلوية مبدى ، اولئك الذين كانوا ياملون تحطم للعلاقات التي اقامتها الاشتراكية بين للشعوب السوفياتية بالقوة ، كانوا يعتقدون ، مثلاً ، أنهم يستطيعون تلجيج العواطف القومية القديمة من جديد في اوكرانيا ضد الشعب الروسي ، فلم يحدث شيء من ذلك . وبينما نرى الحرب العالمية الثانية قد أضعفت كثيراً للنظام الاستعماري الذي أقامته الرأسمالية ، إذا بانحياض الامم الاشتراكية يقوى في نضالها المشترك ضد النازية العنصرية ، عدوة الشعوب .

وهكذا تحققت صحة وجود وطنية سوفياتية تمارض التزعة الوطنية المتعصبة البورجوازية .

لا تقوم قوة الوطنية السوفياتية على المعتقدات العنصرية البالية أو المعتقدات

القومية ؛ بل هي تقوم على اخلاص الشعب وولائه العميق لوطنه السوفياتي، وعطفه
جميع العمال ، المقيمين في بلادنا ، الاخوي .

تشارك في الوطنية السوفياتية ، بانسجام ، تقاليد الشعوب القومية ومصالح
عمال الاتحاد السوفياتي الحياتية المشتركة . والوطنية السوفياتية ، بدلا من أن تفرق ،
تجمع ، على العكس ، جميع الامم والقوميات في بلادنا ضمن عائلة واحدة أخوية ،
من هنا تظهر أسس الصداقة المتينة التي لا تتزعزع بين شعوب الاتحاد السوفياتي .
كما أن شعوب الاتحاد السوفياتي ، من ناحية ثانية ، تحترم حقوق شعوب البلاد
الاجنبية واستقلالها . فقد اظهرت دائما رغبتها في أن تعيش بسلام وصداقة مع
الدول المجاورة . وهذا هو أساس العلاقات التي أخذت تنمو بين دولتنا وبين الشعوب
المحبة للحرية^(١) .

رايات الدولة الاشتراكية هي رايات الصداقة بين الشعوب التي كونت هذه
الدولة ، كما أنها رايات الصداقة مع جميع شعوب العالم ، ومن بينها الشعوب التي
لا تزال توزع تحت نير الرأسمالية . ولهذا كان من العبث الحديث عن « استعمار
رومي » : ذلك لان الثورة الاشتراكية ، بازالتها للبورجوازية الامبراطورية ،
قد اجتثت النزعة الامبراطورية من جذورها . فالاتحاد السوفياتي مسالم ، في
أساسه ، لانه اشتراكي . والوطنية السوفياتية على نقض النزعة القومية البورجوازية ،
فهي حب يحمله العمال السوفياتيون لبلاد الاشتراكية ، وهي ادوع مظهر للنزعة
العالمية البروليتارية .

نستطيع الآن أن نخلص للقول بأن الاشتراكية ، في نفس الوقت الذي توفر

(١) مثالين : حول حرب الاتحاد السوفياتي الكبرى ، ص ١٥٥

فيه ازدهار كل أمة مادياً وأخلاقياً ، تعجل في التقريب السلمي بين جميع الأمم .
ولما كانت الاشتراكية محررة للأمم فإنها تمهد لاتحادها .

٣ - مستقبل الأمم

دللنا في الدرس الثالث والعشرين على أن الأمم لم توجد دائماً . بل ان الأمم حقيقة تاريخية كوّنتها البورجوازية على أساس سوق واحد .

حتى إذا ما حطمت الطبقة العاملة ، بواسطة الثورة ، النير الطبقي ، حطمت في نفس الوقت ، النير القومي : وهكذا تضمن الاشتراكية بلجميع الأمم ازدهاراً منسجماً تالماً .

وليس هذا الازدهار نفسه سوى بداية ازدهار أشد روعة هو الازدهار الذي ستوفره الشيوعية للإنسانية جمعاء متى انتصرت في كل مكان .

إذ سيكون من نتيجة انتصار الشيوعية الشامل تكوين اقتصاد عالمي واحد . وهو شرط ضروري لتقدم قوى الانتاج المطرد . ومن ثمّ تفقد الحدود الأرضية مغزاها . إذ سوف يقرب ازدياد التبادل المادي والثقافي بين الشعوب . فسير نحو لغة عالمية واحدة ، غنية جداً ، لأنها سوف تتولد من اندماج عدة لغات قومية بصورة تدريجية .

متى زالت النزعة الامبراطورية وولت الطبقات المستغلة ، وانقضى عهد الاضطهاد القومي والاستعماري ، وحل محل العزلة القومية والريبة المتبادلة ، الثقة والتقارب بين الأمم ، وظهرت المساواة في الحقوق بين الأمم في الحياة ، وماتت سياسة

الاضطهاد ويُمثل اللغات، وتنظم تعلون الإسم وأمكن اللغات القومية، في تعاونها، ان تمضي بعضها بعضاً ... لا يمكن، في مثل هذه الظروف، الحديث عن اضطهاد وانحدار بعض اللغات وانتصار البعض الآخر ... سنجد انفسنا أمام مئات اللغات القومية التي سينفصل عنها أولاً؛ يتأثير تعاون اقتصادي وسياسي وثقافي طويل الامد بين الأمم، اللغات الخاصة بكل منطقة من مناطق العالم؛ ثم سوف تندمج هذه اللغات في لغة واحدة عالمية مشتركة، لن تكون طبعاً الألمانية أو الروسية أو الانجليزية بل سوف تكون لغة جديدة قد تمثلت أفضل عناصر اللغات القومية ولغات المناطق العالمية^(١).

سوف تكون اللغة الواحدة وسيلة ثقافة مشتركة، في مجتمعاتها من المواطنين والافكار، وفي صيغتها وتعبيرها، من أجل أولئك الناس الذين أدركوا، في كل مكان، أنهم في مرحلة في تطوّرهم التاريخي وأصبحوا أفراداً في وطن واحد هو وطن الشيوعية الشاملة.

(١) مثالون: د حول الماركسية في علم اللغة آخر مؤلفات ص ٨٠، يتفق هذا مع نحو الشعوب الموحدة، فهو يتكون اللغة الوحيدة بواسطة عملية تاريخية بطيئة، في ظروف الشيوعية العالمية الاقتصادية والاجتماعية. وسوف تكون وسيلة ناجحة لنشر الثقافة لانها فترة عملية طويلة الامد، وسوف تسم بأروع ما اكتبته المدينة عند مختلف الشعوب، نرى ان مثل هذه اللغة لا تشبه بشيء هذا الخليط الاسطعاعي أهم الاسبرتو، لان الاسبرتو -، وان كان الكثير من لصارها دعاء تقدم - سبي لتحويل الشعوب عن النضال الثوري. ويقول دعايتها ان تحرير الشعوب سيتم بتعمم الاسبرتو. وهذه وجهة نظر البورجوازية الصغرى. اذ ما تكلم الرأسمالي والبروليتاري الاسبرتو، ظن هذا ان يزيل الاضطهاد الطبقي. فالطريق الثوري الوحيد أمام الجماهير هو التخلي عن الطبقية العالمية.

وهكذا نجتاز الحدود القومية .

غير أن المشكلة ، في هذه الأيام ، ليست مشكلة تجاوز الأمم ، بل أن مشكلة الشعوب ، اليوم ، هي مشكلة تحريرها من النير الرأسمالي وإزدهارها الاشتراكي ، أنجل إزدهارها الاشتراكي ، لأن الماركسية حين تتحدث عن « توحيد الأمم » لا تعني بذلك قط فناعسا ، والطريق إلى الاتحاد هو الإزدهار الذي يشتمل الانتقال إلى الاشتراكية .

يجب أن ندع الثقافات القومية تنمو وتكشف عن قواها الكامنة لتتوفر الظروف التي تسمح بصرها في ثقافة واحدة مشتركة ، ذات لغة واحدة مشتركة . ويحدث إزدهار هذه الثقافات القومية في صورتها ، الاشتراكية في محتواها ... من أجل أنصارها في ثقافة واحدة اشتراكية (في صورتها ومحتواها) ذات لغة واحدة مشتركة متى انتصرت البروليتاريا في العالم أجمع ، وتسربت الاشتراكية إلى العادات . وهذه هي جدلية الطريق الصيني في طرح مشكلة الثقافة القومية^(١) .

ملاحظة حول الألزاس والموزيل

يساعدنا مبدأ النزعة العالمية البروليتارية ، لوحده ، على حل مشكلة الاقلية القومية بصورة صحيحة .

وهذا هو حال سكان مقاطعات ثلاث : الرين الاسفل ، الرين الاعلى ، والموزيل .

(١) صالين : الماركسية والمادة القومية والاستمرارية ص ٣٣٧ - ٣٣٨

لا يوجد « أمة » ألزاسية بالمعنى الكامل لهذه الكلمة . ولكننا ، إذا رجعنا إلى تعريف الأمة العلمي ، نلاحظ ان هذه المقاطعات لما وضع خاص .

لا يمكن أن نتحدث عن « وحدة لغوية » مع فرنسا، متى وجدنا البالعين ، فوق الأربعين سنة (ما خلا بعض المناطق) والشبان بين ١٦ - ٢٠ سنة لا يعرفون تقريباً اللغة الفرنسية ، كما أن الذين تعلموا الفرنسية لا يتكلمونها أو يكتبونها إلا بصعوبة لقلّة الممارسة - لان لغة التخاطب في العائلة وفي العمل هي لهجة أصلها الماني . ويكفي أن نقارن بين ما تطبعه صحف اللغة الألمانية وبين ما تطبعه صحف اللغة الفرنسية لنؤكد من ذلك .

أما التكوين النفسي ، فيصعب علينا أن ننكر أنه يختلف عن التكوين النفسي الفرنسي بسبب الاختلاف اللغوي ولا سيما الاختلاف في تطور الازراس التاريخي :

إذ أن سلسلة من التجارب التاريخية التي قامت بها الأمة الفرنسية بين عامي ١٨٧٠ - ١٩١٩ (فصل الكنيسة عن الدولة وقضية دريفوس مثلا) لم تنطبع في وعي سكان الازراس واللورين انطباعاً في وعي سائر الامة . كما لا يمكننا أن ننكر أن فترة ١٩٤٠ - ١٩٤٥ عاشها الشعب في الازراس واللورين بطريقة تختلف عن سائر الناس في فرنسا .

وكذلك لا توجد وحدة قومية بين المانيا والازراس لنفس الاسباب التاريخية وبالرغم من وجه القرابة اللغوية ، ولهذا فإن تجربة الثورة الفرنسية الكبرى أو تجربة ١٩٣٦ قد أثرت تأثيراً قوياً في الازراس بينما لم تؤثر في الشعب الألماني .

نلاحظ إذن وجود خواص قومية في الازراس واللورين ، فهل هي لا تخلو من القية ؟ أو ليست مصدراً لعدد من المطالب ؟

أجل . وتجاهل هذه المطالب على يد الحكومات الفرنسية سبب شعوراً بالنقص
وأثار الاستياء بين صفوف سكان الألزاس واللورين .

وهذا بدعي فيما يتعلق بالمطالب المادية الخاصة ... كالضمان الاجتماعي ،
وكساد المحصول الزراعي (الحمر ، التبغ) ، والفروق في الضرائب ، ووضع
الموظفين ، وضحايا الحرب ... الخ .

وهذا بدعي أيضاً فيما يتعلق بمشاكل اللغة : فاستعمال اللغة الفرنسية فقط في
النشرات الادارية (ما عدا أوراق الضرائب) وأمام المحاكم ، وفي مجالس الشركات
يؤدي إلى مظالم عدة يشعر الناس كأنها عقاب لهم .

كما أن تعليم اللغة الفرنسية لوحدها يؤدي ، من جهة ، إلى أن الاطفال الالمات
الذين يتخرجون من المدرسة الابتدائية لا يعرفون اللغة الالمانية الادبية كما أنهم
يعرفون اللغة الفرنسية أقل من الاطفال الفرنسيين في المقاطعات الأخرى . لاث
هؤلاء يتكلمون اللغة الفرنسية عند دخولهم إلى المدرسة في السادسة من عمرهم ، كما
يتكلمونها في الشارع ، وفي العائلة ، بينما على صغار الالزاسيين - الذين يتكلمون
لهجتهم الخاصة خارج ساعات الدرس - ان يتعلمو اللغة الفرنسية بأكملها .

ومن جهة ثانية فإن تعليم اللغة الفرنسية فقط يؤدي إلى أن الشاب الالزامي الذي
يبتعد لسبب ما (كالمعلم أو الخدمة العسكرية) ، عن عائلته ، لا يستطيع
مراسلتها باللغة التي يفهمها والداه أو جداه ، كما يجد صعوبة في قراءة رسائلهم
باللغة الالمانية^(١) .

(١) من رسالة وجهتها أمانة الحزب الشيوعي الفرنسي ، ٢٢ أيار ١٩٥٠ ، الى شيوعي
« Saint - Louis Hunenigne - Hegenheim » (الرين - الاعلى) ، كراسات
الشيوعية نيسان ١٩٥٠ ، ص ٥٨ . راجع أيضاً في كراسات الشيوعية ، آذار ١٩٥٠ بحث ف . يو
« مسؤوليات شيوعي الألزاس واللورين الكبير » .

تحتل الأتزانس واللورين على المستوى التاريخي ، والقوي ، والقياسي ، والقياسي ،
والاقتصادي شخصية أصيلة بالنسبة للأمة الفرنسية والأمة الألمانية على السواء .

وتتكرر البوجوازية الفرنسية هذه الأصالة . وهي تناهض ، لاسيما ، مطلب
العمال الأتزانسين الواضح بازدهاجية اللغة (الألمانية والفرنسية) في المدرسة
الابتدائية . وهي تدعي ان مثل هذا المطلب لا أساس له بالرغم من الوقائع البديية .
(حتى إذا وجب معاقبة جزاري اورادور عاوضت بذلك بحجة أن بعضهم
الأتزانسون) .

غير أنه ينبغي أن نلاحظ أن نفس هذه البوجوازية ، بعد أن شجعت في
الأتزانس واللورين عمل صنائع هتلر ، سلمت الأتزانسين واللورينين إلى هتلر
عام ١٩٤٠ بدون أية صعوبة .

وهي تعمرم اليوم ، بالرغم من رفضها لمطلب العمال الأتزانسين (ولا سيما
فيما يتعلق باللغة) بدعاية « أوروبية » ضخمة ، فهي تود لويقع العمال الألوايسيون
في فخ « أوروبا المتحدة » ، على أمل أن تعطيمهم « أوروبا » أخيراً ما رفضته فرنسا .
وهكذا تريد البوجوازية الفرنسية ، مرة أخرى ، تحويل عمال الأتزانس واللورين
إلى طيارين في الطيران الألماني . فهل هناك موقف أكثر تعاضفاً مع مصالح عمال
فرنسا ومصالح عمال الأتزانس ؟

بينما يختلف موقف الطبقة العاملة الفرنسية . فهي تعترف ، بحسب النزعة المألية
البروليتارية ، بمطالب الاقلية الأتزانسية القومية كما تعترف لها بحقها في تقرير مصيرها .
(أي حق الانفصال) .

غير أن الحق في الطلاق ليس وجوب الطلاق .

إذا كان على شيوعي فرنسا أن يلحوا في القول على الحق في الانفصال ، ضد
التزعة الامبراطورية المضطهدة ، فإن على شيوعي الألزاس واللورين أن يوضحوا
الاتحاد الحر الذي وضته شعوب الألزاس واللورين مع عمال فرنسا ، مخافة التردّي
في التزعة القومية الضيقة^(١) .

ليست مصلحة عمال الألزاس واللورين ، الحالية ، في الانفصال . بل مصلحتهم
في الدفاع عن مطالبهم القومية في اتحادهم الوثيق مع عمال فرنسا . وهذا ما حدث
في عام ١٩٣٦ حينما حارب عمال الألزاس الجبهة الشعبية . وكما حدث أثناء الاحتلال
النازي ، فقد فاضل عمال الألزاس واللورين ، متحدين مع الطبقة العاملة الفرنسية ،
ضد المحتارين (وأعدائهم) . وسائق القطار الشيوعي فولدي هو رمز بطولة هذا النضال
الموحد ضد العدو المشترك .

ومصلحة عمال الألزاس واللورين ، اليوم ، هي في النضال مع عمال فرنسا ضد
البورجوازية الرجعية من أجل الحريات الديمقراطية والتقدم الاجتماعي ، وضد بعث
النازية في ألمانيا ، وضد أدولف هتلر وسلاح طيرانه .

(١) م : فولز : « كل شعوب الألزاس واللورين في تقرير المصير » (صحيفة الاوفاتبي ٢٠
شبرن الثاني ١٩٣٤ مؤلفات ، كتاب ٢ ، ج ٧ ، ص ١٤٠)

فهرست الجزء الثاني

صفحة	صفحة
الدوس السادس عشر	القسم الرابع
٢٩ قانون الترابط الضروري بين	المادية التاريخية
علاقات الانتاج وطابع قوى	الدوس الخامس عشر
الانتاج	٥ الانتاج ، القوى الانتاجية
٣٠ قوى الانتاج هي أكثر العناصر	وعلاقات الانتاج .
ثوية في الانتاج	٦ ظروف حياة المجتمع المادية .
٣٤ تأثير علاقات الانتاج على قوى	٨ البيئة الجغرافية .
الانتاج	١٠ السكان :
٣٥ قانون الترابط الضروري	١١ طريقة الانتاج .
٣٨ تأثير عمل الانسان	١٢ القوى الانتاجية .
الدوس السابع عشر	١٥ علاقات الانتاج .
٤٤ نضال الطبقات قبل الرأسمالية	١٩ ملكية وسائل الانتاج
٤٥ أصول المجتمع	تغير طريقة الانتاج مفتاح تاريخ
٤٧ ظهور الطبقات	٢٣ المجتمعات
٥٤ مجتمعات الرقيق والاقطاع	٢٧ الخلاصة

صفحة	صفحة
١١٢ الخلاصة	٥٩ تطور البورجوازية
الدوس العشرون	الدوس الثامن عشر
الاشتراكية	٦٧ تناقضات المجتمع الرأسمالي
١١٤ التوزيع والانتاج	٦٨ علاقات الانتاج الرأسمالية :
١١٧ أساس الاشتراكية الاقتصادي	تناقضها النوعي
١٢٤ الشروط الموضوعية للانتقال إلى	٨٤ قانون الترابط الضروري في
الاشتراكية	المجتمع الرأسمالي
١٢٦ قانون الاشتراكية الأسامي	٨٥ الترابط بين علاقات الانتاج
١٢٩ الشروط الذاتية للانتقال إلى	الرأسمالية وطابع قوى الانتاج
الاشتراكية ولنموها	٧٩ التزاع بين علاقات الانتاج
١٣٥ الخلاصة	الرأسمالية وطابع قوى الانتاج
الدوس الواحد والعشرون	٨٦ نضال طبقة البورليتياريا منهج لحل
١٤٣ من الاشتراكية إلى الشيوعية	التناقض بين علاقات الانتاج
١٤٤ مرحلة المجتمع الشيوعي الأولى	وقوى الانتاج
١٤٩ » » » العليا	٩٣ الخلاصة
١٥٤ قوى الانتاج وعلاقات الانتاج في	الدوس الثامن عشر
الاشتراكية	البناء الفوقي
١٦٠ شروط الانتقال من الاشتراكية	٩٥ ما هو البناء الفوقي
إلى الشيوعية	١٠١ يتولد البناء الفوقي بواسطة الأساس
١٦٥ الخلاصة	١٠٤ البناء الفوقي قوة فعالة
القسم الخامس	١١٠ ليس للبناء الفوقي مرتبطاً مباشرة
١٦٩ النظرية المادية عن الدولة والأمة	بالأساس .

الدوس الثاني والعشرون

١٧١ الدولة

١٧٢ الدولة والمصلحة العامة

١٧٥ الدولة ثمرة تعارضات الطبقات
المتنازعة

١٧٦ أصل الدولة

١٨٥ مهية الدولة للتاريخية

١٩٣ محتوى الدولة وصورتها

١٩٤ » » الاجتماعي

٢٠٢ صورة الدولة

نضال الطبقات والحرية

٢٠٦ البورجوازية والحرية

٢١٠ البروليتاريا والحرية

الدوس الثالث والعشرون

٢٢٤ الأمة (١)

٢٢٥ الأمة والطبقة الاجتماعية

٢٢٦ النظرة العلمية للأمة (٢)

٢٢٦ ماهي الأمة ؟

٢٣٤ بعض أخطاء يجب تجنبها

٢٣٧ البورجوازية والأمة

٢٣٧ تكوين الأمم البورجوازية

٢٣٩ البورجوازية على رأس الأمة

٢٤١ البورجوازية خاتمة للأمة

٢٥٠ الطبقة العاملة والأمة

٢٥٠ النزعة العالمية البروليتارية

٢٥٦ النزعة الوطنية البروليتارية

الدوس الرابع والعشرون

٢٦١ الأمة (٢)

٢٦٣ مسألة الاستعمار : حق الأمم في

أن تكون سيدها نفسها

٢٧١ الأمم الاشتراكية

٢٧١ المسألة القومية والثورة

الاشتراكية

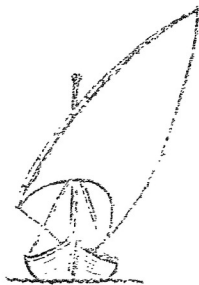
٢٧٣ ميزات الأمم الاشتراكية

٢٨١ مستقبل الأمم

٢٨٣ ملاحظة حول الألزام والموزيل



البحر و لبحر لبحر



مكتبة
البحر و لبحر لبحر